رواية

خـالِدخليفـة

دفَاتِرُالقرْبَاط

دار الآداب

خـالِدخليفـة

دفَاتِرُالقرْبَاط

دار الآداب

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

رواية عن أب يجمع دروع السلاحف، وخالٍ يهيم عشقًا وراء حبيبته القرباطيّة، وأختٍ تنتظر مَنْ يفتضّ بكارتها، وجدّةٍ لا تُسلّم أسرارَ الجدّ الأكبر، وراوٍ مجنون يبحث عن أصول الحكاية في العنّابيّة ـ هذه القرية المعزولة في شمال حلب، تنتظر القرباط ليُعيد البهجة واللهفة للحياة.

رواية عن الحب والغربة والروح التي تبحث عن الطمأنينة...

خالد خليفة روائي وسيناريست سوريّ. صدرت له رواية «حارس الخديعة» و«دفاتر القرباط» و«مديح الكراهية» التي تمّ ترشيحها للائحة القصيرة لجائزة «بوكر» العربيّة.

ISBN: 978-9953-89-145-3
9789953891453

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣ - ٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

خالد خليفة

دفاتر القرباط

رواية



دار الآداب - بيروت

دفاتر القرباط

خالد خليفة/روائيّ سوري

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام 2010

ISBN 978-9953-89-145-3

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 11-4123

بيروت ـ لبنان

هاتف: 795135 (01) - 861633 (01) - 861632(03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

Facebook: dar al adab

دفاتر القرباط



الدفتر الأول

خيام وموسلين وغرابيل

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية، يُراقب الغرباء ويتذكّر سنوات غربته الثلاثين التي عاد بعدها إلى العنّابيَّة رجلاً مختلفًا، نضراً، نظيف اليدين دومًا، وفي حقيبته الكثير من الأشياء التي لم يرها أحد، تكلّم عن أشياء كثيرة لم يستوعب أحد شيئًا منها، قال: إنَّ الحديد يطفو فوق سطح الماء ويسير كالدوابّ محمَّلاً بالبشر والقطن والسمسم، وإنَّه شاهد مكان دوسة رِجْل الرسول محفورة على مرمر في متحف اسطنبول، وإنَّ السلطان ينكح كلّ يوم امرأة، وإنَّ أكثر من خمسمائة رجل وامرأة وطفل ماتوا خلال ساعتين في دمشق حين صدر الفرمان بإبادة الأسرى المجمَّعين في أحد الخانات الكبيرة الواقعة على الطرف الشرقيّ من الطريق المؤدِّي إلى بغداد، والقتلة لم يكونوا أكثر من عشرين رجلاً مسلَّحين بحدائد صغيرة تطرح الأسرى أرضًا بطلقات وتترك وراءها رائحة بارود، وهي تقذف اللهب من أسطوانة ممدودة إلى الأمام كمنقار ديك رومي.

من ذلك المجلس نهض جدّي سويلم الرابع وأحضر طستًا مملوءاً بالماء، وأبحر فيه قطعة حديد غرقت فوراً وسط ضحكات العنّابيّين وصراخ هادي بأنّ ذلك الحديد يدعى مركبًا وذلك الماء بحراً، قالوا الرجل مجنون.

هادي العنّابي مقرفص في الزاوية يراقب الغرباء ويتذكّر، لن يستطيع أن يعبُر الدرب الشرقي حيث المدينة والأضواء التي أحبّها. هادي العنّابي مات بعدما داهمه الجنون وبدأ يأكل أعشاب البراري، منقِّبًا عن جبلٍ من ذهب في الجهة الغربيّة من القرية كان يعتقد بوجوده مع هياكل عظميّة لقافلة ضلّت طريقها وهي تجمع الخراج، فداهمها سيل جارف وأغرقها، وهدّد بيت مال الخليفة عبد الملك بن مروان بالإفلاس.

احتفظ العنّابيّون بقبّعته المدوّرة وعصاه اللامعة المنتهية برأس وحش خرافي مغلق الفم، فتحوا حقيبته فوجدوا فيها أشياء غامضة تخشخش وتتبدَّل ألوانها، وأقمشة غريبة.

العنّابيّون استعاذوا باللّه وأحرقوا كلّ شيء، وأنا ما زلت أبحث عن أصول الحكاية وسط ركام تاريخٍ يُروى صدفة.. بشر زائلون وخرائب.

لا تستطيع الحيرة أن تستوطن مخيّلتي، والأسئلة المغامرة التي ترتدّ تعلِّمني أن أهادن قليلاً كي أجمع أصول الحكاية.. بيوت، زرائب، تراب وتبن أبيض، قليل من القشّ والأغصان اليابسة، طوبة فوق طوبة ترتفع الجدران شرهة للكلس، ومسامير معظمها لتعليق الثياب والسجاجيد الملوَّنة المستحضرة من مكّة مع قوافل العائدين المتباركين بمياه زمزم وبالحجر الأسود الصقيل.

رفوف لوضع أطباق النحاس الملمّعة بالقصدير، والمركونة لأيّام الولائم العابرة. بيوت وأزقّة ضيِّقة. زرائب أغنام تجاور إسطبلات البغال

التي تجاور غرف النوم. كلّ شيء مخطَّط كي تسمّى هذه الخرائب قرية أو مكانًا مأهولاً تعترف به المناطق المجاورة ودوائر الحكومة التي تطالب بجزية مديري المناطق وموظّفي الحكومة العابرين مع الدرك الذين ينهبون الصمت والطمأنينة بوقع حوافر خيلهم الرشيقة، وجزماتهم التي تخشى الغبار كثيراً.

العنّابيّة ضائعة وسط البراري، وبين أصابع شبه الجبال التي تحيط بها من الجهات الثلاث والمفتوحة على الجنوب بأراضٍ جرداء ومغاور. لم ينتبه أحد إلى هذه البصقة على حدّ تعبير أحد الولاة حين قامت الحكومة في العهود العثمانيّة بتسجيل سكّانها المقدّرين بأكثر من أربعمائة نفر، حسب إحصاءات عام ١٧٨٣ ولا يريدون الانتظام في أيّ سجلّ حتى سجلّ المساعدات الممنوحة للقرى الموالية للسلطان الأعظم.

بعد هذا المسح الشامل للبشر والأشجار والكائنات الأخرى، من أغنام وماعز وبغال جرباء وأحصنة، حتى الدجاج لم تستطع الأقنان حمايته من الأرقام المتساقطة على الدفاتر السوداء الكبيرة، بعد هذا بثلاثة عشر عامًا ضلّت إحدى الدوريّات طريقها المعتاد، وداهمها المساء على باب أوّل البيوت، تملّكتهم الدهشة حين نظروا في الوجوه المسمّرة كموميااءات فُتحت أكفانها للتوّ، قرية لم تسمع بالكثير ممّا جرى للبلاد ولا تتدخّل بشؤون القوافل. وفهمت الدوريّة من أحاديث السكّان الذين أكرموا ضيافتهم أنَّ العالم يغلق حدوده بعد ذلك الدرب المتعرِّج الذي يبتلع أولادهم وقد لايعيدهم إلاّ بعد سفر طويل.

عادت الدوريّة مع موظّفي المسح الشامل المتثائبين بملل أبديّ، معتقدين أن الهواء في هذه البقعة يحمل مخدّرًا ويحيط الغرباء بقوّة

نبذ مغناطيسيَّة، تكثّفت الحملات وانعقد لسان السكّان الذين كانوا لفرط دهشتهم يتلمّسون العسكر ببزّاتهم ويستغربون الجزمات الطويلة اللامعة في ضوء الشمس الربيعيّة كالمرايا.

استجاب العنّابيّون في البدء لكلّ الأسئلة المطروحة خائفين، وبعدما أيقنوا أنَّ هذه الدفاتر المهترئة ستخلق شركاءَ جدداً لهم في محاصيلهم بدؤوا يخاتلون ويغلقون الأبواب في وجوه الموظّفين الذين هدَّدوا بالحكومة والعسكر المستعدّين لتكسير الأبواب وخلع أسيجة الزرائب وإطلاق الأسماء الجديدة التي أضحكت السكّان طويلاً.

بعد رحيل هؤلاء الموظّفين مع دفاترهم، تحادث العنّابيّون وقرَّروا الاحتفاظ بأسمائهم، متناسين الألقاب المضحكة المدوّنة على قرار رسميّ ومهور بخاتم الحكومة المركزيّة، واكتشفوا أنَّ اللائحة تحمل في معظمها أسماء الأموات الذين استقرّوا في المقبرة الجديدة منذ نصف قرن.

العنّابيّة مرّة أخرى ألوان مبعثرة، وغبار كان ينفضه أبو محمّد سليم عن دروع سلاحفه التي لا أعرف متى بدأ بجمعها وبملئها تبناً أبيض لإغراء العناكب كي ترمي شباكها، وكان يردِّد: العناكب مقدَّسة حمت الرسول وضلّلت المشركين.

أمّي توافق وتبسمل ثم تحوقل وهي ترى دروع السلاحف تصطفّ على الرفوف والعناكب مبتهجة بهذا الأمان، وكنت أرى ثياب أبي المغبرّة ويديه تعملان في تنظيف درع سلحفاة، فأقف على الباب بثيابي الخشنة أمصّ أصابعي وأغيب في تلك الألوان.

عالم لم أستطع فكّ رموزه، اخضرار واصفرار وعمود غبار ينزل من طاقة السقف المفتوحة بشكل مائل. أبي لا يتكلّم كثيراً كعادته، ولا يردّ على هزء أمّي وتهديدها بأنّها ستقذف كلّ شيء إلى المزبلة وتخلّص الرجل من جنونه، وأخواتي فاطمة وعائشة وزليخة يتهامسن فأسمع هسيس ضحكاتهنّ وهنّ مبلّلات بالماء. فاطمة في الثامنة عشرة، أحبّ عينيها السوداوين ووجهها الأسمر الصافي، وضحكتها وهي تدلق ما في علبتها من ماء في البرميل الكبير، ومن ورائها عائشة الأصغر بسنة واحدة ثم زليخة بمحاولتها اليائسة أن تكبر قبل الأوان، وتأنيب أمّي لها ألاّ تترك خصلات شعرها مفرودة من تحت الغطاء الأسود المدقّق بخرز أزرق.

أدخل منزلنا الواسع، ودروب العنّابيّة صامتة، يغطّيني الغبار، وذكريات بيوت مهجورة، زليخة وعائشة وحيدتان بعد رحيل فاطمة مع زوجها إلى بيروت حيث يعمل، قالت له أمّي إنّ بيروت مدينة كبيرة، والغرباء لايرحمون أحداً. فاطمة ابتهجت بالأثواب الناعمة التي أحضرها عليّ في حقيبة جلد بنّيّة أثارت أقفالها الأنيقة انتباه زليخة فبقيت طوال اليوم تعبث بها لتفتحها، تبتهج بملامسة نعومة جلدها ثم تعيد إغلاقها. فاطمة استدعت عائشة وزليخة وأغلقت الباب والشبابيك في الغرفة العلويّة وفردت أثوابها.

لبست جميع الأثواب، البرلون الأحمر والأزرق أثارا فضولها بعريهما الفاضح، وتعالت ضحكاتها عالية حتى وصلت إليّ وأنا أجوس في أرض الحوش الواسع وأدخل غرفة جدّتي. فاطمة تشرح لهما وتضحك، فيما بعد قالت لي زليخة إنّ عائشة أيضًا لبست جميع

الأثواب ووضعت أحمر الشفاه وأحبّت ملمس البرلون الناعم على جسدها وتنهّدت. وفي المساء جاء عليّ مع أهله، جلسوا في صدر الغرفة، وكان أبي في المقابل صامتًا غير آبهٍ بكلّ ما يجري وخالي أبو الهايم الذي استدعته أمّي، وأنا قرب العتبة أرى أمّي المرحّبة البشوشة، القويّة وهي توافق على كلام خالي الذي أثنى على أخلاق عليّ قائلاً إنّنا أهل أوّلاً وأخيرًا، والبنت مخطوبة له منذ سنة والزواج مناسب وإنّ إصرار أمّي ألاّ تتغرَّب فاطمة، ويعود عليّ ويشتري قالب بيتون أو يشارك فيه قد صرفنا النظر عنه، فهو الرجل، والمرأة تلحق به أينما كان. أثنى الجميع على كلام خالي وأبي أثنى أيضًا. وفي اليوم التالي نزلت أمّي مع فاطمة بصحبة عليّ وأمّه وأبي علي إلى حلب، كي يكمّلوا تجهيز العروس. صباحًا استيقظتُ على الجلبة وهم يُحَضّرون أنفسهم للسفر، فاطمة بثوب أبيض منقوش بورود حمراء مقصّبة، ضيّق يبرز ثدييها والجزء العلوي من رقبتها، وغطاء رأسها الأسود الجديد يبرز جمال وجهها بتدويرته النضرة.

من النافذة رأيت أمّي وهي توصي عائشة بي وبالجدّة وبالدار، وتحمل في يدها بقجة فارغة وتلحق بالسيّارة التي تُزَمّر منتظرة قدومها، عائشة تراني نازلاً من الغرفة العلوية حيث أحبّ الاستمتاع من هناك بمشهد الغرف السبع المصفوفة بانتظام، مشكّلة الدار الواسعة، ومع أبي الذي لا يمانع أن ألمس دروع سلاحفه وأنام قريبًا منه ومنها.

عائشة في طريقها إلى غرفة جدّتي، حاملة الفطور وثيابًا نظيفة. أسمع صوت جدّتي الناعم، الهادئ، الواثق المرتجف قليلاً وهي تحادثها من الداخل، أنا على العتبة وعائشة ترتّب ربطة الرأس

لجدّتي التي يطالعني وجهها أينما ذهبت، وجهها الذي يختزن في تغضّناته أفراح الجميع وأحزانهم، مهملة أغلب أيّامهم المتكرِّرة بانتظام كوقع أقدام ثقيلة على بلاط، فتغيب عن ذاكرتها التي تبعث على الحيرة من عدم اقتراب النسيان منها، كأنّها صخرة غرانيت في عراء مطلق نُقشت عليها بإزميل فولاذي مدبّب التواريخ والوجوه والأسماء والروائح. جدّتي ليست لنا فقط، كانت مباحة للجميع، جميع العنّابيّين، ملّحت أجسادهم قبل أن تلفّهم بالخرق البالية، بوجهها الكتّاني المغبرّ عبرت أعمارهم جميعًا، وما زالت مثار جدل حول عمرها وعدد الغائبين الذين ودّعتهم وما زالت تنتظرهم، كأنَّها وُلدت مع الطوبة الأولى لهذه الخرائب، ولن تنتهي إلاّ مع النشور وقيام عنّاب من رماده.

على العتبة أقف وأراقب الحائط المطروش بكلس أبيض. جدّتي تنهض من نومها، مجلّلة بهذه الرهبة التي أراها في عيون الآخرين، فأقترب منها، تحتجّ عائشة وتحاول أن تمسكني من يدي لتبعدني عنها، وتقول انهض فجدّتي تريد أن تفطر، تشير لها أن تتركني، وعائشة تغمزني كي أنهض فلا أنهض.

أحبّ ألوان ثيابها ورائحة يديها وهي تمسك بشعري، وعيناها تُفهمان أبي أن يكفّ عن عاداته السيّئة ويكبر ليصبح رجلاً مهابًا كجدّي أو على الأقلّ كأعمامي، الذين رحلوا. أبي يجلس على العتبة ويحدِّق في الفراغ، جدّتي لا تتكلَّم إلا قليلاً جدّاً، لا تخرج من غرفتها إلاّ إلى مزار عنّاب الذي يعتقد الجميع أنّه الأب الكبير الذي استقرّ في هذه الأرض ومنح هذه السلالة شرعيّة الوجود.

جدّتي تروي الحكاية للمتحلّقين حولها. أحبّ الضوء المنبعث من يديها، وأسمع الخرافات التي تُروى عنها وأستمتع. وفيما بعد بدأت أؤمن أنّ لها صلة حقيقيّة بكلّ ما يُحكى عنها. كنت ذلك الذكر الذي يتهادى بذكورته، حاملاً هذا الإرث الكبير الذي بدأ يكبِّلني وأنا أنسى رائحة البراري التي تفوح من مساماّتي.

عادت أختي فاطمة مع أمّي مساءً. أوصلهما عليّ ووضع الأكياس والبقج على عتبة الغرفة الكبيرة، ثم عَرّج على غرفة جدّتي، قبّل يدها بوقار، تمتمت بأدعية طويلة وابتسمتْ حين رأت حيرته قبل أن يغادر مستأذنًا.

فاطمة انتظرت رحيله وغمزته، رأيتها تغمزه وهو يبتسم قبل أن يخرج من الباب الكبير، شاكرًا دعوة أبي للعشاء. حملت الأشياء إلى الغرفة العلويّة، طردتني ولحقت بها عائشة وزليخة ثم بنات أخريات لا أعرفهنّ، أمّي تضحك وهي تقطع أرض الحوش حاملة صحنًا من التفّاح بيدها إلى غرفة جدّتي، أنا قرب جدّتي وأمّي تروي كيف أنّها أجبرتهم على شراء أربعة شراشف، وثلاثة أثواب، وأشياء همست لجدّتي بها فضحكت وبان لي فمها العميق وأسنانها المحمرّة. أمّي أحضرت لي أيضًا بنطالاً وقميصًا ولجدّتي أشياء كثيرة لم أتبيّنها، أخبرتها عنها فهزّت رأسها. أصوات البنات في الغرفة العلويّة تثير فضولي والروائح المتسرِّبة من الشقوق تأخذني إلى عوالم البهجة المفترضة.

قالت لي زليخة إنّهنّ ألبسنَ فاطمة عروسًا وكانت جميلة، صفَّفت أثوابها الجديدة وأرواب البرلون والألبسة الداخليَّة التي انتقتها بذكاء. لم يخطر ببالهنّ أنَّ هذه الأشياء حين تُلبس تبرز الفرج بهذا

الجمال، لم تقل زليخة كلّ الأشياء، لكنّي كنت أرى تنهّدات الأخريات، خاصّة عائشة التي أعادت لبس السوتيان أكثر من مرّة وأوصت أمّي أنّها تريد مثله تمامًا، وحين قالت لها حين تتزوّجين، احتجّت وقالت إنّها لن تتزوّج إذا ما بقيت أمّي تردّ الخاطبين بحجّة أنّها تريد مطرحًا كيّسًا لها، وأنّها ستعيش وستغدو كبيرة ودميمة ولن تتزوّج كما تتزوّج العوانس من رجال كبار أرامل أو على ضرّة، وهدّدت بأنّها لن تتزوّج إلاّ من تراه مناسبًا. كانت عائشة في تلك الأيّام القليلة السابقة لعرس فاطمة مختلفة، مهمومة، مشغولة دومًا، متعبة من أعمال المنزل، ويوم العرس جلست بجانب فاطمة وبُحّ صوتها، زغردت وغنّت وابتهجت جدّتي، دخولها إلى الغرفة العلويّة بصحبة خالي أبي الهايم الذي تفوح منه روائح طيّبة، حليق الذقن ومبتهجًا، أثار حماسة النسوة فتعالت الزغاريد، نهضت فاطمة بثيابها البيضاء ووجهها المطموس بالكريم وقبّلت يد جدّتي التي بدت أكثر شبابًا وجلست على كرسي وُضع خصّيصًا لها قرب العروس.

جلستُ في حضن جدّتي وأتت أمّي تنهرني كي أخرج، قالت إنّي أصبحت شابًّا، إلاّ أنّ وجود خالي الذي جاء كي يبارك لفاطمة جعلني أتعلّق بيده وأذهب معه إلى الغرفة الكبيرة التي جلسنا فيها مع الرجال المقرّبين، وصوت الطبل أسمعه يدقّ في دار أبي عليّ. لذّة أن تقتحم تجمّعًا نسائيًّا كهذا حيث كلّ شيء يدعو للهيجان.. صدور النساء وشعورهنّ والرغبة المتفجّرة في العيون التي تطالع ذكورتك وتستبيح عريك المكتوم. بدا لي منظر عليّ مضحكًا وهو يدخل من باب بيتنا آخر الليل بصحبة إخوته ووالده وأصدقائه، ثم وهو مصمود

بجانب أختي على كرسيّ خيزران وُضِعَت فوقها مخدّة طويلة وهو يطرق برأسه خجلاً من هذه الرغبات النسائيّة المسفوحة أمامه والمثيرة للهيجان. أمّه زغردت طويلاً، ثم نهضت فاطمة فسلّمت على أبي وقبّلت يده، ثم سلّمت على خالي وقبّلتني. كانت رائحتها لذيذة، ورأيت دمعة في عينيها وهي تحتضن عائشة وزليخة ثم أمّي، وطفرت الدمعة حين وقف عليّ وفاطمة أمام جدّتي التي نهضت وباركت هذا الزواج بكلمات قليلة لم أسمع منها أيّ شيء وسط هذا الهرج.

خالي أبو الهايم كان فاتنًا، وكنت أراه يتدلّه وسط النساء وهو يرقص ويغامزهنّ فتحمرّ وجوههنّ. رحل الموكب واكتشفت أنّ ثيابي الجديدة قد اتّسخت ولم يعد لها ذلك البريق الذي افتخرت به أمام أولاد العنّابيّة وأنا أعلّق ميداليّتي في عروة البنطلون، ثم وأنا أفتح الأزرار العلويّة للقميص وأعيد إغلاقها من حين لآخر. ورأيت أختيّ وأمّي يبكين ثم يضحكن ثم ينهضن للنوم بترتيب جديد، أختاي صعدتا إلى الغرفة العلويّة بعد أن نظّفتاها من وقع الأقدام وأنفاس النساء.

أبي لملم دروع سلاحفه في صندوق من التنك، ولم تمهله أمّي كي يعيد ترتيبها، فأخذته إلى الغرفة الكبيرة وفرشت له وسطها، أخرجت شراشف نظيفة من الصندوق العتيق. قالت لي زليخة فيما بعد إنّ عائشة كانت طوال الليل تئنّ وهي تمسك بفرجها وتتلوّى، وزليخة تحت الغطاء الخفيف في فراشها خائفة. قالت زليخة إنّ عائشة لم تهمد حتى آذان الفجر وكانت أصواتها لذيذة. أنا قرب جدّتي كنت مبتهجًا بأسرارها، وابتسامتها. لم تنم حتى نمت وسمعتها تهدهدني

كما كانت تفعل دومًا إذ إنّني كثيراً ما أترك الغرفة العلويّة وأنام قرب قدميها على فراشي الصغير الممدود. ما زالت تلك الرائحة عالقة بي، رائحة طيِّبة تنبعث من جسدها. لا تنام حتى أنام ثم تستيقظ فتتوضّأ وتجلس متربّعة كأنّها تحادث شخصًا ما. أسمع همهماتها وهي تحادثه، قالوا لي فيما بعد إن جدّتي تفهم لغة المطر وهو يخبرها عن أحوال أبناء العنّابيّة البعيدين. سألتها حين رأيتها تفتح الباب وتجلس قرب العتبة حين يهطل المطر ناعمًا أوائل الخريف، لم تردّ ولم تعجبني نظرتها، كأنّها لم تسمع، وأيقنت حقيقة أنّها تحادث المطر، لذا كانت أحيانًا، دون سابق إنذار، تأمرني أن أغلق الباب في وجهه وتطرق برأسها حزينة ثم تنهض لتتجوّل في أنحاء الغرفة، وفي المساء تمنع الزيارات، تخبر الجميع أنّها لن تستقبل أحداً. وحين تنظر أمّي إليّ كنت أتشبّث ببقائي، وجدّتي كأنَّها تستثنيني دومًا فأكون حارسها، خادمها الصغير، وحافظ أسرارها ومدوّن الحكاية التي لا تدوّن، وأنا ما زلت أدور في الأزقّة المتربة ألتقط أنفاس الماضين وأرتّبها. أخطّ على البياض الكلمات، أبعثر المفردات وتتقاطع الجمل فلا أعرف إلى أين تقودني قدماي. أبحث عن أشياء هادي العنّابي وأرسم وجهه صافيًا، طويلاً، نظيفًا، ويديه الأنيقتين بأصابع طويلة، أصل إليه وأقف قربه، أسأله أين البحر فيشير بيده ويقول لي اجلس قليلاً، أقول له لا وقت لديّ، أريد اللحاق بالقافلة الذاهبة إلى البحر.

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية يراقب الغرباء، جالس على كرسيّ وهو يقرأ شيئًا ما، يقول لي من هنا طريق جبل الذهب، أسير وراءه. وهناك في الفسحة المعدّة لكلّ الاحتمالات رجال لا نعرف

وجوههم، أسأله من هؤلاء؟ فيلكزني برجلي أن دعهم، ويحاول ألاّ تلتقي عيناه مع عيونهم، احفرْ هنا مشيراً إلى مكان منخفض، يقول حين استراحت القافلة هنا كانت تحمل في الخروج خراج العراق. أحفر، وهادي يحدّق بعيداً وينسى فيسألني ماذا تفعل، أُذكّره أنّ الكنز هنا وجبل الذهب يبدأ من هذه النقطة، يضحك ويشير لي كي ألحق به، ندخل العنّابيّة ويجلّلنا الغبار.

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية يُراقب الغرباء، أمضي وحيداً، الآن يحقّ لي أن أرمي السلام على الرجال الممتلئين بالفراغ والملل، فيردّ الجميع السلام ويتابعون التثاؤب في ظلال الجدران، أمامهم الفسحات والغبار والقيظ، في طريقي إلى مغارة أحمد الجمل حيث استوطن أخيراً بعد مشاحنات دائمة مع عليّ الجمل والده، ومع كلّ سلالة الجمل، حمل أشياءه في كيس خيش صغير، رتّب مكانه في مغارة قريبة من الدرب الشرقي تاركًا وراءه كلّ العنّابيّة، بغبارها وسأم رجالها.

على الباب، أو ما يُسمّى بالباب، تتراءى لي الأشياء، أحمد جالس في مشغله المؤلّف من كرسيّ حجري عليه طرّاحة قطن ذات قماش أزرق جميل وطاولة صغيرة، تتناثر عليها مفكّات البراغي والدبابيس وروائح سوائل طبّيّة، وفي الزاوية مجموعة فراشٍ وألوان زيتيّة ومائيّة.

ينهض أحمد مرحِّبًا كعادته، كالرجال نشرب شايًا، ويخبرني أنّه يفكِّر بالسفر، وأخبره أنّي أبحث عن آثار هادي العنّابي. يضحك ويخبرني أنّ جدّتي أمّ مسعود تعرف كلّ شيء، ولديها أشياؤه، لكنّها لا تسلّم منها شيئًا، ولا يعرف أحد أين تخفيها، ويتابع أنّ أهمّ الأشياء

التي تركها هادي خريطة تُبَيّن موقع جبل الذهب الذي كان يعتقد بوجوده، وأنّ جميع العنّابيّين لا ينسون الموضوع ولكنّهم يخافون أن تصيبهم اللوثة. لأحمد طبع أنيق في التعامل مع الأشياء، عينان حادتا الذكاء، ويدان من ذهب اعتادتا على جمع الفراشات والعقارب وأحجار الصوّان بصناديق خاصّة يغطّيها بشبك معدني، فارشًا قعرها بالتبن وأوراق التوت، غير آبه بشتائم والده الذي كان يعتقد بجنون ابنه، محتجًّا على بعثرة التبن وأوراق التوت والتفريط بدود القز. وكان حين يزورنا يصعد إلى غرفة والدي يتأمّل دروع السلاحف ويعرّج على جدّتي التي تخصّه بمكانة خاصّة بين جميع أبناء جيلنا، فغدونا أنا وإيّاه ورثة الأسرار، تجلسه بجانبها وتحادثه، تبقيه على الغداء أو العشاء، وكثيراً ما كان ينام في غرفتها.

تصاعدت اتّهاماته لوالده بأنّه المسؤول عن موت بدريّة أخته التي قضت نحبها بربو مزمن. كان يجعلها أيّام الشتاء الصقيعيّة تفتح الباب لتدخل نسيمات هواء عابرة تنقذ تفحّم رئتيها، وعليّ الجمل يرفض عرضها على الطبيب وعلاجها لبخله الشديد، لا خوفًا من العار الذي سيجلّله فيما لو كشفت بدريّة عن جسدها الذي بدأ يتفسّخ أمام رجل غريب.

صنع أحمد أقنعة خاصّة من أكياس الطحين البيضاء ووزّعها علينا، نحن ستّة رجال صغار، مكثنا في زاوية البيت، الظلام الكثيف ووجوهنا مقنّعة، أحمد شرح الخطّة قائلاً إن لم تنجح سأقتله وأخلص منه. عاد عليّ الجمل أواخر الليل، وانطلقنا جميعًا بالزغردة والهمهمة بلغة الجانّ والشياطين الآمرة، زعقنا بأصوات ممطوطة كأنّها قادمة من

سراديب الأرض، وضربنا الأرض بأقدامنا، وحين عجّ التراب قفزنا فوق السناسيل واختفينا. ذُعر عليّ الجمل وارتبط لسانه من هول المفاجأة، دخل إلى إسطبله وانتزع من الأرضيّة صندوقه الحديديّ، استلّ منه بضع ليرات وأعاده إلى مكانه، وقبل شروق الشمس كانت بدريّة ملفوفة ببطّانيّة قذرة على عتبة طبيب المنطقة الذي لم يؤخّر بدوائه المتأخّر الموت الذي سحبها من يديها الزرقاوين بعد شهر ونصف، غضبت جدّتي وبصقت على عليّ الجمل وهي خارجة من غرفتها. غسّلت بدريّة وفرشت الكفن بأوراق وأغصان الحبق الذي كانت بدريّة وهي صبيّة يانعة تزرعه بكثرة بعد موت أمّها بشكل مفاجئ، بعد أن سكنها مرض غريب لم يمهلها طويلاً، وقالوا حزنت على صالح ابنها الذي رحل بعد أن اتُّهم بجريمة قتل أحد الرعاة من قرية مجاورة، ولم يعترف عليه والده فهرب وهو يقسم إنّه لا علاقة له بما حدث وانقطعت أخباره. بعد ستّ سنوات عرفنا أنّه يعمل مستخدمًا لصبّ القهوة عند شيوخ إحدى العشائر القويّة، مقابل الأمان الذي يحيا به وسطهم وأنّه مشتاق إلى العنّابيّة وإلى إخوته وأمّ مسعود وأمّه.

بعد أن دُفنت بدريّة، هرع أحمد إلى الإصطبل حيث رأى أباه يخرج صندوق نقوده، حفر الأرض وأخذ الصندوق بينما كنت أحرس له الطريق. أعاد كلّ شيء إلى مكانه بعد أن وضع حجرًا ثقيلاً مكانه، وذهب إلى حلب. عليّ الجمل لم يكتشف أنّ كنزه قد ضاع منه إلى الأبد إلاّ حين رأى أحمد وهو يبني قبر بدريّة، مرمر أسود صقيل وشواهد منقوشة ومحفورة بعناية فائقة، ثم وهو يوزّع الصدقات على فقراء العنّابيّة ليترحّموا على بدريّة التي أصبح قبرها اللامع المرتفع أحد

أهمّ معالم العنّابيّة. قال لي أحمد إنّ الكنز كان ستّة آلاف ليرة أنفقها جميعها، ولم يخبرني أنّه ذهب وشاهد أخاه صالح ثم تقاسما الكنز الملفوف بعناية بأكياس نايلون وأقمشة مهترئة. عاد أحمد أكثر شراسة إلى مغارته محمّلاً بصناديق ألوان وكتب غريبة لم أستطع فكّ رموزها، ومعدّات فهمت فيما بعد أنّها عدّة النحت والرسم، ومسجّلة تعمل على البطّاريّة. هدّد أباه أنّه سيذبحه إن وطِئ عتبة مغارته، أو أصاب قبر بدريّة بأيّ أذى.

مَلِك الليل أصبح أحمد، على ضوء الشموع ولمبة الكاز وصوت المسجّل الخفيف في الزاوية، يفرد الكتب أمامه ويقرأ بلغة فرنسية يجهلها، قال لي إنّه يتعلّمها، ويرسم على كرتون أبيض ويمزّقه. ترهبني أصابعه وهي تفرش الألوان ودخان سيجارته يتصاعد دوائر تغطّي فضاء الكهف وتستوطن رائحة التبغ الأشياء. غدا شخصًا مختلفًا في نظر الجميع، محترمًا بحذر، ومصدرَ رعب لوالده ولسلالة الجمل، لا يتمهّل حتى يسحب سكّينًا لامعة، مهدّدًا كلّ من يزعج صمته من أعمامه المدافعين عن أخيهم الذي كاد أن يفقد عقله. يجلس كلّ يومٍ في الإصطبل ويتأمّل في الحفرة ثم يتابع نهاره قرب قبر بدريّة يلامس الرخام الفاخر، ثم يرفع يديه إلى السماء متمتمًا بأدعية طويلة لا تنتهي.

أجوس في المكان الضيّق، المترامي. ليل العنّابيّة مخاتل، صاف، بطيء في انسحابه كما هو كلّ شيء هنا، متمهّل، الحياة والبشر والنبات. تنفّستُ ملء رئتيّ وتركت أحمد غارقًا في كتبه الفرنسيّة بعد أن أخبرني أنّه بدأ يستطيع فهم بعض جملها. درب العنّابيّة أراه كأنّه مرصوف بأضواء خفيّة تغريني بالرحيل وترك كلّ هذه البقايا

العابثة بالزمن ومفردات الفراغ، كأنّي لا أعرف هذه البيوت المنتصبة أمامي والمشعّة بالأضواء الخفيفة وأصوات الساهرين المتباطئة. وحدها شجرة الزعرور تهدل بأغصانها القليلة وتبدو كحارسة الليل، وتنبئ عن صمودها الطويل في وجه العواصف والسيول وتغيّرات الزمن.

مرقد الخفافيش وجلود حمير القرباط الذين ينصبون خيامهم كلّ عام حولها، يعرفون خدوشها ونزواتها التي لا تنتهي. وصايا عنّاب تتساقط من شفتيْ جدّتي، وصوتها يحاصرني، وكنت أظنّ أنّها تساقطت من جيوبي المثقوبة، وضاعت في أوحال الطريق. أسمع قرع نواقيسها فترعبني وتتركني خاويًا، باحثًا عن معنى لكلّ هذا الذي يسمّى قرابات ومحرّمات ووصايا.

تفرد أمّ مسعود غطاء رأسها الأسود البالغ طوله أكثر من عشرة أمتار، الغطاء المزخرف الحواشي بالخرز الأزرق والأحمر والأصفر. تنزعه للغسيل، جميعنا نساعدها، تبتسم والأولاد مبتهجون يمسكون بطرف الغطاء ويذهبون إلى آخر الغرفة. عائشة تلملم الغطاء وتلبسها الغطاء الآخر النظيف فتشعّ فرحة، تمسح لها حذاءها الأحمر الجلديّ الذي أحضره لها أحد العنّابيّين منذ خمسين سنة كما تتذكّر أمّي، قائلة كنت بدون أثداء حين عاد عبّود من سفره البعيد وقال إنّه وصل إلى منبع البحر. وصدّق العنّابيّون أنّ البحر له منبع، وفغرت عيونهم وأفواههم وهم يستمعون إلى الأحاديث عن المدن والنساء اللواتي يتكلّمنَ وهنّ عاريات تحت الشمس، يتمرّغنّ على الرمل كالبغال التي تحكّ جلودها على المزبلة. عبّود يمدّ رجليه ويتحدّث بصوت بطيء قائلاً إنّه ترك هناك ثلاث بنات وزوجة ودكّانًا مليئًا بالأقمشة والخرز.

بعد ستّة أشهر عاد عبّود، ولم يحتمل انتظار موته في العنّابيّة وضاعت أخباره. تفوح من جدّتي رائحة غريبة كرائحة القرفة، تتبارك بها عائشة السمراء ذات النهدين الصارخين، حيث أرى يديها وهما تمتدّان إليهما تداعبانهما، تفركانهما، مصدرة أصواتًا غريبة. كانت تبدو دومًا منهمكة، شاردة، ومبتهجة بنظرات الرجال، هاربة من تلميحات أمّي المحذّرة. جميعنا يلفّنا عطر الحنّاء حين تفرد جدّتي جدائلها البيضاء وتهزّها كمن يسرق التوت الشامي، قبل أن تلفّ لها عائشة رأسها ليصبح كرة قماشيّة سوداء تتدلّى من مركزها كومة خرز على شكل كلّة حديديّة تحملها عظام ناتئة وأقدام تجرّها ببطء. تعيد تشكيك الإبر والخيطان في أماكنها المعتادة وتردّد نظّفوني، نظّفوني، مبتهجة بالعيون المحيطة بها من كلّ جانب، نظّفوني فأقذار العنّابيّة كثيرة. تنظّفها عائشة ولا تستطيع رؤية أصابع قدميها، تقول كأنّ غشاوة على عينيّ تصيبني بالعمى أو كأنّ ستارًا من الظلمة والضباب يحيط بأصابع قدميها، تمسك بهم وتعدّهم فيفلتون دومًا، عائشة لم تعد إلى الإمعان طويلاً في تلك الأصابع بعد أن رأت في عينيها نظرة التحذير التي نعرفها جميعًا.

ليل العنّابيّة له مذاق خاصّ ببرودته. أتدثّر وأغوص في الأزقّة تاركًا ورائي مغارة أحمد، أغوص كأنّي أتجسّس على الأنفاس المتلاحقة، أرى أيادي النساء الخشنة تحيط بآباط الرجال العراة، أسمع الهمهمات، تلفحني حموضة الهواء المشبع بالأنين الشبق، وتغرقني أطياف اللّذّة التي أحسستها أوّل مرّة حين صعدت الجبل مع الرعيان. أمامنا سلمان قائد متوّج بالشوك، وأحمد الصامت، الشارد مع نسائم أوّل العصر. لم

أفهم من اللغط وغمزات سلمان مع ابن حمّود شيئًا إلاّ حين رأينا عضوه متدلّيًا في الفضاء وابن حمّود ممسكًا بغنمة بيضاء رافعًا إليتها محتضنًا رأسها وحشرجات فمها تتناثر مع المخاط المختلط بالتراب، معطّلاً فرارها في البراري التي كانت لاهثة، وتنفتح دون حدود على آبار الرغبات. غاب سلمان في نشوة صامتة قابضًا على صوف الغنمة كمن يقبض على خصلة شعر امرأة، منفلتًا على أكتاف عارية، والبراري تركض حول الأشقياء الأصغر سنًّا صارخين بسلمان بدهشة طيبة أبو السين، أو خوفًا من المجهول. زوائدنا انتصبت في عراء اللذّة العابرة، وشكّلت مع مكلابيّاتنا أعمدة قائمة الزوايا. لم أتخلّف عن دوري ورفعت رأسي باتّجاه الشمس الغاربة منتشيًا من لذّة الولوج الأوّل والقذف الأوّل، متخيّلاً شكل أنثى تعبر ساحة العنّابيّة وتطرطشها المياه المندلقة من العلبة، ومتابعًا الوهم إلى أن رأيت آخر قطرات السائل اللزج تمتزج بالصوف الأبيض، وسمعت صوت الغنمة مناديًا على المجاهيل والبراري أن تستيقظ الآن وتغلّف المساء والجبل وعيون الأغنام المحملقة بهذا العار الذي يتساقط في الجوف الدافئ. الإحساس بالفحولة غمر الجميع فتبادلنا كيس التبغ الوحيد الذي يحفظه سلمان في زنّاره مع خنجر وطلقات فارغة. عرّشت فحولتنا على أسطحة المنازل وغمرت دروب العنّابيّة. أنا أكثرهم جبنًا في القفز فوق السناسيل وتمجيد أزرار الرمّان النابقة على صدور البنات. أنا الذكر الوحيد في مجمّع نساء تملأ أنفاسهنّ الغرف الواسعة الخاوية. طشيش الماء على العتبات له رائحة أنثى متطيِّبة، منتظرة الذكر الآسر المضطجع على سرير مفروش بالطيلسان الأبيض، وتحت إبطيه أسرار الفحولة. خجلت من عظامي

الفارغة وهدوئي المكابر، ولم أستطع النظر في عيني جدّتي لعدّة أيّام. وفي حلب بقّعت الشرشف الزهري بآخر قطرة منيٍّ قذفها العضو المرتخي قبل أن أغادر المرأة ذات الوجه الذي أحسسته أزرق ومترهّلاً وأقرب إلى هشاشة الإسفنج. أشعلتْ سيجارتها ورأيت ضحكتها الساخرة من قرويّتي وهشاشتي التي لم تحتمل معها أكثر من لمسة واحدة ودخول واحد، ففتحت النافذة الداخليّة وأعلنت انتهاء الجولة بصوت سمعته القوّادة الضخمة الجالسة على طاولة خشبيّة أمام باب أحد منازل بحسيتا التي ودّعتني متغزّلة بقامتي وفحولتي، وأنّها عرفت رغبتي بالفرار نحو العنّابيّة، بحثًا عن سكينة لأعماقي المضطربة وبحثي عن تلك الذكرى البعيدة حين انحدرنا من الجبل. وفي اليوم التالي رسم أحمد الجمل غنمة وحين أقام مملكته في كهفه المستقلّ علّق اللوحة على الجدار واشترى غنمة بيضاء ربطها في المغارة المجاورة، وبدت كاللوحة بوجه امرأة جذّابة معلّقة بجانب الفراشات والأنواع العديدة لأحجار الصوّان وأذيال الحمير. وفي الزاوية الأخرى الغرابيل التي قايض بها القرباط مرّة على ثلاثة تماثيل ورسم بورتريه للقرباطيّة نشمة. جدّتي تحكي الحكاية وأنا بقربها دومًا، بشعري الناعم وصوتي الضعيف، ومن الطرف الآخر أحمد وصمته المكابر.

نحن مدوّنو الحكاية والأولاد المتحمّسون، الحافظون لوصايا عنّاب. نتحسّس البساط الممدود وسط الغرفة الكبيرة الذي تبدو نقوشه المتداخلة بروعة كأنّها فسيفساء، ورثته جدّتي من عنّاب بعدما أصابه الجدري وقبل أن يتوجّه إلى الجهات الأربع باحثًا عن أولاده الأربعة. الهواء الصيفي اللذيذ والصمت المهيمن على العنّابيّة التي تبدو تحت

هذه الوطأة لوحة صامتة أو أمكنة مهجورة بدأت تتبرّم منها عائشة، بعدما أتت فاطمة لزيارتنا مع عليّ من بيروت. بدت وهي تدخل باب الدار الواسع امرأة مختلفة، نضرة، نظيفة، ترتدي ثيابًا جميلة ولا تشبه تلك التي كانت ترتديها. تفوح منها روائح عطر عبقت في أرض الحوش. تشمّمته حين احتضنتني وقبّلتني وقالت إنّها مشتاقة لي جدًّا وإنّي كبرت. ثم قبّلت عائشة واحتضنتها بقوّة وزليخة تتمسّح بأثوابها فانتبهت إليها وقبّلتها قبل أن تخرج أمّي من غرفتها بعد سماعها صوت الضحكات، كانت جدّتي مسرورة، قرأت الفرحة في عينيها، كأنّها غائبة منذ قرن. قالت إنّها ستعيّد هنا ثم تعود مع عليّ إلى بيروت، حاولت حمل حقيبتها فلم أستطع، وانتبهت عائشة المنهمكة بتأمّل فاطمة التي قبّلت يد أبي غير الآبه كثيرًا لهذا الحضور المفاجئ، هو المُنشغل بدروع سلاحفه وعناكبه والبغال التي عادت إلى الإصطبل مع اقتراب أوّل الشتاء وتحضير التبن والشعير علفًا للشتاء. خلعت فاطمة المانطو الأزرق الفاتح وتركت حذاءها الجلدي الأسود اللامع قرب العتبة. أمّي انشغلت فورًا دون أن تدري ماذا عليها أن تفعل، بدت مرتبكة لأنّها لم تسأل عن عليّ الذي دخل متأخّرًا، متذرّعًا بأنّ الرّجال أمام بيتنا أوقفوه وسلّموا عليه. وقالت فاطمة إنّها ستنزل عندنا مع عليّ لأنّ بيتهم ضيّق وصغير. رحّبت أمّي بالعَرض ورأيتها تتفحّص بطن فاطمة، فاطمة سمنت قليلاً وأخبرت أمّي أنّها لا تنوي حاليًا أن تنجب ولدًا. أمّي ردّدت كلمات غاضبة ثم رأيت يدها وهي ترسم في الهواء أشكالاً لم أعرف ماذا تعني، وفاطمة بصوتها المنخفض تشرح شيئًا مبهمًا وبجانبها عائشة تشارك في الحديث وكأنّها تناصرها. فيما بعد خلال

السهرة، أتى أهل عليّ، إخوته الثلاثة اقتربوا منّي، فتفاهمنا قليلاً ثم تشاجرنا وارتفعت أصواتنا. اتّهمت أخاه فواز بأنّه يغشّ بالكعب ويشلّحني عجو التمر وأنّه يتزاغل مع إخوته ويتآمرون عليّ. فوّاز يُقسم باللّه ورأس أبيه وأمّه إنّه لا يتزاغل وإنّنا كالإخوة جميعًا، خسرت ثم ربحت ثم خسرت وكدتُ أغصّ حين رأيت كلّ العجو الذي أمامي أصبح أمامه. رأيت البهجة في عينيه كمقامر عتيد ولم أرَ بدًّا من الطلب إليهم أن يذهبوا من بيتنا وأنا أفاخر ببنطلوني الذي أحضرته لي أمّي. بعد فشل خطّتي بطردهم إثر تدخّل والدتي المؤنّب، اقترحت عليهم أن نتبارز بالحساب فانسحبوا فوراً من جدول ضرب السبعة الذي كنت أحفظه غيبًا. رأيت خالي أبا الهايم الذي مدَّد رجليه مرتاحًا في السهرة وهو يستمع إلى عليّ ويذكّره بأماكن كان خالي قد زارها ذات يوم، ويغمز لعليّ أن يسكت عن طبيعة هذه الأماكن، لكنّ خالي دومًا مفضوح، إنّه يشير إليّ أن أقترب منه فأترك ضيوفي وأهرع إلى جانبه، يمسِّد على شعري ويوشوشني بكلمات غامضة لم ألتقطها. الجميع استمعوا إلى عليّ، كان خجولاً وغالبًا ما كانت فاطمة تكمل الجمل وتأخذ بزمام المبادرة وتقرّر أنّهما سعيدان في بيروت ولن يعودا الآن، وأنّ بيروت مدينة ثراء وعليّ سيحاول أن يعمل لحسابه فيما بعد. تململت بجانب خالي أبي الهايم وكنت أرى ضيوفي الثلاثة وهم يتثاءبون، بعد ذلك يضطجعون قرب أمّهم ويقفون. أمّهم أعلنت أنّ السهرة انتهت وشكرت حسن الضيافة ودعت الجميع لزيارتهم. أمّي تمسّكت بهم ولكن كان الجميع قد نهضوا. أمّي بالغت في عبارات المجاملة وكان صوتها عاليًا وهي تودِّعهم خارج أرض الحوش بعد أن

طلبت من خالي أن يبقى لأمر ما. تجمّعنا جميعًا حوله متباهين بأناقته وروحه اللطيفة، فاطمة بجانبه توشوشه وهو يضحك، عائشة على كتفه تحاول الاستماع إلى ما تقوله فاطمة، وعليّ يحاول الخروج من عزلته بأن يحادث أبي الذي يخبره أنّ البغل البنّي يعرج، وأنّه أجرى له عمليّة جراحيّة في رجله اليمنى وسيفكّ له الضماد بعد ثلاثة أيّام، وأنّ الموسم هذا العام ليس كما يرام والأمطار قليلة. أبي تابع شروده بعد ذلك ولم يجرؤ عليّ أن يسأله عن أوضاع سلاحفه، لكنّ أبي قال إنّه أتى بسلحفاة من الجبل ذات لون أخضر مبقّع بالبنّي، وقد التقط معها ثلاث سلاحف صغيرات رتّب لها في الإصطبل مكانًا في الزاوية البعيدة عن المعلف كي لاتطأها البغال. كنت أنسلّ كل يوم إلى الإصطبل لأرى السلاحف الصغيرة وأرى محاولاتها اليائسة للإفلات من الرائحة النتنة في هذا المكان الحبيس حيث روَث البغال وبولها، ورائحة التبن المهزوز بغربال ناعم، أمعن في مراقبتها وأمسك بيدي عصا طويلة أغرزها بالرأس الذي ينسحب فوراً وتبقى الدروع. لا شيء إلاّ الدروع الصغيرة وكأنّي أسمع نَعْوَصات تشبه نعوصة الفئران. أبي أحاط مكانها باحترام بالغ أغضب أمّي لكنّها لم تقذفها على طول يدها كما هدّدت، وقدّرت أنّها ستثير أبي الساكن وتجعله كتلة غضب أعمى أو أنّها لا تريد أن تحزنه كيلا تخدش عالمه الداخليّ. وبذكائها تناست الموضوع، كأنّما استأنست بهذه الكائنات التي قالت جدّتي إنّها مباركة ولا يجوز إيذاؤها. وكانت دومًا تعارض عمليات القتل التي يمارسها أبي عليها كي يستخرج دروعها. استمرّ الحديث وعادت أمّي قائلة إنّها حضّرت الغرفة لفاطمة وزوجها كي يناما وفرشت لي قرب جدّتي، نهض عليّ

واستأذن الجميع بالنوم. فاطمة قالت إنّها ستلحق به وأنا بقيت متشبّثًا بخالي الذي قال مداعبًا أمّي: هاتي ما عندك. أمّي دون مقدّمات أخبرته أنّ أمّ عليّ لمّحت لها إن كان يريد الزواج فهي على استعداد أن تعطيه ابنتها أمينة. وتمادت أمّي في الرجاء والتمنّي أن ترى له أسرة كباقي الناس وأنّه تجاوز الأربعين ولم يعد صغيرًا أو مناسبًا أن يبقى هكذا كالطير الحرّ من شرموطة إلى شرموطة في حلب، وأنّ أولاده أحقّ بفلوسه. جميعنا صامتون نرقب انفعالات خالي الذي اعتاد على هذا الحديث، لكنّه لم يكن يؤذي مشاعر أخته الكبيرة التي تولّت شؤونه بعد وفاة جدّتي. أنهت أمّي حديثها وأرادت أن تستمع إلى خالي الذي أشعل سيجارة وطلب من عائشة أن تصنع له قهوة، فنهضت بسرعة كأنّها استبشرت خيرًا بطلبه هذا. مدّد رجليه وكأنّه يبحث عن الكلمات المناسبة ليخبرها أنّه لا يريد الزواج الآن ومصيره أن يقتنع بهذا ويعود إلى صوابه، وأردف أنّ هذه العروس لا تناسبه فهي لا طيز ولا أثداء. انفجرت عائشة بالضحك، ثم تلتها فاطمة وأنا كالأبله أيضًا ضحكت. أمّي انزعجت قليلاً وأعادت محاولة إقناعه ومناقشة الأمر معه بهدوء وحكمة كطفل صغير ترجوه أن يخفّف من طيشه. أبي انسحب إلى فراشه الممدود في الزاوية وسمعنا شخيره بعد دقائق. من تحت اللحاف رأيت رجليه اللتين يصرّ على عدم تغطيتهما كي تتنفّس فسوخه. خالي يحبّ قهوة عائشة وجميعنا نحبّ أريحيّته وطبعه المرح وأثوابه النظيفة والأنيقة التي ينتقيها بعناية فائقة من أفخم محلاّت حلب حين يذهب كعادته بعد الموسم ويعود محمّلاً بحقيبة هدايا لأخواتي وأحذية جديدة لي ولأبناء خالتي السبعة ولإخوته وأصهاره.

كنّا نحبّ كرمه ولا نفهم لماذا أمّي وخالتي منزعجتان من عزوبيّته. السهرة امتدّت وعائشة وزّعت الفناجين على الجميع من دوني وسمعته يقول لأمّي إنّه بعد صبحة لن يتزوّج. أمّي تعيد المحاولة اليائسة وتخبره أنّها لن تتوانى أن تخطب له التي يرغبها، وزيادة في المداعبة سألها أن تخطب له نشمة، أمّي كأنّها تريد أن توصل الحديث إلى هذه النقطة فسمعتُ صوتها يعلو مندهشًا مستنكرًا:

ـ مين؟ نشمة القرباطيّة؟!

فأجاب خالي:

ـ نعم أنا أريد هذه.

أخواتي قهقهن وخالي ابتسم، أمّي ضربت كفًّا بكفّ وتمتمت:

ـ أنت ستبهدلنا؟!

شرب خالي القهوة ولملم علبة تبغه طالبًا تأجيل الموضوع إلى الشتاء القادم، قائلاً إنّه يفكّر جدّيًا بالزواج هذه المرّة. فيما بعد أخبرتني زليخة أنّ أمينة قالت لها إنّها تحبّ خالي أبا الهايم وتتمنّى أن يخطبها، وقالت بأنّ فاطمة كانت لا تترك عليّ ينام حتى الصباح وهي تخبطه على صدره حين يتراخى في الفراش وصوت تنهّداتها وصل إلى مسامع جدّتي أمّ مسعود التي استدعتها، وعلّقت برقبتها شيئًا يشبه الحجاب كي يحفظها ويخفّف من شهوتها. كما عرفت فيما بعد أنّ لأختي طقوسًا خاصّة في الجنس كانت تجعل من عليّ أضحوكة ورجلاً عاجزًا عن مجاراة شهوتها وإرضائها، وأنّ جارتها اللبنانيّة في بيروت تعلّمها كلّ يوم شيئًا جديدًا وتعطيها مرهمًا تدهن به فرجها وساقيها وحلمتيها

اللتين ما يكاد يلامسهما المرهم حتى تتفتّقا وتشمخا في عراء اللّذة. وهمست أمّي لعليّ إن حبّلها ستهدأ وتنشغل بالولد. أطرق رأسه بخجل كأنّه عارٍ تمامًا الآن أمام حماته التي اكتشفت كلّ شيء طوال الأسبوع الذي انتهى ولم نحسّ به كما قالت أمّي وهي تودّع فاطمة وتعدِّد وصاياها أن تصون بيتها وزوجها ويعودا بسرعة، وألاّ يتأخّرا في إنجاب ولد يملأ عليهما حياتهما، هامسة بأذن عليّ بكلمات لم يسمعها أحد بينما كانت فاطمة مشغولة بحديث جانبي مع عائشة وزليخة. جدّتي أيضًا قبّلت فاطمة وأعطتها زجاجة صغيرة، أوصتها أن ترميها في بحر بيروت دون أن تفتحها. أتى الكثيرون لوداعهما، السيّارة الوحيدة كانت تزمّر وتستعجلهما. اختلطت الأصوات وكنت من بعيد أرقب هذا الحشد من الأقارب كأنّي أراه لأوّل مرّة أو كأنّهم سيرونهم لآخر مرّة. وفيما بعد عرفت أنّ العنّابيّين لا يوقنون بعودة من يسافر، كلّ مسافر غائب ولن يعود إلى أن يثبت العكس. دربهم المؤدّي إلى حلب أسموه بدرب الغياب وتطيّروا منه كثيرًا، الكثيرون فُقدوا وتركوا آثار خطواتهم الضائعة. لا يستطيع مُقتفو الأثر أن يقتفوها لأنّها تنقطع عند إسفلت الطريق الرئيسيّ إلى حلب. وقبل أن يعبّد هذا الطريق كانت آثار خطواتهم تضيع عند ضفاف نهر عفرين المنحدر من الحدود التركية، وهناك يضيع كلّ شيء وتعود الأنفاس هي الجديرة بالالتقاط.

حالة من الذكرى تتلبّسني الآن وأنا أحاول رسم شكلٍ جديدٍ للأزقّة وللنوافذ ولصمت الحجارة في ليل العنّابيّة. أتجاوز باب بيتنا الواسع العريض ذي الأقواس الحجريّة المتعالية ليفسح مكانًا لدخول

الرجال الممتطين ظهور البغال والعائدين من حرث الحقول، أتابع طريقي تاركًا خلفي أنفاس أمّي وهي تحاول أن تفتّش في صدر أبي عن صدى لأيّامه الماضية حين كان رجلاً لا يجمع الدروع ولا يهتمّ بتكاثر السلاحف، ولا يغريه كثيرًا إذا كان البغل مريضًا أن يرقد بجانبه وبيده فانوس صغير مراقبًا آلامه ومصغيًا إلى أنفاسه. أمّي تحاول أن تتذكّر تلك الأيّام التي كان فيها أبي ابنًا مهابًا لأمّ مسعود، حين كان يوغل الليل كانت تقترب من رائحة تبغه وترجوه ألاّ يطيل النظر في الفراغ. كان الأمر طبيعيًّا بالنسبة له ولم تستغرب جدّتي التحوُّل الذي رافق أبي من شابّ وسيم صارم إلى رجل كهل لا توحي كهولته بشبابه. أمّي تعيش على تلك الذكريات الماضية حين كان يأتيها ليلاً، يأمرها أن تضع المياه على النار كي يستحمّ، بعد أن يكون قد بلّل كلّ شيء، مسامّاتها وشراشف فراشها وشعرها وأصابعها ويتركها امرأة ممتلئة لذّة، قبل أن تتبلّل العتبة ويمدّ رجليه كي تحمّمهما ثمّ باقي جسده وتنشّفه وتطيّب جسده برائحة ما زالت جدّتي حتى الآن تزوّدهما بها، تشمّمتها مرّة واعتقدتُ أنّها رائحة صنوبر عتيق مسكوب مع ماء الورد. شعرت أمّي أنّ أبي بدأ يهرم مبكّرًا. كانت تركض إلى جدّتي وترجوها أن تشرح لها، الجدّة تطأطئ رأسها نحو الأرض وتقرأ في البساط المتداخل الألوان وتتمتم أشياء سحيقة كأنّها أناشيد أو مقامات أو حكاية ترويها لنفسها. أمّي لم تستطع أن تثني جدّتي عن عزمها، فلا يهدأ قلقها وتظلّ تذكّره بعاداته القديمة فتعرّيه وتوغل فيه، تلمسه، تطلّ من عينيه نظرة حزينة لا تفهم مغزاها مطلقًا، لا يتكلّم بشيء عن سلاحفه ودروعها، ثم فيما بعد عن البغل الجديد الذي أحضره من البازار بعد

أن قايضه بأربع غنمات وستّين ليرة. غضبت أمّي وقالت بأنّهم ضحكوا عليه وسألته هل أحضرت حصان عنترة، لم يجبها، فقط حمل الماء الساخن والليفة ونظّف جلد البغل ثم نشّفه وداوى قروحًا صغيرة في ظهره من آثار البردعة، ثم أوصى على سرج جديد مزيّن بشناشيل.

كنت أسرح أمام أبي عليه وأشعر براحة كبيرة حين أركب بمفردي على ذلك السرج. البغل يخبّ بهدوء إلى البئر كي تسقيه عائشة وتمسح رأسه، أرقب الفتيات على البئر يتسابقن بنشل الماء وأسمع ضحكات أعماقهنّ، والماء يبلّل شعورهنّ ويطرطش أثوابهنّ، كما أسمع النكات الغامضة والأحاديث المنفردة كأنّ البئر مكانٌ لتبادل الأسرار.

العنّابيّون يقطعون الدروب مشيًا حول البئر أو يجلسون في الظلّ يتبادلون علب التبغ ويراقبون النساء. كنت أرى ما يسمّى بالبهجة، وأحسّ بغموض تلك العوالم التي لم أفتح كلّ أبوابها، أراقب أحمد الجمل من بعيد وإذ أدخل مغارته أحسّ بتوحّده مع المكان، فيه رائحته وغموضه، الأطياف كأنّها تحاصرني في الليل. الذاكرة سلاسل سوداء تحاصر حلمي، أريد أن أنسى وأعيد بناء هذه الأزقّة. أنفاس البيوت وبهجة أن أرى عائشة تمسح وجه البغل، وأبي تضحك عيناه حين ارتفعت شتلة ريحان صغيرة زرعها في إحدى الدروع، أو حين يجلس قرب جدّتي ويصمت الاثنان. لم أرهما يتكلّمان أحدهما مع الآخر مطلقًا، تحدّق إليه تارة وفي البساط تارة أخرى، وعندما لاحظت أمّي ذلك، ظنّت أنّ غضبة أمّ مسعود قد حلّت عليه فجعلته مخبولاً وغير مكترث. كانت له تجارة ناجحة نوعًا ما، يسرج بغاله عابرًا منطقة عفرين ببيوتها الساكنة ونهرها الهادئ، يصعد باتّجاه راجو، يحمّل

بغاله فحماً ويعود إلى حلب، كلّ أسبوع مرّة، تربطه علاقات جيِّدة مع تجّار الفحم في حلب، وفيما بعد اقتنى عربة بأربعة دواليب حديديّة يجرّها البغلان إيّاهما اللذان اعتادا صحبته وعرفا دروبه جيِّداً، وهو اعتاد على تنظيفهما في النهر كلّ يوم أربعاء حين يتوقَّف في البازار مبتهجاً بأصوات الباعة وألوان ثياب النساء المبتهجات بالكتّان و البازينا وروائح البهار. النقود القليلة التي جمعها من تجارته كان يخفيها في مخبأ سرّي تركه مكشوفاً بعد أن أخرج ما جمعه من نقود واشترى أرضاً في الطرف الشرقيّ من العنّابيّة قال إنَّها تكفي لستر العائلة من الحاجة. باع العربة واحتفظ بالبغلين، ودون أن تفهم أمّي ماذا يحدث وكأنَّه غير الرجل الذي تحبّ رائحته وهو ينهض كي يستحمّ، ترتخي عضلاته ويجلس في الفراش عارياً يدخِّن سيجارته الملفوفة وأمّي العارية ترتوي، تبرق في أعماقها ذكرى تلك الليالي التي لم تكرّر إلاّ نادراً حين يفلت أبي من طقسه الغريب ويعود للحظات ذلك الرجل القديم. قال لأمّي اشتريت أرض جمعة وهي تكفيكم. بدأ يزرعها جلباناً وعدساً ثم في الموسم الآخر حنطة وشعيراً، وفي الموسم الثالث يقطيناً وبندورة ولوبياء وبامية. كنت أرى أزهارها الصفراء الكبيرة ثم تفتح ثمرتها وهي ترمي قشرتها الشفّافة كامرأة في طور البلوغ. ويوم فتح خزانته السرّيَّة وتركها مهملة لأمّي لتضع فيها الإبر والخيطان ومحارم للمخاط توجَّه إلى غرفة جدّتي وجلس على العتبة، متخلِّياً عن عادته بالجلوس إلى جانبها، وراح يتحدَّث عن أخبار أعمامي الغائبين وأولاد عمّي الذين لا أعرف منهم سوى أبناء جمعة الذي هاجر إلى دمشق بعد أن باع الأرض، اشترى منزلاً في الأطراف وعمل بوّاب بناية، ورحل معه

أولاده الأربعة الذين كانوا يدخلون بيتنا كلّ يوم ويثيرون ضجيجًا لا ينتهي بخروجهم ورحيلهم، يطرشون الجلّة على الحيطان، وينهرون البغال في الإصطبل كي ترفس وتصهل كالأحصنة، ويتمادون في الركوب على الخواريف وسوْقِهَا كالحمير التي كانوا يقطعون آذانها ويبيعونها للقرباط. لا تنتهي جلبتهم وانزعاج أمّي إلا حين تنهض جدّتي وتصرخ بهم أن تعالوا، عندها يتحلّقون حولها، توبّخهم، فيطرقون رؤوسهم ويتبادلون التهم، يقتربون منّي ويُسَمّونني المدلّل الوحيد، أخو البنات، وأنا لا أستطيع أن أجاريهم حين أراهم يشمّرون عن مكلابيّاتهم ويمسكون بقضبانهم ليبولوا، مرّة على شكل نافورة ومرّة على شكل مربّع، ومرّة على شكل دائرة، تاركين وراءهم الغبار وشتائم الناس في الطريق وعصا عائشة التي تلحق بهم وتنقضّ على مؤخّراتهم شاتمة ومهدّدة، عكس أمّي التي لا تتكلّم خوفًا من أبي وسلاطة لسان امرأة عمّي التي يقال إنّها كانت تزغرد حين ترى عضو عمّي منتصبًا. كان اثنان منهم دومًا في قائمة المفصولين من المدرسة والكسالى، وحين كان المعلّم يذكّرهم أنّني أصغر منهم ومع ذلك أعرف أكثر منهم، ينتظرونني في الاستراحة وتبدأ معركة غير متكافئة لا تحسم إلاّ في غرفة جدّتي التي توبّخهم فيخافون من غضبها معلنين هدنة قد تستمرّ طويلاً. بعدها نخرج سويّة لصيد العصافير وسرقة كواديس العدس من البيادر، والتعفيس في الطين وتلويث بسط الجامع أو سرقة أحذية المصلّين يوم الجمعة وبيعها فيما بعد مقابل سكاكر وشلّة غزل بنات أو كيسٍ صغيرٍ من الفستق المملّح. رحل أولاد عمّي ولم أعرفهم حين رأيتهم فيما بعد إذ كبروا جدًّا وتعانقنا كرجال. وأتت امرأة عمّي

فسلّمت عليّ وقبّلت رأسي وسألتني عن أهلي وجدّتي والعنّابيّة، محاولة إيهامي أنّها تتقن العيش في العاصمة فقدَّمت لي القهوة في فناجين نظيفة وعلى الصينيّة كأس ماء صاف.

أمّي أحسّت بأنَّ مؤامرة تُحاك ضدّها بعد رحيل عمّي وصمت أبي وفقدانه لألفته، وملاحظتها أنّ أبي وجدّتي لا يتكلّمان وكأنّهما يتهامسان بلغة سرِّيّة خاصّة بسلالتها التي يقال إنّها ابنة عنّاب الكبير، والباقية الوحيدة من السلالة، حافظة للوصايا والممتلكة لأسرار الحكاية التي تُليت على ألسنة الجميع، وحفظها كلّ العنّابيّين قبل أن يحفظوا أيّ شيء آخر. لم يطل الأمر كثيراً حتى صعد أبي إلى الغرفة القبليّة ورتَّب مكاناً مناسباً لدروع سلاحفه ونظّف الإصطبل لمبيت جديد لبغاله. ما زالت الحكاية ترنّ في ذاكرتي كأنّ أبي ما زال حتى الآن رجلاً مغرماً بالشاي الثقيل ولفافات التبغ والسفر والتجارة وإحضار شلحات البرلون التي تتمزَّق بين يديه وهو يعرّي أمّي ويحتضنها كزوبعة تكنس كلّ شيء دفعة واحدة. اللغة السرِّيّة التي يفهمها أبناء السلالة فقط هي أكثر الألغاز التي أثارتني، وفيما بعد بدأت أقترب رويداً رويداً من مفاتيح جدّتي المغلقة، أفهم كلّ شيء دون أن تتكلّم وعرفت أنّي مدوّن الحكاية، وأحمد الجمل حافظ الأسرار وملوّن المشهد الذي بدأ يتّسع ويتكشّف لكلينا. أمّي شكت أمرها إلى جدّتي، قالت بأنّ أبي بدأ يتغيَّر ولا تفهم سرًّا لهذه التغيُّرات، وأنّه في الليل لا ينام، يبقى ساهراً حتى الفجر، جدّتي لم تفصح كثيراً ولم تطمئنها أنّ الأمر عابر وسيعود كما كان رجلاً. حين يترك المكان وراءه تبحث أمّي عن روائح تبغه وجسده، ازداد الأمر سوءاً يوماً بعد آخر إلى أن اقتنعت أن خبلاً مَسّه أو

أنّ أحـداً كـتـب له حـجابًا وقـلـب كـيـانه، فـذهبت إِلى شيخ تُرْوى عنه الأساطير في إعادة الغائب وفكّ السحر.

صباح أحد الأيّام، حملت بيدها ديكًا أبيض كان فخراً لسرب دجاجاتنا، قطعت الطريق غير الطويل سيراً على الأقدام مع خالتي وامرأة ثالثة من صديقاتها اللواتي لا أعرفهنّ. شرحت له الأمر فالتبس الأمر على الشيخ، حتى اطمأنّ أنّ جدّتي لا تعلم عن قدومهنّ شيئًا والأمر سيبقى سرًّا. نهض إلى صرّته وفتحها، أمر خالتي والمرأة بالخروج إلى باحة الحوش، أمّي سمعت ابتهالاته ورأت البخور وهو يتصاعد ليعبق في الغرفة. جحظت عينا الشيخ وأخبرها بأنّه مسحور وأنّ امرأة ما من القريبات كتبت له حجابًا، وأنّه سيكتب لها حجابًا تعلّقه في مكان عال يمرّ من تحته كلّ يوم، وتَشْكُل معه مصارين خروف يابسة، ولا بدّ أنّ الأمر سينتهي وسيعود كما كان، رجلاً للسلالة المهابة وسيِّد أمّي التي تركت الديك الأبيض مقيَّداً في أرض حوش الشيخ وعادت فرحة، متفائلة، وانهمكت بالحجاب الصغير الذي حملته بين يديها كتميمة مقدَّسة. أوصت حمدو على مصران خروف أبيض، حمدو الذي كان يعمل قصّابًا ومغسّل أموات، أتاها بالمصران يابسًا كما اتَّفقت معه، علّقته فوق البوّابة العالية لباب حوشنا في مكان غير مرئي، صعدت إلى السطح ومن هناك تسلّلت إلى القنطرة المزخرفة، حفرت له مكانًا وعلّقته وباتت تراقبه وهو خارجٌ من البوّابة رافعة أكفّها إلى السماء متمتمة بأدعية وآيات كريمة من الصمديّة وجزء من سورة البقرة حفظته كي تتمّ صلاتها فيما بعد. أمّي لم تصلِّ إلاّ بعد أن بدت امرأة مهمومة، حزينة، أقرب إلى الهرم بجسمها الجهم وعينيها اللامعتين بسوادهما المغبرّ. بعد

أن أتمّت وصايا الشيخ بدأت تنتظر، أحسّت وهي تتابع ضمّ قلائد الباماياء أنّ جدّتي غاضبة منها، وأيقنت فيما بعد أنّها تعرف كلّ شيء. أيقنت ذلك حين رأتها متحاملة على جسدها في الخروج من باب غرفتها إلى أرض الحوش حيث ألقت نظرة طويلة على البوّابة العالية وعادت إلى غرفتها مرّة أخرى، تسندها عائشة وتبارك هذا الخروج الذي كان إحدى دلائل عافية جدّتي وقوّتها، وأحد أفعالها النادرة أيضًا. المصران ازداد يباسًا والحجاب كساه الغبار وأبي خرج ودخل كثيرًا، أكثر من مئة مرّة العدد الذي حدَّده الشيخ لفكّ سحره، ولم يَزِدْهُ الزمنُ إلاّ ولعًا بدروع سلاحفه وفيما بعد بالصمت. حين يجلس مع جدّتي ويتابعان حديثًا سرِّيًّا، كنت أرى أمّي تمعن النظر في الباب العالي، الغبار غطَّى الحجاب و المصارين وأفقد أمّي بهجة الوقوف ومراقبة مروره من تحت القنطرة. أحببت التمعُّن في تلك النقوش التي لا يعرف أحدٌ تاريخًا حقيقيًّا لها إلاّ حين بدأ أحمد الجمل يثيره هذا التداخل الحروفي. كنت أقف تحت القنطرة وأرى هذا العلوّ وارتباك أمّي الذي ألفته فيما بعد ونسيتْ موضوع ذهابها إلى الشيخ وانشغالها دومًا بهذه القطيعة بين أبي وجدّتي أمّ مسعود. لم تستطع أن تفهم سرّها رغم محاولاتها العديدة حين تتخلَّص من بقايا نظراته الذكيَّة وهي متمدِّدة بعريها بجانبه في الفراش الذي لم يعد يبتهج كثيرًا بملامسة جسديهما وأنفاسهما وشهقاتهما. أمّي شكت لخالي أبي الهايم الذي أنهى تشييد منزله بعيدًا عن العنّابيّة مستمتعًا بابتعاده عن السير اليوميَّة المتداولة بملل يحسّ بأنّه سيخنقه، وتكرار حاول أن يجد تفسيرًا له حين يرى العنّابيِّين يروون حوادثهم ودقائق أخبارهم أكثر من مرّة، كأنّ الوقت

أكذوبة. وأبو الهايم بعد أن رحلت صبحة ترافقها نظرات أمّها الكريهة ويدها المهدّدة بأنّها إن حاولت عصيان زوجها ستذبحها وترمي عظامها للكلاب، مذكّرة بسيرة النحس أبي الهايم الذي أحسّ بهشاشة كونه وحيداً بعد رحيلها، وسيرتهما التي لم تكفّ العنّابيّة عن التخييل في تفاصيلها، كأنّه هارب اختار ركناً بعيداً، وبنى غرفتين حوّشهما بسياج واطئ فيه الكثير من ذوقه، والأشجار القليلة التي نشرها على أطراف السياج تمنحه صفة المملكة المستقلّة ذات النوافذ العريضة والباب الذي لا يغلق، يدور في أرجائه منتظراً قافلة تأخّرت لتغيّر رتابته السائدة، وينشغل عن التثاؤب ودوزنة الناي بغرس الأشجار الصغيرة وفي غير موسم الغراس متأكّداً أنّها ستموت ذابلة، ممتطياً بغلته دائراً حول العنّابيّة كناطور السهول القاحلة التي لا تنبت سوى البلاّن، واقفاً قرب شجرة الزعرور الوحيدة في البرّيّة الشرقيّة، مقسماً إنّه سيمتلك نشمة حتى لو أصبح قرباطيًّا يبعثر عمره في خيام مثقوبة وقذرة وحمير تعرف كلّ الدروب وتدمع عيناها حين ترى الأعمدة قد حُزمت إيذاناً برحيل آخر، أو حين ترى جلودها منشورة تحت الشمس الحادّة.

كنت أحبّ رائحة أثوابه وألتقط كلماته الأنيقة وهو يحاول أن يقول لي ذلك الدرب هو مصير وخلاص لا بدّ منه، مشيراً إلى درب الغياب، ومنهمكاً برعاية شؤوني حين أجلس قربه وأتلعثم بالكلمات والأناشيد التي نحفظها في المدرسة، مقلّداً له المعلّم وهو يردّد بصوته الخجول والناعم أنّنا قذرون وأنّه في هذا العراء لا يعيش سوى الحمير. وفيما بعد وهو يتكلّم لنا عن العلم الذي يرفع بيوتاً لا عماد لها والجهل الذي يهدم بيوت العزّ والكرم. المعلّم الذي لا يعرف سوى التأفّف

والتذمّر والخوف من مفتّش التربية حين يأتي كلّ فصل مرّة، أو مرّتين، يقف أمام المدرسة بسيّارته الجيب، ويجلس في المقعد الأخير للصفّ المباح للغبار والهواء، مستمتعًا بتلعثمنا ونحن نردّد الأناشيد والمحفوظات، موبّخًا آباءنا وشاتمًا أمّهاتنا حين نمدّ أظافرنا الطويلة وننشق مخاطنا. المفتّش بنظّاراته المعدنيّة اللامعة يوقّع على دفتر المعلّم المرتبك ويتهامس معه قليلاً ويرحل بطريقة استعراضيّة كقائد عسكري تفقّد جنوده وأزرار بزّات ضبّاطه، تاركًا مدرستنا المؤلّفة من غرفتين طينيّتين، واحدة لننحشر بها كالبهائم ونقعي كالصيصان على مقاعد باردة وسبّورة مثبتة بمسمارين كبيرين، والغرفة الأخرى لسكن المعلّم المشمئزّ دومًا من روائح جلودنا وغباء أهلنا حين نقذف له كلّ يوم بطعام مكرور، بصحون ألمنيوم متّسخة الحوافّ، رغم محاولات أمّهاتنا الاعتناء بهذه الوجبة. يضحك خالي أبو الهايم حين أقول له إنّ الأستاذ قال عنّا بهائم، سلمان ردّ عليه بأنّه أيضًا بهيمة وكاد أن يحطّم فكّه حين أمسك به من قميصه ونحن نصيح مبتهجين بمشهد الأستاذ وهو يهدّد بالشرطة التي حضرت في اليوم التالي تطلب سلمان، ورئيس الدوريّة يهدّد بعصاه أنّه إذا أمسكه سيحطّم أضلاعه. بعد الحادثة عرفنا أنّ الأستاذ موظّف دولة والدولة قويّة تملك عصيًّا وسجونًا، ويحقّ لها أن تأخذ الخراف وتسوق العنّابيّين إلى المخفر كي تقول لهم أنتم كلاب وبَجَم وأولاد حرام تبيعون العدس للتجّار وتخفونه عن الدولة، تاركين العنّابيّين إلى ندم عميق يوم كشفوا دروبهم وقبلوا بسجلاّت مهترئة حين ضلّت تلك الدوريّة دربها فأكرموا ضيافتها، وندموا لأنّهم لم يكسروا رؤوس رجال المساحة الذين أتوا وحدّدوا التخوم ووزّعوا

الأشجار على هواهم، تاركين الحيرة تعشّش في أدمغة العنّابيّين وخدوشهم.

خبّأْنا سلمان إلى أن تمّت المصالحة بينه وبين الأستاذ بعد أن ذبح أبوه أربعة ديوك وباس رأس الأستاذ الذي خاف من تهديدات سلمان البعيد والفارّ، والمختبئ في أحد هذه الأزقّة التي لا يعرف إلاّ اللّه ماذا تقول حين ينام الناس، وبعدما أيقن أنّ سلمان سيترك المدرسة غير راضخ لقانون إلزاميّة التعليم، فارًّا إلى البراري مع أغنامه ومواويله التي تجعل الحجر يحنّ كما يقول خالي أبو الهايم حين يُجلسه بجانبه ويعزف على نايه، تاركًا الفضاء لصوته كي يعرّش ويصل إلى بيت صبحة في القرية المجاورة التي لا تغلق الباب كي تتشمَّم تلك الرائحة العطرة القادمة من العنّابيَّة، تاركة زوجها الذي يجب أن تطيعه يشخر ويرفس اللحاف برجله.

كأنّنا كبرنا فجأة، أو كأنّنا أوغلنا في العمر أكثر ممّا يجب. العنّابيّة.. مرّة أخرى، هواء حبيس، رئتي متفحّمة تبحث عن روائح قديمة، وعن ظلال قوافل كانت تبهجنا، تُغَيّرُ جَهامة المكان وتجعله سلسًا، عذبًا ومولعًا بالمفاجأة. قمر لا أراه، أسير تحته. قمر مظلم أسيرُ تحته كأنّ أطياف ثياب القرباط سكنتني، أحالت هواجسي إلى حقائق كنت أفرّ منها، باب واحد للدخول في اللحظات المسكونة بقلق لا أعرف مصدره. أرفع الستارة وأدخل، أحمد متمدِّد على أريكته يدخّن، كأنّه يمارس استراحة لذيذة، أخبره ألاّ ينهض وأنفلت في المكان، الكتب مبعثرة، الألوان والريش ومحنّطات أحمد ولوحاته.

على الطاولة كتاب باللّغة الفرنسيّة مفتوح على صفحة ١٨٧ وفي الصفحة المقابلة صورة من القرن السابع عشر، رجال في مشرحة وأمامهم على الطاولة جثّة مفتوحة. أحمد يدخّن ويحدّثني عن حلمه بتحنيط امرأة.

الوهن يدبّ في أوصال أحمد، فأدرك أنّ المكان مارس غوايته وبهتت أشكاله، قال إنّه بالأمس كان مع أبي الهايم وتحادثا طويلاً حول موسم القوافل وأسعار الغرابيل، ووعده أبو الهايم أن يصنع له نايًا من العظم. الضوء الخفيف المنبعث من لمبة الكاز ورائحة الاحتراق تجعل الهواء ثقيلاً ومُملاً وممتلئًا بالإحباط، تشمّمته بكلمات أحمد وقرأته بالسواد المطلوس على لوحة معلّقة حيث تبدو نقاط لامعة قال إنّها آخر ما رسم، وإنّ هذه النقاط اللامعة هي ما تبقّى له. كانت العناكب في الزوايا تمتدّ وتستطيل دون أن تستأذن وتضفي على المكان بهوتًا وإحساسًا بالفراغ والهجر، خارجًا من كهف أحمد الجمل، من منزله، من مرسمه، وهو ما زال متمدّدًا يمارس غواية الملل. نجوم باهتة وقمر لا أراه، ألمح ظلاله ودروب العنّابيّة أزقّة مرسومة بعناية مهملة. البرّيّة الشرقيّة، شجرة الزعرور الوحيدة، أنفاس أبي الهايم، ووقع خطوات بعيدة كأنّها ترنّ الآن في أذني فألتفت لألتقط الصوت أو الصدى أو أتشمّم الروائح التي هاجت وانبعثت فجأة في فضاء مفتوح على اللامعنى والاحتمالات المربكة لحضوري وسط كلّ هذا الذهول الذي انتابني حين كانت البرّيّة الشرقيّة تنبثق هكذا فجأة بمهرجان ألوان لذيذة. خيام مرقّعة، ألوان تبهج خالي فتلتمع عيناه، تشفّ روحه هو المنتظر دومًا البوّابات المتفحّمة أن تفتح لتخرج من ظلامها مواكب نور

يعرفها، يسير بمحاذاتها، يغطّيه غبارها وتلتمع عيناه دوماً ببريق فلتان. تؤلمني الصور الباهتة في هذا الليل المجلّل بقمر أسود ونجوم باهتة اللمعان، تؤلمني دار أبي الهايم المهجورة المتروكة هكذا للعابرين. تؤلمني ذكرى ذلك الصيف حين كنت أتعلّق بيده وهو ينظر إلى الدرب الغربيّ كأنّه ينتظر وميضاً أو شيئاً ما عاد يحتمل غيابه تحت أكداس لحظاته الموسومة بالبهتان. كلّ يوم كان ينتظر إلى أن انتصف الصيف، وذات صباح تأخّر عن موعده السابق، عجّ الدرب الغربي بالقافلة، غبار تصاعد إلى السماء مع انتشار الخبر في أزقّة العنّابيّة، القرباط..، ... القرباط، كلّ الاستعدادات لقدوم هذه القوافل الضرورية لمحاربة السأم، بحميرها، وألعابها، بنسائها وحُوَاتِهَا، بالأشرطة الكئيبة ومهرجان الألوان المنثور هكذا فجأة في برّيّة مستباحة، تسمع البيوت ضجيجها مع اقتراب أصوات نهيق الحمير وقرقعة السطول الفارغة، بتداخل الأصوات المبهمة للغات لا تخرج إلى السطح المنتن. تعبر القافلة العنّابيّة مبتهجة بوصولها ممزّقة بكارة الضجر المستبدّ بالأشياء، ناثرة التحيّات لمن صادفه الحظّ باللقاء الأوّل. البرّيّة الشرقيّة في أراضيها الجرداء وصخورها اللامعة تتغطّى بأحمالهم المتعبة وتظهر المخيّمات.. خيام.. خيام تُذكّر بتشرُّد طويل، عمره من عمر الأرض، يحلّون كلّ صيف في طريقهم إلى الشرق كأنّهم يقتربون من منبع الشمس التي تربطهم بظلّها صداقة غامضة. نصف ساعة أم يوم أم قرن بأكمله، لا يهمّ الزمن كثيراً في هذه الفضاءات المضبوطة على الظلّ، تنتصب مدينة، قرية أو مخيّم سرعان ما يقرفص على قدميه، ليخرج عَوّاد من خيمته مُعْلناً عن أسعار الغرابيل وأسنان الذهب، مُخرجاً من جيبه ساعة لا تفارقه ليتأكّد

كعادته أنّ كلّ شيء مرتَّب بعناية وأنَّ الزمن في هذه الفوضى قد بدأ، وأبو الهايم ينهض من انتظاره الطويل ليتأكَّد من غبارهم وروائحهم التي يعرفها تماماً حين تفوح في سماء العنّابيَّة فتلتمع عيناه بسعادة ويفرك يديه. قال لسلمان الذي بدا رجلاً قبل أوانه إنّ نشمة تَمَلّكته وإنّها سلبت ما تبقّى منه وإنّه سيتزوَّجها وسيكتب لها الأرض الغربيّة باسمها. لبس ثيابه النظيفة المطويّة بعناية في صندوقه التنكي ودلق من زجاجة الكولونيا قطرات عبقت بها الغرفة وأحاطت به، وكعادته في الأعوام السابقة خرج من منزله كأنَّه يطير أو كأنَّه اكتشف الخلاص أو داهمته العذوبة ورحلت أطياف الخيبة. كنت أراه يقدّم فروض الترحيب، يقبِّل رجالهم ويسلّم على نسائهم ممازحًا أطفالهم وصباياهم، يقضي أغلب أوقاته في خيامهم ويكرم ضيافتهم في منزله حتى أصبح الناطق الرسمي لمجمّع بشري ذي دواليب متحرِّكة ولا يحتاج إلى أيّ إعلان أو دبلوماسيّة أو إذنٍ كي يشمّروا مكلابيّاتهم ويتبرَّزوا تاركين سيقانهم للهواء وأنوفهم تتحسَّس روائح المكان. الجميع يتساءلون هل أبو الهايم عنّابي أم قرباطي، وهم يهمسون بحذر وصوت منخفض هل حقيقة نحن أولاد عمّهم، كاتمين الخوف من جدّتي ومدركين أنّ الهواء يُخَرْبشُ لها كلّ الهمهمات، وأنا أركض في العراءات المكشوفة متقمِّصًا شكل الفراشات المنفلتة كأنِّي أبحث عن مدوّنات عتيقة تتساقط من أفواههم حين يرتفع الغناء وضجّة الطبول. أرى خالي متمدّدًا في الخيمة ومن حوله رجالهم، يثيرني أطفالهم الذين يشبهوننا ولا يشبهوننا، كأنِّي أتساءل حقيقة عن بهجة الانتماء إلى هذه الكتل المقذوفة خطأ من اللّه في دروب دائمة لا تغريها البيوت

والثرثرة بالثبات. تعرفهم الجغرافيا جيِّداً ولا يضلّون الطريق، يقسّمون الأماكن والفصول حسب روزنامتهم التي يعلِّقها عَوّاد في صدر الخيمة، والفصول بين المواسم والنساء العوانس والأرامل المهجورات. تنتظرهم القرى وحواشي المدن كأنَّهم ضرورة للحياة وليسوا جرباً أو بعوضاً طارئاً يحلّ كالأوبئة. نساء بصدور مفتوحة وأقمشة متَّسخة، أحذية بلاستيكيَّة مرقَّعة بخيطان فاقعة الألوان، صبايا تتدلَّى من أنوفهنّ أقراط وتدويرات النحاس بأشكال آلهة مجهولين وعلى صدورهنّ البارزة تنتشر الإبر والخيطان وأكوام الشكّالات كمشجب أو كعربة صغيرة متنقّلة. يُقايضون القمح والشعير والعدس والعنب بالصحون والأشياء الناعمة من أمشاط وأزرار، مُنافسين الباعة المتجوّلين على حميرهم البيضاء العالية وبسطاتهم المتحرِّكة. دون استئذان ينصبون خيامهم المتعدِّدة الألوان، العديمة الألوان ويقتسمونها بطرق غامضة، من الصعب إدراك قرابات ومحرّمات هذا الموكب العجيب الذي يفور بالحركة كمياه معدنيَّة منبثقة من الأرض ومندفعة في الفضاء اللامتناهي. في اللّيل يفقدون ذاكرتهم جميعاً فيخلطون حصيلة نهارهم ويضطجعون دون أن يتذكَّروا من يتبادل الجنس والموت مع مَنْ، وحين تُوَجَّهُ لهم تهمة اللاانتماء يغضبون ويشيحون الذباب عن أنوفهم المزكومة بالمخاط، موضِّحين أنَّهم عشيرة كبيرة جداًّ منتشرة في كلّ أنحاء العالم، يعرفون أفخاذها جيِّداً ولايخطئون بأنوفهم وآذانهم التي تلتقط السمع من مسافات بعيدة حين يتخاطرون بالروائح. والريح تحمل بريدهم، ويتباهون بشيخهم الكبير الذي يعتمر المنديل الأبيض النظيف ويجلس على الطنافس المخمليَّة، يغسل يديه بالماء الساخن المنسكب من إبريق

فضّيّ لامع، يرعى شؤونهم ويحفظ قوانين عشيرتهم. يراقبهم بوساطة جواسيسه ويستمع إلى تقارير كلّ قادة المخيّمات، يبطش بالخارجين عن الأعراف، يقطع آذانهم ويضمّها إلى القلادة الموجودة في صدر خيمته بعد أن يجلبهم مربوطين بالحبال ويحقّق معهم، يروي الكبار منهم لأهالي العنّابيّة المسترخين على الطرّاحات أو في ظلال الجدران عن قصص قتل وثأر تحفل بها سجلاّتهم، ويبتهج العنّابيون بهذه المخيّلة التي تشكّل فسيفساء الأحداث. في إحدى الليالي تَكَلّمَ عَوّاد محاولاً تحذير خالي من تماديه في الاقتراب أكثر من نشمة وحَدّثَهُ عن ملكة التي غامرت وتخطّت الحدود. يسمُّونها ملكة وهي ملكة يا ابن العمّ وخالي ابن عمّهم، حاميهم في المشاكسات الصعبة مع العنّابيّين، وصديقهم الأثير لسنوات طويلة، لا يعرف أبو الهايم سوى أنّه كان كلّما يأتون يحمل أمتعته ويجلس عند أقدامهم، وفيما بعد في خيامهم مبعثراً نقوده وأزمانه على ضفافهم، رسم الليل صورة لملكة، امرأة مزدهية بفتنتها، عينان واسعتان وصدر واسع ينبق منه نهدان لم يُخلقا إلاّ للصراخ، أجمل قرباطيّة، الكلّ يريدها حتى الشيخ وأولاده. لم تبرعم بعد وكان الشيخ يعدّها لتترك كلّ شيء وتتفرّغ للفنّ أو تصبح زوجة محترمة بعد أن تكون قد تعمّدت بالرحيل الدائم، عشقت شابّاً خفية عن أنظار أمّها وهربت معه قاطعة الحدود وتاركة وراءها ألعاب الصّدف والكحل والأثواب الطويلة المزركشة.

بعدها تأكّد الجميع من غيابها وخطيفتها مع ذلك الشابّ الذي كانت تحادثه على باب منزله أكثر من المعتاد، كما أكّدت بعض القرباطيّات الشامتات، مؤكّدات أنّهنّ رأينه يحوم حول خيمتها كلّ

ليلة في أطراف المدينة ولا يبتعد عن المخيّم إلاّ مع طلوع الفجر، وأنَّها دخلت منزله مراراً. وقالت قرباطيّة عجوز للشيخ وهو يستمع إلى أقوال الجميع: إنّ بطنها قد بدأ يكبر. أغلق الشيخ ملفّاته وأعلن بعد ستّة أشهر عن حملة بحث سرّيّة استمرّت خمس سنوات داخل البلاد وخارجها إلى أن صادفها أحد المكلّفين بالمهمّة في إيران قرب مدينة أصفهان، ذبحها وعاد برأسها الذي ظلّ معلّقًا داخل الخيمة، منطفئ العينين إلى أن فَتّتَهُ الدود وجعله بطّيخة عظميّة فارغة، كما قامت إحدى القرباطيّات بخطف ولدها بعدما عاد به زوجها وبعدما يئس أو أيقن أنّ دمها الذي شاهده منسابًا على السجّادة الممدودة في الصالون الواسع والذي بقّع البرادي، أيقن أنَّ دمها ذهب هدراً ولن تستطيع قوانين الأرض أن تُعيدَ له ملمس جسمها الناعم ويديها الناعمتين وروحها المخلصة، أتت به القرباطيّة طفلاً يضجّ بالحياة فسُمّيَ غريب، وهو صورة عن أمّه ورجل مقرّب من الشيخ، يمارس غواية النساء صاحبات النفوذ برشاقة جسمه وعينيه الواسعتين وأناقته حين يتبختر بألبسته الغالية ولغاته الثلاث التي يُتقنها.

من أعماق أبي الهايم كانت تنبثق يد نشمة البهيَّة ملوّحة له، ويُجاهد بعد أن يرحلوا نسيان تلك الفتاة التي نَمَتْ مبكرًا - أربع سنوات وهو يحلم بنشمة - يفكّر، ويذهب في الخفاء إلى مضاربهم مُدَّعيًا الشوق لعوّاد والرجال الآخرين. وفي الشتاء يجتاحه العشق حتى أظافر قدميه اللّتين تزرقّان إن أطال المكوث في العنّابيّة دون أن يحزم حقيبته في جولة جديدة لبحث لا يعرف أحد من أين يبدأ وإلى أين ينتهي، ليعود بعدها إذ يبدو للعنّابيّين مجهداً وعيناه لا تستقرّان. كنت

أراه أكثر حزنًا حين يمسك نايه ويعزف.. يعزف.. والعنّابيَّة تغرق إلى أن يعودوا ويتعطَّل كلّ شيء في العنّابيَّة، الهواء والدروب والجهات، ويغدو المشهد مفتوحًا على احتمالات جديدة تستعدّ لها العنّابيّة في اليوم التالي فتبدأ مراسم الاستقبال. القرباطيّات يدخلن البيوت مرحِّبات بأنفسهنّ، حاملات السطول الفارغة وعلى الظهر تتدلَّى وجوه مُغْبَرّة تُدعى أطفالاً موسومين بالخرز والأحراز والأنوف الموشومة. يسألن عن الصحّة وأخبار الغائبين، يترحّمن على الأموات ويفتحن صررهنّ ويقذفن بالأعشاب الطبِّيَّة و الشكّالات والخيطان وصحون الألمنيوم والفضائح والرغبات الخفيَّة، وأحجار الودع، يغمزن الصبايا والعجائز المتصابيات ويتفاهمن بلغة خاصّة، كانت أختي عائشة تُتقنها وهي تسحب نشمة من يدها إلى الغرفة العلويّة ثم تُغلق الباب. الصمت يعُمّ المكان، زليخة تلحق بهما وتتشبَّث بالدخول، فيما بعد بنات جيراننا ينضممن إلى الغرفة وتَشعّ في أرض الحوش الضحكات العالية وأصوات الضجيج. في الظهيرات القائظة، تفلت الكلمات المحذّرة ثم تهدأ الأصوات قليلاً لتنفجر في ضحكة جماعيّة واسم نشمة يتصاعد فتهيج البغال في الإِصطبل. وأبي يحدِّق من نافذة غرفته ويعود إلى قيلولته، تطيل نشمة المكوث. في الأزقّة ينتظرها المراهقون والرجال ليتفحَّصوا جسدها الملفوف والممتلئ قليلاً، تغنج بمشيتها المثيرة، تهزّ مؤخّرتها وردفيها وهي تطأ الأرض كدجاجة حبشيّة، ومعها تتصاعد حركة الشرايين وتلتمع العيون التي تلتقي بعينيها المغبرّتين قليلاً في دورانهما الدائم ولمعانهما الذي لا يخبو. نهداها البارزان من تحت ثوب الموسلين الأصفر وحلمتاها المتدفِّقتان بشبق جامح حلمُ كلّ ذكورة العنّابيَّة التي

لا توفِّر أحداً منها إن أعجبها العرض، تدخل أوّل خرابة مهجورة بعد أن تقبض، وتدسّ النقود في كيس قماشي أبيض معلّق في صدرها، تستند على الجدار وتمنح شفتيها في قبلة طويلة، أو تقرب خدّها لقرصة أصابع تنغرز في اللحم ككمّاشة، لا تسمح لأحد بتجاوز هذه الحدود المرسومة مهما بلغ الثمن. تضحك كطوفان حين تصرخ الذكورة ملتاعة، راغبة، هائجة أن تتمدَّد وتتمدَّد كي ينغرز العضو وتنتهي مهزلة القطرات الملوَّثة لفضيلة المكان، مريحة الأجساد البرِّيَّة المنخورة بالرغبة والهذيان. تعلن نشمة أنَّه عالواقف أحسن يا عيني، وتفلت كزئبق أخضر أو كأفعى داهمتها الثقوب المسدودة. تفلت من بين أياديهم الممسكة بها بقوّة، الذكورة تمتزج بعرق الفحيح الشمسي الهابط من عواميد الظهيرة، تتصاعد وتكتشف سماءاتها المغلقة، ونشمة تفرّ كالضوء، ضاحكةً ومُعَدّلَةً من وضع كيسها الذي لا قرار له، وأصوات النيكل الذي تحبّه، بعد ذلك تجلس الذكورة وتخرج القضبان وزوائد اللحم، تتلوَّى الذكورة شاتمة نشمة والأغنام والدجاج المتجسّس على نشيجهم والمحدّق ببهتان المشهد فتقذف بالحصى والروث اليابس. كلّ الكائنات المتحرِّكة في هذه الخرابة الساكنة، والظهيرة تلد ذبابة خضراء كبيرة تنسج حلقات غنائها فوق رؤوسهم، والذكورة تدلق بسوائلها الحارّة خارج الأنابيب، ثم تسترخي وتتمدَّد وتغدو الأجساد مستعدّة لتحليق طويل. شفاه مكتنزة بعسل البراري، ظهيرات متماوجة، وجذوع تتثنّى، وأحمد الجمل يرسم هلام أجسام على بياض اللوحة. أرى الريشة وهي تهوي بنزق كأنَّها تريد نثر كلّ الألوان دفعة واحدة، أرى خطًّا أحمر ثم أزرق فاتحًا، وأحمد يتابع غائبًا عنّي وعن الفضاء المثقل

بالضجيج والفحيح، الأصفر جانب الأحمر ثم البرتقالي ثم الأزرق، ثم النوافذ المفتوحة على اللاشيء، الريشة مرّة أخرى تغطّي كلّ شيء وأحمد كأنّه يتعبّد غائبًا، بعيداً.. أبواب منازل غامضة، وأثواب صفراء، صدور متلامسة، حلمتان شفّافتان بلون الكرز ثم أرى الريشة تلوِّنهما بالأزرق، حلمتان زرقاوان ومؤخّرات متمايلة، سنابل ونوافذ خلفيّة ورجال حزانى عائدون من الحصاد، وبغال متعبة تفوح من خياشيمها رائحة التبن المبلّل ببخار الماء، البغال تتابع الصعود في الدرب، وفي اللوحة تقرفص، وقرباط منفلتون في الأمكنة، يشيحون الستائر وتقرقع صنوجهم معلنة المقامرة بالرجولة غير المكتملة. في زاوية اللوحة يدقِّق أحمد بهدوء عبر عينين مكابرتين، حزينتين، خائفتين. لم أر البنفسجي ثم الأسود وهو يبرز الحدقة ثم الحدقة الأخرى. أحمد غائب عنّي وأنا أسمع صوت الفتيات، عائشة يتعالى صوتها مبحوحاً كرغبة مقتولة، ونشمة بصوتها النحاسي وهو يعلن حقائق لا أستطيع التجسُّس عليها فأهرع إلى غرفة جدّتي التي تطقطق سبّحتها وتكتب رسائل لا أعرف بأيّة لغة ولمن تضعها في زجاجات فارغة بانتظار من يرميها في البحر. أرى يديها تخربشان على الهواء وترسمان حموضة المكان ثم فمها وهي تبتسم لي كي اقترب لتهدأ لواعجي أو تنهي انتظاراتي. أتأمّل الزجاجات، الرسائل، وأتذكّر أنّ الغائبين ما زالوا يراسلونها ولا تنسى أحداً منهم. أيّة ذاكرة جعلت منك سيِّدة المكان وحارسة الخدوش والأعماق الدفينة! كأنِّي أخاف من روائح الأنثى المتسرِّبة من شقوق الباب في الغرفة العلويّة وهذا الهياج الذي يريد هدم الدرج لفتيات يتعاركن دون أن أدري لماذا يخرجن مسرعات من تحت

القنطرة المتدلّي منها المصران وقد أصبح قديداً، والحجاب الذي ضاعت ملامحه وما يزال أبي يعبر إلى غرفته حيث دروع سلاحفه، وإلى الإصطبل حيث البغل البنّي الذي عرف الغنج كثيراً بين يديه وهو يمسح له قوائمه كلّ يوم، وينظّف له المعلف ويزيد الشعير المطحون له، مضيفاً قليلاً من الكسبة، منشغلاً بتلميع السرج استعداداً للسقي على حافّة البئر. مياه نظيفة وأصوات نساء تجعل البغل مبتهجًا مزدهيًا بحوافره وسرجه الملمّع. أختي عائشة تلاحق نشمة وتهمس بأذنها بكلمات لم أسمعها، ثم تعود نشمة لتهمس بأذنها بكلمات أخرى فتلتمع عينا أختي، يبتهج صدرها، يخفق، تشرئبُّ حلمتاها وأراها أكثر رغبة بالماء فتهرع إلى البئر كأنّها تقفز. حجل يقفز إلى الماء، يا للماء حين يبلّل أجساد النساء، وحين يطرطش وجه عائشة فتقول أح من البرودة واللّذّة. رائحة عرفتها فيما بعد. أن تحتضن امرأة مبلّلة بالماء أي أن تحتضن ذاكرة الربّ، وتغرق في الرذاذ اللذيذ أيْ أن تغرق في متاهة. في زاوية اللوحة كان أحمد يحاول أن يوهّج اللّون البرتقاليّ مرّة أخرى، لا ينفتح المشهد ونوافذ الكهف مغلقة.. الكهف دون نوافذ، الأنفاس المتصاعدة تتساقط على الكتب المتناثرة وملاحظات الكائنات التي تزداد يومًا بعد آخر. أحمد ما زال غير آبه، غارقًا بين الكهف والدرب إلى غرفة جدّتي أمّ مسعود...،.. من تحت القنطرة يعبر ويحدّق إلى بلل عائشة والباب أسمع صريره، أرافقه وأرى جدّتي مبتهجة وضاحكة وسعيدة يحدّثها وتحدّثه. يقول لها إنّه أزال الغبار عن قبر بدريّة الذي يبحث عليّ الجمل عمّن يشتري رخامه عَلّه يستعيد جزءاً من نقوده ويخبرها أنّه سيقتله لا محالة ويرمي جثّته للكلاب. جدّتي بصوتها

الخفيض تؤكّد بأنّ بدريّة في الجنّة تلاعب الحوريّات وتفترش العشب بثوب أبيض وأنّ صالح بخير. أحمد يعرف هذا، أحسَستُ أنّه يراه كلّما غادر العنّابيَّة باتّجاه الشرق منحرفًا عن درب الغياب، وحين نخرج أقول له رأيت هادي العنّابيّ بالأمس مقرفصًا في الزاوية يراقب الغرباء ويدخّن الغليون، وقد أجابني أنّه متعب وسنتابع البحث عن جبل الذهب، وأنّه لم ير الحديد محمّلاً بالقطن والسمسم والبشر فقط وإنّما ركب في المركب المدعوّ سفينة ومخر عباب الذي يُدعى بحراً، والتقط من الماء زجاجة فيها رسالة أمّ مسعود، قرأها وعاد إلى العنّابيّة. ينظر أحمد إليّ وكأنّه يتساءل هل أمّ مسعود كانت ترى هادي العنّابي؟ وأعرف أنّه يعرف بأنّها هي التي أمرت أن تُحفظ أشياؤه المبعثرة وما زالت تحتفظ بالخرائط لديها. كأنّ الأمكنة تتهدَّم الآن ورائحة الماء تفوح في أرض الحوش الواسع، زليخة تقلّد عائشة وتبتهج بالماء حين يطرطشها، وأسمع صوتها الطفولي العذب وفيما بعد أراها تحاول اللحاق بها، كأنَّهما تتبعان أثر القرباط وتتشمّمان روائحهم التي انتشرت في هواء العنّابيّة وعلا صياحهم في كلّ أزقّتها، معلنين عن بضائعهم الجديدة، أو كأنَّهما تبحثان مرّة أخرى عن خطوات نشمة التي اتَّفقت الذكورة أنَّ أحداً لم يتحسَّس لحمها الطري، أو يلجها كما كان شائعًا، إذ كانت تحتاط بواقيات ولا تدخل إلاّ إلى الأماكن القريبة والمكشوفة التي تسمح بالفرار وفي عزّ الظهيرة. لا تسمح للذكورة أن تحاصرها، حتى سلمان الذي بدا متعبًا حين عاد من مشواره الأسبوعي مع قافلة التهريب التي يقودها، محمّلة بالشاي وبعض المسدّسات الصغيرة وهو يخترق بها الحدود التركيّة، ليعود محمَّلاً بالملابس

والحرامات والصابون، أنزل أحماله وقبّلني، نهضت من قرب خالتي التي كانت تبكي وتتذكّر أبا الهايم ووجهه النضر الذي بدا لها كقماشة سوداء أو كفزّاعة، قال سلمان بعد أن أتت زوجته بالشاي إنّه ما زال يحسّ بخيبة أمل لأنّه لم يستطع التقاطها في وقت متأخّر من المساء، وكان يعتقد أنّها تحزم سروالها بشريط فولاذيّ معقود عند البطن وتحتاط بواقيات من الصوف السميك، ممّا يجعل فرجها بعيداً عن الملمس بعكس جسدها اللامع بسمرته تحت ثوب الموسلين الأصفر، وقال إنّه حزين لأنّه لم يستطع أن يجد أبا الهايم وأنّه ما كان يجب أن يتورّط مع القرباط. سلمان أصبح عاقلاً ومهرّباً، فَقَدَ رخامة صوته العذب، وكان حزيناً لأنّ جدّتي غير راضية عن عمله وتسمع صياح زوجته في الليل حين كان ينهال عليها ضرباً بحبل معلّق في صدر غرفته، لأنّها لا تعرف التلوّي كصاحبته التركيّة التي ينام عندها حين يضطرّ للمبيت في تركيا، وهمس لي أنّ هيلانة التركيّة تفحم سبعين زلمة.

تعود نشمة روحاً هائمة وجسداً مصقولاً في خيالات الذكورة، حذر وذكاء مبالغ به أحياناً، إذا تأخّر إيابها إلى أوّل المساء تطلق لحسراتها العنان بصوت عالٍ يسمعه الجميع، إمّا لطرد الأشباح وخوف الاغتصاب أو لإثارة العنّابيّين المثارين دون مثيرات. قال سلمان إنّه حين علم بعشق خاله أبي الهايم ابتعد، وإلاّ لكان جعل من جسدها ألف قطعة، وأضاف أنّ طعم حلمتها عذب، حلو، ولم يحاول تحطيم واقياتها حين جرّها من يدها إلى الخرابة بعد أن كمن لها حتى خرجت من بيت أبي سالم. يده فوق فمها وذكورته توتّرت وخرجت من عقالها، دارت، لفّت على خصرها بقوّة أصابع تتّقد غضباً ورغبة،

انتفضت نشمة متلويّة للإفلات من هذا الأخطبوط. رجاها ألاّ تخاف، وطلب إليها أن تدخل كي يتفاهما بهدوء وصوتها المكتوم يقاوم. يقول لها خذي ما تريدين، طنجرة نحاس، ألمنيوم، كيس شعير، غنمة وخروف، نشمة تقاوم ويفلت نهدها بين أسنان سلمان يتأرجح لثوان كافية كي يغرق باللذّة لسنوات. تفلت هاربة وقد تمزّق جزء من ثوبها وكشفت عن تدويرة رائعة لكتف سلسة وآثار أصابعه التي بصمت عليها بالعشرة، قالت إنَّه قحب وأمّه قحبة وملأت العنّابيَّة زعيقًا وشتائم اضطرّ بعدها أن يهرب إلى البراري كي لا يواجه خاله، الذي ما إن رآه حتى صفعه وأقسم إنّه لن يتكلَّم معه. وأبوه بدأ يفكّر بتزويجه فوراً ويستر عرضه. أبو الهايم قال له إلاّ نشمة، وأدرك سلمان أنّ خاله حقيقة متلبّس بهذه الفتنة وهذا الفلتان الآسر، وطلبت أمّ مسعود أن يأتي أبو الهايم وسلمان، ورأيت دمعة تنحدر من عينيها وأخرى حين خرج الرجلان بكامل رجولتهما وإشراقهما وسط دهشة العنّابيِّين. حين بدأ أبو الهايم يضيّق على نشمة ويوبّخها أمام عَوّاد، يوصي عائشة كيلا تدخلها الدار، ونشمة يداهمها شعور لذيذ وهي تراه يخلع روحه قطعة قطعة بين يديها ويدنو منها بعد حديث طويل، ويعرض عليها الزواج ومصرِّحًا بأنَّه يحبُّها. الحقيقة التي أدركتها منذ أكثر من سنتين حين بدأت تستيقظ من نومها وترى تفتّحها المفاجئ، ضحكت نشمة وأخبرته أنَّها قرباطيّة لا تصلح له، هي راحلة دومًا لا تستطيع أن تصبح عنّابيَّة كما اقترح عليها، ولا أن تخطف معه إلى بلاد لا يعرفها سوى اللّه، حيث تفرد كيس الحنّاء وتحنّي أصابع قدميها ثم تنظّف جسمها المتعب كي تتهالك بين يديه وتذوب كعطر وردة. نشمة عادت تحمل

السطل وكيس بضائعها وتحت ثيابها صرّة صغيرة لا تفردها إلاّ في الغرف المغلقة وبين أيدي الصبايا أو النساء اللواتي يتأمَّلن هذا الجمال، مداعبات حين تمرّ على مجالسهنّ أمام الأبواب أو في ساحات البيوت، هامسات لها أنَّ عريساً ينتظرها إذا وافقت، فتردّ ضاحكة كقطار عبثت الريح بمفاتيحه وأطلق صافرته الأولى ولم يسكت: أنّ الحياة هيك أكْيَفْ. وتتابع طريقها بأسنان ذهبيّة تلتمع في ثغرها كمنارة مضيئة، بينما العنّابيَّات يعدن لتقشير الفاصولياء والثوم والثرثرة التي تملأ الجوانب وتتساقط مساء على العتبات، فيلملمن أغطية رؤوسهنّ وينفضنَ ثيابهنّ تاركاتٍ أماكنهنّ شاغرة يُستدلّ عليها من بقايا الكلام. يهرعن للنوم بينما تحت شجرة الزعرور تتراقص النار وتفوح رائحة البرغل من القدور الضخمة وجلبة الأصوات المعدّة لمساء القرباط المسكون برائحة الزبيب والبهار ومجون الضحكات الهازئة بتدويرة مؤخّرة قرباطيّة تقرفص على بعد خمسة أمتار، وتتكلَّم مع الساهرين في العراء عن حصيلة اليوم وفضائح العنّابيَّة. تفوح الرائحة وتختلط بكلّ ما هو معدّ للاختلاط، الحكاية والذاكرة المتفتّقة وأخيلة المراهقين والرجال الذين يفركون أياديهم ويضربون الأرض بأقدامهم حين يتهدَّل نهد قرباطيّة ترضع طفلها، تاركةً الحلمة متأرجحة كثمرة ناضجة في الهواء الطلق أمام عيون أناسٍ محكومين بالإعدام. تُهزم الزوجات أمام إناث يركضن في السهول كالأحصنة البرِّيَّة وينفخن النار في الذكورة الراكدة، وبعد رحيلهنّ أوائل الخريف تغرق العنّابيَّة ببقاياهم المتروكة في عراء البرّيّة الشرقيَّة. برازهم وروث حيواناتهم، أثوابهم البالية، ألبستهم الداخليَّة، وتقصّف أغصان شجرة الزعرور الوحيدة المنتصبة

وسط مخيّمهم كنقطة علام أبديَّة بلحائها المتقشّر وخدوش النمل تغربلها، وعلى جذعها بقايا الهياكل العظميّة المربوطة لحيوانات مذبوحة ومسلوخة، والأمعاء مندلقة تستقطب الذباب والكلاب المتخمة تُنَفّر العنّابيّين من روائحها التي يبلِّلها المطر، فتغدو أقوى إلى أن ينتصف الشتاء وتبقى العظام فقط شاهداً أبديًّا على تلك الأنفاس الضائعة والخطوات المَمْحُوّة.

الأمر كان مختلفًا ذلك الصيف الذى أتى لزجًا، مشبعًا بالخمول والصمت، رغم ضجيج النوارج والبغال وحركة الأغنام العاديّة، حذر تغلغل دون أن يدري أحد سرّه. أبي انشغل أكثر بقروح البغل البنّي، وأجرى له عملية جراحيَّة ثانية، وأعاد تضميدها مرّة أخرى بقماش أبيض نظيف. طلب من عائشة أن تغليه كي تطرد الميكروب، البغل بدأ يعرج ويتألَّم حين يهرول قليلاً، أو حين يسير مسافة طويلة. تبدو عيناه كأنَّهما تدمعان وكأنَّه يكابد حين يقف بين الفينة والأخرى ثم يتابع إلى أن يرى باب الحوش الواسع، فيهرع مسرعًا إلى الإصطبل. أبي لم يعد يُخرجه إلاّ للتنفُّس وبدأ يزيد ساعات السهر في الإصطبل وأحيانًا ينام فيه، يتشمّم روائح جلد البغال ورائحة فشكهم المختلطة برائحة التبن. ينام متمدِّداً في الزاوية معترضًا البغل الأبيض الذي يتطاول على معلف البغل البنّي حين يتمهل الآخر أو يأخذ استراحة قصيرة.

في الصباح يخرج من الإصطبل ولا ينظر إلى أمّي التي تطلّ من غرفتها العالية وتنتظر حائرة، غاضبة، يتوجَّه أبي إلى برميل الماء، يطرطش وجهه ويصرخ على عائشة النائمة أن تعطيه المنشفة. عائشة نائمة فلا تنهض، ينشّف وجهه بأكمامه ويمضي إلى غرفة جدّتي،

يجلس على العتبة ويصمت الاثنان، يرى الرسائل المدسوسة في زجاجات فارغة ويصمت. أمّي تدخل وتقف على العتبة مُصَبِّحَةً عليها، تبربر بكلمات غير مسموعة ثم تعلن أنّها سترسل البغل البنّي إلى البازار القادم وتبيعه قبل أن يموت ونَعْلَق بجثّته. أبي ينظر إلى أمّي ولا يتكلّم، أمّي تخيفها تلك النظرة حين يرفع أبي رأسه كأنّه سيهمّ بالكلام كما كان يأمر بكلمات قاطعة غير قابلة للنقاش، تتذكّر تلك الرجولة التي ملأت حياتها وتتحسّر وتتابع دورانها غير المجدي في غرفة جدّتي المرتّبة، تعتني بالوسائد والطرّاحات، وتنفض الغبار عن إفريز النافذة. جدّتي خرجت أكثر من مرّة من غرفتها إلى مزار عنّاب الذي كان يهرع كلّ يوم ليصلّي مع النبي، مرّة في مكّة ومرّة في المسجد الأقصى، كأنّها أيضًا تلحق بتلك الصلاة. تفتح الباب صباحًا وتدخل إلى المزار ثم تُعيد إغلاق الباب وتدسّ المفتاح في جيبها الوحيد، مغلقةً الشبابيك حتى المساء، والعنّابيّون يعرفون فيما بعد أن مناقشات حامية تدور في الداخل حين يمدّون أيديهم إلى المفتاح فلا يجدونه وينظرون إلى النافذة المغلقة ثم يتابعون دربهم. تعود وحيدة لا تكلّم أحداً ولا تقبل مساعدة أو دعوة أحد إلى الشاي، تبدو أكثر شبابًا وكأنّ ظهرها يعتدل قليلاً وخطواتها تتسارع. أنا قربها، يدي في يدها، أتشمّم خطواتها فرحًا بهذه القامة الهرمة، الشابّة الموغلة في العمر والغموض.

مساءً أُخبر أحمد الجمل أنّ جدّتي اليوم كتبت رسالةً، وأرسلت حسين خصّيصًا كي يرميها في البحر البعيد، فيهزّ رأسه كأنّه يعرف، أو كأنّ هذه المهمّة قام بها من قبل دون أن يخبرني. يعود إلى التمدُّد مسترخيًا ويُحَدِّقُ في الزوايا المدوّرة لكهفه الذي يزداد ضيقًا مع تراكم

مُحَنّطاته وأحجار الصوّان التي يُحْضِرها كي ينحت عليها وجوهًا غريبةً، يرمي أغلبها ويحتفظ بالقليل ثم يقول لي إنّها تمارين. يبدو لي أحمد أكبر منّي، أحسست به في ذلك الصيف كأنّه كبر دفعة واحدة، شارب خفيف ونظرات أكثر عمقًا، وفيما بعد كلمات لم أستطع فهمها إلاّ فيما بعد عن ماهيّة الحياة والموت والرغبة بالرحيل إلى بلاد شموسها أجمل وغبارها أقلّ.

في ذلك الصيف، تحلّق القرباط حول قبر بدريّة ومسحوا الغبار عنه مُمْعنِين النظر في المرمر الأسود الذي ازداد ألقًا، وفي تجاعيد وجه عليّ الجمل الذي ما زال مصرًّا على أنّه سيبيع القبر ويستردّ نقوده التي ضَيّعَها ابن القحبة وابن المجنونة نادبًا حظّه. قام القرباط بأكثر من زيارة لكهف أحمد، جلسوا، شربوا الشاي وغنّوا قليلاً ثم تبادلوا معه أشياء غامضة لم أعرفها، تبغًا وجلودًا وألوانًا وأقمشة مختلفة، النساء تدلّلن وهنّ ينظرنَ إليه ثم وهنّ يقتربن من لوحاته ومحنّطاته بحذر كبير خيفة أن يفتح الباب لهنّ ويطردهنّ.

في ذلك الصيف بدا خالي قلقًا وغير راغب بالتحدُّث إلى أحد، رأيت الشيب يغزو شعره، وعيناه بدتا أكثر بهوتًا كأنّ النعاس دبّ فيهما. وجسمه كأنّه قد هرم، حتى وهو يخرج من سأمه ليهرع إلى مخيّم القرباط دون أن ينتظر حتى ينصبوا خيامهم أو يستريحوا من عناء السفر، بدا غريبًا عنّي كأنّي لا أعرفه.

وفي صباح اليوم التالي بدأ الدوران حول الخيام وتوزيع الأماكن الاستراتيجيّة بين منتظري نشمة لتعيد البهجة للأزقّة، والحرارة للجدران، ماسحةً بيدها الممتلئة بالخواتم الفضّيّة هذا الإحساس بالقيظ

والفراغ المشبع بهذيان البراري عند اشتعال خطوط الأفق في الظهيرة أمام عيني الناظر إلى السهول المحصودة اللامعة، المتماوجة بحركة من يتأهّب لحريق كبير سيندلع ويترك العنّابيّة رماداً تذروه الريح. المنتظرون بذكورتهم يتحسّسون قعر جيوبهم المثقوبة دوماً والنقود المختبئة وهم يستمعون إلى رنين نيكلها الذي سيقفز إلى الكيس المدسوس في صدرها الذي سيحتمل كلّ هذا اللهاث. في ذلك الصيف فوجئ العنّابيّون بالأجراس وأربكهم صوتها وشكلها المخروطي والدائري مُعلّقةً لأوّل مرّة في تاريخ القرباط، عَلّقوها على أبواب خيامهم وفي برادع حميرهم، وأجراس صغيرة في رقاب الأولاد والنساء، كأنّهم بهذا الرنين يطردون الأرواح الشرّيرة وسارقي الكحل. ازداد الارتباك حين تأخّر ظهور نشمة خارج الخيام، لم ترم بظلّها على دروبهم المليئة بالحصى الصغيرة، رغم أنّها لَوَّحت للعنّابيّين بالأمس ولاحظ الجميع وسط هذا المخيّم المرقّع والمركّب من مزق الأقمشة البالية وأكياس الخيش المثقوبة خيمة جديدة، مختلفة، انبثقت بلونها الأبيض الجميل فلم يستطيعوا أن يُخَمِّنوا وقالوا بأنّ القرباط تزنكلوا وبطروا. كأنّي لم أر شيئًا، الأمكنة الأثيرة إلى نفسي ضاقت وأنا أرى العنّابيّة بقيظها، بذبابها، وعائشة كأنّها تنتظر نشمة أيضًا، تُطلّ من الزقاق وتستمع إلى رنين الأجراس الصغيرة ضاحكةً تسأل عن نشمة ولا أحد يجيب. في المساء الأوّل نهض عَوّاد من مكانه الأثير وأمام خيمته احتضن أبا الهايم الذي وصل ووجهه أحمر منفعلاً ويداه الحارّتان التفّتا حول عنق عوّاد، ضاحكًا، مبتسمًا، مرتبكًا. شرب القهوة المخصّصة للضيوف، باحثًا عن ظلٍّ لنشمة مع نسائم العصر الرطبة التي تسلّلت رويداً رويداً إلى حديثهما

الحارّ وإلى مجلسهما في طرف المخيّم، عَوّاد أخبر أبا الهايم أنّهم اشتاقوا له، لكرمه ولنايه ولنكاته وأحاديثه عن السفر، وطلب إليه أن يأتي غداً ليرى نشمة فالنساء لم يرتّبن أنفسهنّ بعد وهنّ متعبات من السفر الطويل الذي فهم أنّه استمرّ يومًا كاملاً وليلاً بطوله. عَوّاد بثيابه النظيفة وحذائه اللامع، والمختلف عن جميع ألبسة الآخرين وأحذيتهم، يبدو قائداً لهذا المخيّم أو نائبًا للشيخ الكبير، لا عمل له إلاّ الجلوس في الفيء تحت ظلال خيمته وحَلّ المشاكل التي من الممكن حدوثها بين قرباطيّتين حول اقتسام الغلال. يُوَجّهُ الرجال إلى برامج عملهم وتحرُّكاتهم، لا يُصَادِقُ أحداً بسهولة ومراسه صعب، إلاّ أنّ حضور أبي الهايم وأريحيّته طوال السنوات الماضية جعلته مُقَرّبًا ومختلفًا عن أبناء العنّابيّة الآخرين الذين لم يختلط عوّاد بأيّ منهم، عَوّاد موفد حقيقيّ لحفظ نظام هذه القافلة الدائمة الترحال، لا يرحم التجاوزات الكبيرة ولا يقف عند الأخطاء الصغيرة. يسافر ليوم أو يومين دون أن يعرف أحد وجهته ثم يعود محمَّلاً بإرشادات جديدة حول مدّة البقاء والغلّة وعدد الحمير الملتقطة في المخيَّمات الأخرى والمذبوحة، ونوعيّة الغرابيل المصنّعة. يلقي التعليمات بتأفّف، يرافقه كلب صغير كظلّه لا يكبر أبداً، يُطعمه من حصص الأطفال ومن أفخاذ الحمير المذبوحة، ويلاعبه دومًا قبل أن يقبع قرب الخيمة أو عند أقدام سيِّده الذي تَنِزّ من عينيه هالات حزن عميق لا يعرف سرّها أحد، رغم تساؤلات أبي الهايم الدائمة حول ذلك الغموض.

الملك المخلوع القرباطي العجوز، الدائم الجلوس تحت الشمس حتى لو كانت عمودية، وتُسَيّلُ ظوظ المخّ، والغربال لا يفارق يديه،

يصلح هذه الروفة ويُخَيّطُ ذلك الرتق واصلاً السيور الجلديَّة بعضها ببعض، وفي أوقات فراغه يُنْشِدُ الأشعار ويقوم بتجميع الجرابيع والقنافذ، يفتّش أدغال البلاّن وثقوب البرّيّة باحثًا عن هذه الكائنات، يُشَمّمُها رائحة التبغ ويملأ خياشيمها، منتظرًا أن تقذف بأجسادها منتشية فاقدة رشدها بحركات بهلوانيَّة، ضالّة طريقها ممّا يُثير حفيظة الابتسام لديه وهو مقرفص يراقب هذه الرقصات، فيمسك بعودٍ يُداعب القنافذ التي تحتمي بفروتها الشوكيّة ملتقطة العود المثبَّت دون حركة، ثم يقوم بذبحها وينظف الجرابيع من الأحشاء ويسلخ جلدها، والقنافذ من عباءاتها الشوكيَّة ويطهو طعامه الخاصّ في طنجرة فخّاريّة مستمتعًا. قال إنَّ عوّاد ليس قرباطيًّا، سرقه أحد القرباط من أحد المنازل المفتوحة وربّاه فأصبح ولده، وهذه الحكاية لا يجرؤ أحد على التصريح بها سوى هذا العجوز الذي يبدو كأنّه يتمتّع بحصانة وله مطلق الصلاحيّة فيما يرغب. والحكاية تثير خيال وتساؤلات الكثيرين، قرباطًا وغير قرباط، عن أصل عَوّاد ولونه المختلف قليلاً بميلانه إلى سمرة مختلطة مع صفرة واضحة، حتى عَوّاد كأنّه يبحث عن نفسه، عن أصله، كأنّه في كلّ أرض يبحث عن أمّه الحقيقيّة وعن انتمائه الأصليّ. سلطته العدوانيَّة واضحة وأحيانًا عنيفة دون أيّة مقدّمات يهابه الرجال ويأتمرون بأمره ويُحِسّ الجميع أنّ كلّ النساء مباحات له إذْ لم تُعرف له زوجة أو عشيقة.

كنت أرى الملك المخلوع، وأعرف أنّ أحدًا لا يأبه لتصرّفاته، جالسًا تحت الشمس. أقترب منه وأجلس بين يديه، أتشمّم رائحة التاج، أقوده من يده ونخرج من كمائن المكان، يطفح وجهه بابتسامة رجل راضٍ

حين يبدو الهواء أكثر نظافة. أقول له بأنّي نسيت الصولجان فلا يأبه. يقول إنَّ المخيَّمات التي تغطّ بنومها الآن لا تمارس إلاّ المكيدة. على جانبي الطريق كان الحرس الملكي ينحني ويقدّم فروض طاعته. في الطريق الطويل قال لي إنّ الكرسي يُوجِعُ مقعده وإنّه لا يحبّ أبّهة الملك ويريد البقاء هكذا ملكًا مخلوعًا. أحاذيه وأقول له ياسيِّدي مملكتك تزخر الآن بالمَدّاحين وبالمنشدات الواقفات على أدراج القصر حاملات الشموع ولابسات الأثواب الشفافة، يخاطبن القمر أن يُعيدكَ إليهم. يُشيح بيده أن أسكت ويتابع طريقه، يقول إنَّ القرباط تغيَّروا، ما عادوا قرباطًا وإنَّ المكان ماعاد يحتمل تغيُّراتهم، وإنّهم ماعادوا يربطون بغالهم تحت نوافذ المنازل العالية، ويتسلَّلون كي يخطفوا فتاة جميلة أو طفلاً رضيعًا أو ينهبوا صندوق مجوهرات سيِّدة غنيّة، ما عادوا يعرفون مواقع حوافر بغالهم وما عادوا يبعثرون كلّ شيء. أصبحوا بليدين وغير جديرين بملكٍ مثلي. كنت أستمع إليه وأعرف أنَّ أخاه الأصغر قد احتلّ العرش وعندما سنصل إلى العرش سنجد البوّابات مغلقة والصولجان قد كُسِرَ وقبّعته قد رُمِيَتْ في صندوق التحف.

لم يأبه الملك المخلوع حين رأينا الجنود يدقّقون في وجوهنا، في أيدينا، في الوشم المدقوق على الساعد الأيسر، قال لهم إنّه الملك وأجابوا: لكنَّك الملك المخلوع ويجب أن تعود إلى مكانك الآسر تحت الشمس، وإنّ الملك الجديد قد قضى على كلّ لصوص المخيَّمات ومُرَوّعي الأمن وأعاد المخطوفات، وإنّه يحتفل مع رعيّته كلّ يوم. الملك المخلوع ضحك وجلس كأنّه ينتظر شيئًا ما أو زمانًا آخر، تركته تحت الشمس ومضيت إلى الحوش الواسع. كانت عائشة تتمهّل وتسأل عن نشمة

التي لم تكن بين القرباطيّات اللواتي انتشرن بين البيوت وفي الأزقّة كالجراد. أجراسهنّ ترنّ وتخبّر عن أماكن تغلغلهنّ في مسامّات العنّابيّة بهياجهنّ، باندفاعهنّ، بفضولهنّ وروائحهنّ التي زكمت أنوف منتظري نشمة، وانتابتهم الخيبة حين عرفوا أنّها لم تُرْزَقُ بابن الحلال ولم تتزوّج، ولاحظوا الغيرة المبطّنة وتثاقل القرباطيّات وهنّ يقلنَ إن نشمة صارت حَجّية وما عادت تحمل سطلاً، وهي الآن حجّيّة صغيرة ولكنّها ستكبر، وصيتها بين القرباط قد شاع. المطاردات طالت القرباطيّات الأخريات بمللٍ وعدم رغبة، إلى اكتشافهم أنّ وضحة ستقوم بمهامّها وبدؤوا بانتظارها كلّ يوم. وضحة ذات الأربعة عشر عامًا أقنعتهم، حتى وإن كانت غير جميلة، تفوح منها روائح غريبة تُشْبه رائحة الأقبية حتى لو استحمّتْ كلّ يوم، صدرها رخو كالعجين وعيناها شبقتان تبحثان عن مستقرّ لذلك الوهج الحارّ المنبعث من البؤبؤين، الذي أحال زبائنها إلى حريق حين كانت تضطجع على القشّ وتسمح بالانبطاح فوقها، تعرّي نهدها وتلقم الحلمة متّخذة كلّ احتياطاتها كي تهرب أو تنسحب فوراً كبساط من تحت أقدام الراقصين. اعتبرها الجميع مكسبًا حتى وإن كانت أسعارها أعلى من أسعار نشمة ذات الصدر الصلب والجسد اللدن. ازدادت وضحة أهمّيّةً حين تطاولت بأصابعها إلى قضبان الذكورة غير المكتملة وسمحت لبعض الأيدي بتحسُّس فَرْجها من تحت الثوب وهي تردِّد ألفاظًا غريبة لم يسمعوها من نشمة، الجرس الذي تُعَلّقُهُ في رقبتها كبيرٌ يُشبه أجراس المراييع بصوته الحادّ. وضحة تملك ساعة تلمع في معصمها وتعمل على الوقت، بالساعة، ولا تُمانع أن يجتمع معها في المكان

نفسه أكثر من واحدٍ ينقضّون عليها ويقتسمونها كأرض مشاعٍ، يُهنهنون كأرضٍ تفيض عذوبة وبرودة منعشة في ظهيرة قائظة، ويزعقون كمن مَسّهم تيّارٌ كهربائيّ وأحالهم إلى فحم، قالوا عنها إنّها فضيحة حقيقيّة ومتجوِّلة ستهدم العنّابيَّة بصوت جرسها المعلِن عن انتهاء الموعد، عائشة زارتها، وضحة لم تُرَحّب بها، جلستا على باب الحوش وتكلّمتا قليلاً ثم انسحبت بعد أن حاولت مع أختي السّماح لها بالصعود إلى الغرفة العلويّة كما كانت تفعل نشمة، حيث تجتمع الصبايا لتعلو الأصوات الغامضة. قلت لأحمد الجمل إنّني وضعت يدي على مؤخّرة وضحة ثمّ أدخلت أصبعي في إستها من فوق الثوب وأعطيتها طنجرة ألمنيوم سرقتها من مطبخنا ومعها ستّ بيضات، وقال لي إنّه استأجرها لثلاث ساعات وأغلق باب كهفه، لم يقل لي ماذا أعطاها إلاّ أنّه قال إنّها ستعود، وإنّ عَوّاد في تلك الليلة أدخلها إلى خيمته وانقضّ على فخذيها بعصا الرمان الليّن، أشبعها ضربًا وحذَّرها من دخول المنازل المغلقة، وأن تخفّف من الفضيحة وإلاّ فإنّه سيذبحها إن اغتصبها أحد. لم تعد وضحة إلى كهف أحمد الذي لم ينتظر بعدما سمع، ولم يركض وراءها في الأزقّة وعلى البيادر، كلّ الذكورة احتفلت حيث أقامت مهرجانات لذّتها، وكثر الهمس بين الرجال العجائز وصرخات المراهقين المتحمِّسين الذين لم يتركوا المخيّم ينعم بليله، حاصروه واستوطنوا في البرِّيَّة الشرقيّة يتبادلون التبغ وانتظار وضحة وسماع أخبار أبي الهايم الذي حذّرهُمْ من أيّ تحرّش بسكّان المخيّم هؤلاء الذين بدأوا يحتاطون، حاملين شكواهم في اليوم التالي للآباء والأمّهات اللواتي تنهمر الكلمات من أفواههنّ سريعة جاهزة على

القرباط، وعلى يومهم، وعلى من أتى بهم إلى هذه الديار. قالوا قرباط أوّل غير قرباط هالأيّام. أمّي كانت أشدّ المهاجمات، مذكّرة بأنّه إن جرى لخالي شيء فستقلب الأرض على رؤوسهم. خالي بقي كما كان، ازداد تفجّرًا واندفاعًا، أعيته الحواجز والكلام المختبئ في قفصه الصدري، طارت يماماته البيض ناصعةً كثلجٍ بِكْرٍ حين دخل إلى تلك الخيمة التي يقبع على بابها الكتّاني المنسوج بعناية جرس كبير يُنبئ عن القادم. برودة منعشة هبَّت من زوايا الخيمة وأوقفته نشمة على العتبة حين هبّت من فوق أريكتها ومدَّت يداً نظيفة، رقيقة، تقاوم القشب وتُحَزّزُ الجلد، مكتنزة قليلاً، قالت له أهلاً أبا الهايم، أهلاً وسهلاً. ارتبك قليلاً، هذا الصوت يعرفه، باهتزازاته المثيرة وغلمته، قال لها الحمد للّه على السلامة، أهلاً نشمة. كأنّه يريد أن يردِّد أبياتًا من الشعر باستعراض مسرحي إلاّ أنّه ارتبك، ولاحظت نشمة ذلك فدعته إلى الجلوس وأمرت عَوّاد بإغلاق باب الخيمة بعد خروجه، خالي تفحّص المكان الذي قدم إليه عاريًا، مكشوفًا، أرائك نظيفة وطنافس واطئة، بساط من شعر الماعز، عطرٌ يعبق برائحته وهدوء شديد لا يقطعه سوى صخب بعض الأولاد حرّاس الحمير المهيَّأة للمذبحة، وأصوات بعض القرباطيّات العائدات أواخر المساء وهنّ يلملمن شتات إفرازاتهنّ ويقتسمنَ الغنائم: في الزاوية اليمنى للخيمة ستارة مثلّثة من المخمل، خمّن خالي أنّها لتغيير ثيابها التي زهت بألوانها، نظيفة، ضيِّقة تبرز فتنتها، وبدت عيناها أكثر اتّساعًا ونعاسًا، قال لنفسه بأنّها ملكة، أميرة، أكثر ممّا حلم، وأنّه سيبني لها برجًا بسبعة طوابق، يزحف على أدراجه كي يصل إلى غرفتها العالية ويأتي بإناء الفضّة كي تغسل

قدميها بماء الورد، وأنّه انتظر طويلاً ولن يترك هذه الفتنة تفوته، وقال لها تبدين كملكة حقيقيّة، محاولاً كسر حدّة الارتباك والصمت الذي غدا حاجزاً كتيماً وهو يتأمَّل النهدين المكوّرين النابقين من فتحة فستانها الأصفر كصرخة تشقّ سكون الحجارة. قالت ضاحكةً، مستعرضةً، متمهّلةً في نهوضها وتغيير جلستها إنّ الملكات بعيدات وما هي سوى قرباطيّة لا تؤخِّر ولا تقدّم وتكسب رزقها بعرق جبينها. ضحك من عبارة عرق جبينها. ثم تابعت بأنَّها لا تحبّ العروش ولا تستطيع إلاّ الانفلات في المكان. أحسّت نشمة بأنّ حوارها ثقيل، وتحسّبَتْ حين رأته يقترب منها ليجلس قريبًا منها، رأت الشهوة التي اندفعت من حدقتيه، شرايينه تنبض ويده تتمدَّد باتّجاه صدرها المُشْمِس، أدركت رغبته المفضوحة وفَرّتْ كطيرٍ فاجأته الفخاخ، وقالت بضحكة مستهترة زمان أوّلْ تحوّلْ. وقال بعد أن انتبه إلى يده المعلّقة في الهواء إنّه أبو الهايم وإنّه يعرف أنّ زمان أوّل تحوَّل وإنّه يحبّها وهي تعرف ذلك وهي تحبّه. عندها قاطعته مؤكِّدة على أنَّه غالٍ عندها لكنَّها الآن حجّيّة وستكبر وتصير حجّيّة كبيرة وأنّها مصمّمة.

بدا صوته مخنوقًا، ضعيفًا، كأنّه خارجٌ من بئر عميقة ومهجورة وهو يخبرها أنّه ينتظرها من الصيف إلى الصيف، وطوال الشتاء يحنّ إليها ويبحث عن مصابيحهم، وأنّه يريد أن يتزوّجها ليبني لها برج الطوابق السبعة ليريحها. قالت له إنّها لا تحبّ غير شغلها ولا تريد الزواج وإنّها كلّ يوم بديرة، وكانت تستمتع بكلمة بحبّك حين تخرج من شفتيه وفي داخلها إحساس بالمكابرة يتعالى وهو كمن يستجدي، أصابعه المرتجفة مبعثرة على ركبته، وبدت له تقاطيع وجهها أكثر جدِّيَّة

كأنّها كبرت قرنًا كاملاً خلال العام الماضي. لم تعد لعوبًا وتحسّ بأهمِّيَّة استثنائيّة ليديها، لصوتها، لصدرها، لوجهها؛ وشاهدُ التميُّز خيمتها المُعَدّة كمصيدة بعد أن قرَّرت ووافقوا أن تصبح حجّيّة، ثم قالوا فنّانة، وعَوّاد بصعوبة وافق بعد أن استدعاهما شيخ القرباط، سمع صوتها وشاهد رقصها وهمس بأذن عَوّاد أنَّها منجم ذهب وسيصبح لها شأن كبير. ارتبكت في البداية وهي ترافق الحَجّيّات في حفلاتهنّ وتتعلَّم الطريق إلى الرجال ومتى تغلق بوّاباتها. أبو الهايم ينظر إلى وجهها المسكون ألقًا ويعودان للتحدُّث بكلامٍ لا روابطَ بينه: عن عملها، عن زبائنها، عن أحلامها وهو صامت أو يحدِّثها عن حبِّه، عن رغبته، عن انتظاره، عن خيبته، هي الملكة على هذه البزّاقات، متربِّعة على عرشها تنتظر الرجال المجهولين والليالي الزاخرة بالرقص والغناء والأموال المتدفِّقة من كلّ جانب، وتدندن بأغانٍ حفظتها ثم تفلت ضاحكة وترجوه أن يأتي دومًا ومع نايه كما كانا يفعلان في الأصياف الماضية، هو يدندن على ثقوب نايه وهي تسترسل بالغناء لفترة قصيرة بانسجام وحميميّة، ولا تمانع أن يَمُدّ يده إلى فخذها ويقرصها في غفلةٍ عن الحاضرين أو يقبِّلها في فمها حين يكونان وحيدين ويدسّ بين ثدييها يده المغلقة على أوراق نقديَّة كانت نشمة تتشمّم روائحها العطرة وتقول إنَّها تحبّه أيضًا وإنّه شهم وكريم.

خرج أبو الهايم من خيمة نشمة، ولم يُرَحِّبْ بدعوة عَوّاد إلى القهوة، ولم يسمع سخرية الملك المخلوع وهو يأمر قنافذه أن تنظر إلى أبي الهايم وتتذكّر هذا الوجه. عاد إلى منزله عبر دروب يعرفها، خابًّا على التراب يجرجر قدميه ويستمع إلى وقعهما على الأرض فينبعث

صوت مكتوم. فتح صدره لنسيم غربي يبشّر بليل رطب. كانت الأصوات ونيران المواقد وروائح البرغل تتصاعد من المخيّم الذي بدا بعيداً جدًّا أو طيفًا لا يراه. تحاشى ما صادف من عنّابيّين وأوغل بعيداً في الصمت وقال لنفسه سيدور العالم وراءها وإنَّها سكنته إلى الأبد. جدّتي حزنت حين أخبرتها أنّ خالي عزف على الناي ليلة أمس وشاهدته يبكي، سألت جدّتي: ولكن لماذا كان يبكي أبو الهايم؟ رفعت رأسها عن البساط قليلاً وراقبت حركات يدي الخائفة وأنا أشرح لها أن عزف الناي كان جميلاً جعلني أنام ولا أنتبه إلاّ وأنا ممدَّد على طرّاحة قرب فراش خالي المستيقظ الذي لم ينم، وهو جالس في فراشه، يشرب قهوته ويدخّن قائلاً لي إنّ أمّي أتت في الليل وسألت عنّي، وإنّه لم يتركها تأخذني وأنا نائم، لكنّها حملت فانوسها واصطحبت خالتي معها وتشاورتا في أمر أخيهما، قالتا كلاماً كثيراً عن الفضيحة وعن عمره وعن نشمة القحبة، وعن عظام جدّي التي ستزعل وعن عنّاب الذي لا يرضى لأحفاده هذه البهدلة، وعادتا آخر الليل متابعتين ثرثرتهما والتشاور. أمّي بكت وخالتي ورأيت جدّتي كأنّها تعرف، رأيت حزنها طافياً على تجاعيدها، وأنا أقول لها إنّ خالي إن لم يتزوّج نشمة فسيقتلها ويقطّع جسدها ويرميه للكلاب. أقرب الساكنين إلى بيته سمعوا صياح الديك وصوت الناي، الناي نفسه إلاّ أنّ النشيد كان حزينًا متعاليًا ثم منخفضًا كأنّه يصرخ بصوت مجروح، والقرباط تساءلوا عن آخر أطياف هذا الشجو البعيد القادم مع الريح، وعرفوا فيما بعد أنّه أبو الهايم، وبدأت أتذكّر أنّي رأيت نشمة تحلّقُ فوق شجرة الزعرور بثوب زعفراني وأكمام بيضاء، وقال لي أحمد إنّه كان ساهراً

على باب كهفه يدخّن طوال الليل وهو يتأمّل النجوم والسماء السوداء، كلّ شيء أسود ولا خلاص.

الكتاب الفرنسي نفسه مفتوحٌ أمامه وعلى الطاولة تناثرت أوراقٌ مكتوبةٌ عليها ترجمات لمفردات تتعلّق بعلم التحنيط، وأحمد يشرح لي أنّه أتَمّ قراءته بالفرنسيّة وأنّه أهمّ ما كُتِب في علم التحنيط، وأضاف أنّه سيعلّمني الفرنسيّة إذا أردتُ، ثم عاد إلى تمدُّده على الأريكة متأمّلاً آخر الوجوه المرسومة على القماش الأبيض الذي لوّنَه بالأسود، وكانت الوجوه تجحظ كأنّها مشانق زُرْقٌ تتدلّى من السماء وتقترب رويداً رويداً من الوجوه والرقاب، لا تصل المشانق، والوجوه تبتهل كأنّها تريد الصعود، في الخارج رأيت كلّ شيء أسود. أحدّق في الظلام فلا أرى شيئًا. هادي العنّابي مقرفصٌ في الزاوية يراقب الغرباء، يقول لي بأنّه أضاع خرائطه، لذلك يجب إعادة رسمها ويأمرني أن أخطّ في الهواء دربًا، فأخطّ دربًا ثم يقول اكتب س١، ويتابع أنّ وراء الدرب هناك تلّة ووراء التلّة سبع تلال ويقول لي اكتب ع١، أرسم خطًا من رأس ع١ متعامداً مع س١، وسَمّ النقطة المركزية ب م، يجب الوصول إلى م، تعبتْ أصابعي من الكتابة. قلتُ له إنّ المكان الذي حفرنا فيه المرّة السابقة هو المناسب، القافلة لا تستريح إلاّ قريبًا من الماء. من هنا كان يجري نهر صغير يصبّ في نهر عفرين ويذهب ليصبّ في البحر، يضحك ويقول لي: البحر ضيفي، والرسائل المدسوسة في الزجاجات الفارغة كنت ألتقطها من على الشاطئ، أقول له: الوقت تأخّر، هيّا نتابع التنقيب، يقول مرّة أخرى تعال نُعِد رسم جميع الخرائط ونحدّد الأمكنة.

نسير في الظلام إليه ويقول لي ارسم دربًا، شجرة، امرأة، بئرًا، فأرسم. ويقول لي احسب الأبعاد، فأضيع وأتوه وأرى الملك المخلوع وهو يقترب منَّا، ويُخبرنا عن الأبعاد، يتابع هادي العنّابي قرفصته ومراقبةَ الغرباء وكأنَّه يعرف الملك المخلوع فلا يحتجّ على فضح الأسرار التي أقسمت على حفظها، ويُلاحظ ارتباكي فيطمئنني بأنّ الملك المخلوع عنّابيّ، ونحن الذين أوصلناه كي يغدو ملكًا ولكنّ دماءه أبت إلاّ أن يصبح مخلوعًا. يتابع هادي وأنا أرسم في الهواء الخرائط، والخطوط البيانيّة مُسَمِّيًا نقاط العلام. الملك المخلوع يقرفص بجانبه ويراقبان الغرباء. أتركهما وأدخل أرض الحوش الواسع، عائشة تشير إليّ أنّ جدّتي تريدني. على باب غرفتها أرى أناسًا مُتحلّقين حولها وكأنّها أكثر شبابًا وهي تروي الحكاية. عنّابيّون متمدِّدون، ويدخِّنون، وأطفال صغار من حولها. أدخل وأبدأ بتدوين الحكاية في الهواء. عائشة كانت أكثر قلقًا وأكثر صمتًا، وأكثر حذرًا من الجميع، دومًا تُحادث زليخة أو تُطرطش صدرها بالماء وتفوح رائحتها وأسمع صوتها ببُحّة جنس عتيقة وهي تقول: آح. ذهبت سرًّا إلى خيمة نشمة ولا أدري كيف اجتازت كلّ هذه الحواجز، تحجّجت بأنّها تريد أن تشتري كحلاً خاصًّا، رَافَقَتْها في زيارتها ثلاث بنات أخريات وزليخة. نشمة أغلقت باب غرفتها بعد دخولهنّ وتعالت ضحكاتهنّ. ابتسم عَوّاد والملك المخلوع بدأ يقرأ الأشعار، أمّي قالت لعائشة بألاّ تُكَرّرْ ذهابها وإلاّ..، كان التهديد واضحًا، عائشة تذرَّعت أنّها ذهبت لإقناع نشمة بالابتعاد عن خالنا، لكنّ الأمّ لم تصدِّق وسكتت، فرحت عائشة لأنّ نشمة قالت إنّها تحبّ أبا الهايم وتعشق أصابعه التي تدوزن الناي، عائشة زارت نشمة مرّة

أخرى وتعالت أصواتهما وهما تتحدّثان عن موضوع غامض، كانت عائشة غاضبة جدًّا ونشمة مرتبكة وخائفة أوّلاً ثم تعالى زعيقها.

خرجت غاضبة ونشمة لم تستقبل أحداً لأكثر من ثلاث ساعات ولم تُكَلّمْ أحداً. عائشة بدتْ مهمومة، صدرها المتفتّح بصراخه كأنّه يريد تمزيق الثوب، قالت لي زليخة إنّ عائشة في الليل تخلع كلّ ملابسها وتنام عارية، وإنّ زليخة لا تعرف متى خلعت عائشة ملابسها إلاّ أنّها في الصباح تضبطها عارية ونهدها متدلٍّ بدفءٍ، تحسَّسته زليخة برؤوس أصابعها وضحكت حين قفز كالراصور، وعائشة تأوَّهت لمرّةٍ واحدةٍ وقلبت على جنبها الآخر تاركة ظهرها العاري أسمر، مشدوداً. إنّها تحبّ أن تتقلّب في الفراش وتقذف بيدها في الهواء كأنّها تحتضن شيئًا ما، زليخة تراقبها وتجلس جانب فراشها حتى تستيقظ بشعرٍ مُشَعّث وشفتين رخوتين، نهداها الدافئان يتأرجحان. تلاحظ زليخة فتضحك ثم تأمرها أن تناولها ثيابها، تبدو زليخة قلقة من عُرْيِها المتكرِّر ولم تعرف تفسيراً للأمر، وما إذا كان هذا العري طبيعيًّا وأنّها ستمارسه حين تصل إلى سنّها، وتذكَّرت أنّ فاطمة لم تكن تتعرَّى وإن كانت أحيانًا تُعَرّي جزءها الأسفل وتترك أزرار ثوبها العلويّة مفتوحة فتستطيع رؤية ملتقى النهدين فقط، هذا المجرى المظلم، هذا الارتفاع المثير. زليخة سألتها: لماذا تتعرِّين؟ قالت حين تكبرين ستفهمين لماذا، سكتت زليخة ولم تعدْ تناقش الأمر.

سئمت الصيف، سئمت هذا الصيف، أقلقني تحوّل خالي وبصره الزائغ غير المستقرّ على أيّ رُكْنٍ حين أحدِّثه، كأنّ أطيافًا لامرئيَّة تمرّ أمام عينيه في استعراض عسكريّ وهو يتابعها ويخاطبها دون أن يفهم مَنْ

حَوْلَهُ ماذا يقول. أمّي بدت أكثر قلقًا حين بدأت ساعات إقامته في خيمة نشمة تطول وتمتدّ أحيانًا ليوم بأكمله دون أن يعود إلى منزله، قالت له إنّ البرّيَّة الشرقيّة ستحمل له الموت والفضيحة، وساكنوها جانٌّ يلعبون بالبشر ونشمة ابنة شياطين وعليه أن يتّقي اللّه ويعود إلى نفسه ويتزوَّج من أيّة عنّابيّة يختارها ويطوي صفحات عمره الخائب. وتضيف أمّي أنّه لا توجد امرأة بحجم هذه البهدلة. خالي، كأنَّه لا يسمع، يأمرني أن آتي بكؤوس الشاي، يزداد نحولاً وشفافيّة وشرودًا وغالبًا ما يعجز عن متابعة الحديث إلى آخره فينصت لصوته الداخليّ كالأنبياء المترفِّعين عن سخافات الحياة اليوميّة. كنت أبتهج حين أراه يشفّ ويزداد أناقة وأرى في عينيه ذلك الظلّ الحزين، وأنا أحبّ هذا التصميم وهذا الترفُّع عن مجاراة العنّابيَّة وهذا الجري وراء الأوهام. كان يبدو لي سيِّد الوهم وهو يزداد شفافية ويتركني محتارًا، أجري إلى قلاع القرباط وأرضهم المستباحة للشوك والمدّيْدة كأنّ قوى خفيَّة تجذبني إلى تلك الأسمال التي لا تعرف الثبات. كلّ شيء موقّت هنا، المكان والزمان وهؤلاء البشر الذين ينثرون وراءهم دروب الوهم والفلتان من التَشَبّث بأيّ شيء، كثيرًا ما رأيت نشمةَ متصدِّرةً خيمتها وسط برودة منعشة في محيط لاهب، وخالي قريب منها يفرد ناياته، يُشَبّعُ القصبَ بالماء وينفخ لتنطلق أسراب حمائم في سماءٍ لاجدرانَ تطالها، وعيناه تتوسَّلان صفحة وجهها المشعّ بسحر أخضر منفلت، يحوم في الفضاء، يحلّق ولا يعود إلى الأرض. أنظر إلى نشمة غير مصدّق أنّ تحوُّلات امرأة كانت الذكورة تنتظرها لتعبث بمؤخّرتها وتقهقه من اللّذّة المفترضة، امرأة غاصت في كلّ المزابل ودخلتْ كلّ الخرابات تُتَوّجُ الآن ملكةً

وتُحيل رجولة أبي الهايم إلى صديدٍ، وفِتْنَتَهُ إلى روحٍ هائمةٍ كطيورِ الليل التي تتحسَّس الهواء والحواجز، معطّلةً محاولات اصطيادها بسرعة فرارها حين تشمّ بمسامّاتها رائحة المصيدة، ملكة تجعل الملك المخلوع ينشد الأشعار غير المترابطة حين يتعالى صوت الناي من داخل الخيمة، وفيما بعد تأمره أن يأتيها بالماء كي تغسل يديها. الملك المخلوع كان يشير لي بالاقتراب منه، يقدِّم لي برأس الملعقة قطعة من القنفذ المطهوّ، أُشيحُ بوجهي فيضحك ويقول لي اجلس ويضيف بأنّ أبي كان رجلاً شهمًا وقويًّا وجدّتي هي أغلى ما في هذه الأرض من كنوز، وجدّنا عنّاب هو أصل المنطقة وحافظ كراماتها وأسرارها، وأنّ خالي عنّابي أصيل ويعشق نشمة، يقولها بتهكُّم أو بحزن لا أدري. وإنَّه سيصل أخيراً إليها ويطلب منّا ألاّ نقلق عليه، فالعشق مغارة مظلمة لا تعرف متى تدخلها ولا متى ستخرج منها. يعجبني التشبيه وأسأله أين ترك الحرّاس والعذارى الذين كانوا يرافقونه، يهزّ برأسه كأنّ حرّاسه ما زالوا يحيطون به ملكًا مُتَوَّجًا، مُهَابًا، يقفُ على بوّابة قصره وبيده الصولجان، أفتّش في خيام القرباط عن الروح الضائعة كأنّني أريد أن أستتر وأدخل كهف أحمد الجمل كالعاصفة أسأله لماذا لايرتاح هؤلاء القرباط؟ يضحك أحمد ويقول لي لأنَّهم يحبّون اللّون الأزرق، لا أفهم ماذا يقصد ولا يترك لي مجالاً للاستفسار أكثر، يعود فيغرق بكتابة أشياء على أوراق أمامه. أرى الكلمات متناثرة على بياضها ولا أدري متى راكم كلّ هذه المسودّات ولا ماذا يريد منها. جدّتي قالت إنّ عينيّ تُشْبِهان عينيْ عنّاب الكبير وجبهتي تُشْبِه جدّي الرابع سويلم وهذا شيء لا يتكرَّر كثيراً، وإنّها حين شاهدت تلك الجبهة، رفعتني على

يديها ورقصت. قطعت لي حبل السرّة وانزلقت على قدميّ أوّلاً تاركًا رأسي لآخر لحظة في ظلام الرحم اللذيذ. أراها الآن كأنّها غائبة عن الوعي، مُحَدِّقَةً في الفراغ وسط غرفتها الطينيَّة كأنَّها تُحَادِثُ روح عنّاب الهائمة في أرجاء الغرفة. أمّي بكت وقبّلت يد جدّتي ورجتها أن ترى أمور خالي، قالت أمّي إنَّه مثل ولدها تمامًا فاعترفت جدّتي بأنّه ولدها وغالٍ على قلبها ومدلَّل، وسألت أمّي أن تنسى الموضوع فهو لا يُخطئ، إن كان مكتوبًا عليه كلّ هذا الحبّ فسيحتمله ويعود كما عاد غيره وأنّه سيعقل. أمّي قبّلت يدها ثم رجلها التي سحبتها فوراً غاضبة من أمّي ومتضامنة مع دموعها الحارّة التي اندفعت حين سمعت أنّ أبا الهايم هو العازف وحامي نشمة في حفلاتها وأعراسها. حسين البهاري قال إنّه شاهده معها في عرس الغزّاويّة منذ ثلاثة أيّام، وما رواه كان أشبه بالحقيقة الأخيرة أن نشمة ضيّعت أبا الهايم وأنّه فقد الكثير من رجولته وعنّابيَّته ونسي الوصايا. كلّ شيء يتسلَّل خفية من مخيّم القرباط، رائحة المؤامرات وأجساد نسائهم، الأخبار والسير والحكايا، لتصبح علانية في بيوت العنّابيّة، يساهم الجميع بتكوين هذا النسيج، يكفي أن تُلْقي بذرّة واحدة في هذه الأرض لتُنْتِشَ في اليوم التالي حكاية طويلة يُساهم الضجر في الإكثار من تفاصيلها وتكرارها. خالي لا يصحّح ولا ينفي ولا يؤكِّد، يكتفي بهزّ رأسه وإطلاق دخان سيجارته محاولاً تغيير الحديث عن المواسم المقبلة وأسعار الجلبان والبامياء في البازار.

العنّابيّون يثرثرون، يمدُّون أرجلهم على البساط ويثرثرون وخالي غائب، وأنا أركض إلى خيام القرباط، أدوس على الشوك وأسأل الملك

المخلوع عن ذلك النور الذي يتساقط، فيقول إنّه نيزكٌ تفتّت ويُريد أن يُبَلّغنا رسالة. الملك المخلوع يفرم التبغ على حجر ولا يلتفت إليّ، النيزك يتفتَّت، وأنا أجول في هذا المكان المغلق، واهب اللّذّة والمحرّض على الرحيل الدائم، أبحث عن أغصان شجرة الزعرور الوحيدة، تزكم أنفي روائح جلود الحمير المذبوحة المعلَّقة على الأغصان، ينعكس عليها ضوء القمر فيبهجني المشهد وأستمتع بهذا التشكيل متناسيًا الرائحة. تهبط عليّ الروح الضائعة، تهزّ جسدي، تهزّني، تختلط مع روحي، تطرد العذاب والقلق. رأيت الملك المخلوع مع هادي العنّابيّ المقرفص على كرسيّ يراقب الغرباء وينتظرني كي نعيد رسم الخرائط. القلق، القلق يلفحني هواؤه، أسمع أصواتًا غريبة من خيمة نشمة. قال لي الملك المخلوع إذا أردت الدخول فتدثّر. في الداخل برد شديد. بماذا أتدثّر، أريد أن أخلع حذائي وقمصاني التي تثير غيرة أولاد العنّابيَّة، أسأل الملك المخلوع مَنْ بالداخل فيقول دون تلكّؤ: سلالتك. ويُتابع فرم التبغ، أرفع الستارة التي اتّخذت شكل باب وأدخل، أخلع حذائي، أريد أن أبقى حافيًا، ألامس متعة البسط الممدودة.. نشمة في صدر الخيمة متربّعة على كرسيّ عالٍ كأنّه عرش، على يمينها خالي وعلى يسارها ثلاث بنات. أرى وضحة وأعرفها، أغمزها فتغمزني، وضحة مُمْسكة بالدفّ وخالي بالناي، رأسه مُطْرِق بالأرض ونشمة تُحادثه بكلمات غير مفهومة أو بعيدة لم أسمع منها شيئًا، على جوانب الخيمة اصطفّت طرّاحات عالية تبعثر عليها ثلاثة رجال بمكلابيّات نظيفة وخواتم ذهبيّة وفضّيّة في الأصابع، يتثاءب الرجال ويتكلّمون فيما بينهم بكلام متقطِّع ثم يُوَزّعون السجائر على بعضهم البعض. أدخل مع الروح

الضائعة، أبعثر يدي على الأرائك وأتغلغل في النسيج، لا أريد لأحد أن يراني أو يسمع صوت ارتطام الهواء برئتيّ. تتوقّف سيّارة أخرى بجانب التي رأيتها متوقّفة بعيدة قليلاً عن الخيام، وبعد دقائق يدخل ثلاثة رجال آخرين، وامرأة تلبس عباءة من الحرير الأسود، روائح عطر غريب تنتشر في الجوّ، الرجال يُهَلِّلون للقادمين وأبو الهايم يرفع بصره قليلاً عن الأرض. يدخل ثلاثة رجال أحدهم يقرص نشمة في ثديها فتتغنَّج وتدَّعي أنَّها تزوره، تزرّر حاجبيها وتقول له مش هيك بلهجة مدنيَّة، الرجل الثاني يُلبسها خاتمًا ذهبيًّا ويرمي بالعلبة الأنيقة في الهواء بحركة استعراضيّة. يُسلّم على خالي الذي لم يرحّب إنّما نظر إلى نشمة كالمتعلّق برجاء خائب.

الرجل الثالث جلس قريبًا من الباب، ثم أتى ثلاثة رجال آخرون دخلوا صاخبين، هاتفين، وفاحت من أفواههم روائح خمر ضجّ بها المكان. الرجال ضحكوا مع الضاحكين وأحدهم حمل نشمة في الهواء وقذفها على الأرض ثم مدّ يده إلى خدّ وضحة التي ضحكت فبانت أسنانها الذهبيَّة، وسمعتها تتفتَّح وتغمز له. الليل وكلّ شيء صامت، خالي رفع نايه إلى فمه وبدأ يعزف، قلت للروح الهائمة هل هذا هو خالي، هل هذه أصابعه، هل هذه روحه المتصاعدة في المكان؟ موسيقى رديئة كان ناي خالي يتحشرج بها والرجال يهزّون رؤوسهم دون داعٍ، ويُثنون على الموسيقى. رافقته وضحة على الدفّ وارتفع صوت نشمة بالغناء، قالت لي الروح الهائمة إنّها سكنت خالي منذ زمن بعيد وأخفت روحه، في أحجار البيت وفي جذوع الأشجار وفي خدوش المزار. وَزّعْنَا روحه، قالت لي الروح الهائمة، أرض القرباط الرجراجة،

المنفلتة، المتراخية تُمْسِكُ بأقدامي تتركني حافيًا ولا ألحظ ذلك إلاّ وأنا على باب كهف أحمد الجمل الذي تمدَّد على أريكته يقرأ في كتاب فرنسي جديد، ظننت أنَّه شعر، نهض حين رآني مُشَعّثَ الشعر وقلت له بأنّ الروح الضائعة ترافقني، فقال لي: أجلسها، أجلسها على حجر، وأضاف هل تشرب شايًا؟ لم أمانع، سكب لي من إبريق جاهز كأسًا وقَدّمه لي ثم نهض. قال للروح الضائعة إنّه تعب قليلاً، فقالت إنَّها هكذا تتكوَّن كما تريد، تناول الريشة وانتشرت الألوان أمامه، أحمد يرسم والروح الضائعة تتجَلّى رويداً رويداً على القماش وتضحك هازئة من أحمد الذي يحاول أن يُمسك بشيء يفلت منه على اللوحة، وأرى حركة يده العصبيَّة في ملاحقة مزج الألوان، الأزرق مع البرتقالي وخطّ على صدر القماش الأبيض، الروح الضائعة تنزل عن الحجر وترحل، تتسرَّب عبر الباب المفتوح، تقول لي قبل أن ترحل: تعرف أين تجدني، أحمد ينظر إلى الحجر فيرى الفراغ، يظلّ يرسم، يقهقه ويواصل الرسم، يهدأ قليلاً ويبدأ بالرسم هادئًا، كأنَّه أصبح معلّمًا. اختفت أخطاء البدايات ورأيت أصابعه تتحرَّك على اللوحة كأنَّها تعزف، ثم قال: هل تعرف لون السماء؟ أجبته: لا أعرف، قال: انظر، نظرت، كانت السماء برتقاليّة مثقلة بلون غامض خليط من الأزرق والبرتقالي، قلت له: هذه ليست سماء، بل وجه. قال: السماء هي وجهنا، وتابع دون أن يكلِّمني. شربت الشاي وجال بصري في الكهف، الكهف الذي أصبح منزلاً وأكَّد أنَّه سيهدمه قبل رحيله وأضاف أنَّه يمارس لعبة سخيفة مع نفسه حين يبني هذا الكهف ويدعم دعائم وجوده. قال لي إنّ أباه حاول إقناع القرباط بشراء المرمر والقرباط أجابوه أنَّهم لايحبّون القبور

المرمريّة وأنّهم إذا احتاجوا هذا المرمر فسيسرقونه ولكنّهم يخافون منّي. أبي أقنعهم أنّ المرمر ثروة وكلّ ذرّة منه بمثقال ذهب، وتابع أنّ أباه كلّ يوم يقف على باب الكهف يرفع يديه ويبتهل للّه أن يقرف عمره كي يُشفي غليله. أحمد يضحك حين يرى أباه هكذا فقيراً مرّة أخرى، مشرشحًا وغير مُصَدّق، بل ومذهولاً حتى الآن ويبكي أحيانًا على بدريّة، ويعترف أنّه ظَلَمَها وظَلَم أمّها وشَرّد إخوتها، يبكي ويقول لو تعودي يا بدريّة وعلامات الإهمال تبدّت في ذقنه التي بدأت بالاستطالة وعينيه القلقتين، الشاردتين ووجهه المتعب. أحمد يترك اللوحة، يجلس إلى جانبي، يراني متمدّداً مكانه على الأريكة ويقول إنّه سيرسم اللّه ووجه عنّاب، كأنَّ الغياب عن أحمد قد تَقمّصني وما زلت أجول على البساط في خيمة نشمة حافي القدمين، وأرى الرجال يدورون حول نشمة التي نهضت كي ترقص على صوت الدفّ، ناثرين ما في جيوبهم من أوراق نقديّة تلتقطها البنت الجالسة قرب وضحة، كأنّي أراهم يرحلون منتشين يمدّون أياديهم إلى جسم نشمة اللدن، كأنّي أرى الرجل الذي جلس قرب الباب قد تهيّأ للرحيل، هَبّ واقفًا واقترب من نشمة التي وَدّعتهم جميعًا وأعلنت أنّها غداً ستكون في عرس، ولقاؤهم الخميس المقبل. الرجال غادروا، مَرّوا على الملك المخلوع الذي يدخّن في صفاء هذا الليل، داعبوه وقال أحدهم: هل أنت حارس فَرْج نشمة؟ الملك المخلوع ردّ عليهم بصوت غاضب: نعم أنا حارس فروج أمّهاتكم وأخواتكم. ضحك الرجال، ركبوا سيّاراتهم ورحلوا. نشمة تعدّ النقود، تفتّش البنات الأربع، تمدّ يدها إلى ثياب جامعة النقود وتخرج قطعتين من فئة الخمسين وتحذّرها أن تفعل ذلك مرّة

أخرى، تفتّش وضحة التي أعلنت أنّ ما في جيبها بخشيش، تركتهنّ وأوصتهنّ أن يذهبن للنوم. نشمة وأبو الهايم في خيمة وحيدان، تخبرني الروح الضائعة المبحلقة أنّه طلب منها كي تكفّ عن تعذيبه وتترك هؤلاء السفلة، نشمة ردَّت منزعجة: هذا عمل وهم ليسوا سافلين، هؤلاء متعهّدون ومسؤولون لهم كلمة في الدولة. يسألها: وما حاجتك للدولة وأنت دولة؟ تضحك، وتصمت، يصمت ويجلس قربها، لا تُمانع باقترابه منها، يضع رأسه على كتفها، تداعب شعره قليلاً وتسحب يدها ثم تطلب منه الرحيل قبل أن ينتشر ضوء الصبح ويفضحها، يمسك بيدها ولا تمانع، يهبط إلى الأرض ويمسك بقدمها، يداعب الأصابع، يُقَبِّلُها، يقبّل باطن الرجل ويصعد بشفاهه المحروقة، وصوت أنين ينبعث من خلاياه، تسترخي بعد تعب، تغمض عينيها كأنّها تحلم، يصعد بشفاهه إلى ساقها، يقبّل كلّ خلية، كلّ مسامّاتها بهدوء رجل خسر كلّ شيء. ينظر إلى النهدين الشامخين، إلى الملتقى الذي يهزّ أوصاله وهو يرى أيدي الرجال تدحش النقود في مجراهما، يهيم بالساق فيرفع طرف التنّورة البنفسجيَّة النظيفة ويوغل أكثر، يصل إلى الركبة فتدفعه يدها ولكن برفق يستشفّ منه الرضا، يعيد الكَرّة، ويصعد إلى الفخذ، هناك كأنَّه حطّ رحاله، يزداد الأنين، يتصاعد، وشفاهه تُوقظ الحياة في المسامّات الخاملة المخدّرة. نشمة تسترخي قليلاً وتعيد دفعه، يزداد اندفاعًا ويحتضن حوضها موغلاً في بكاء انفجر فجأة وهو يهيج بفمه، بأعصابه، بيديه. يشدّها إليه ويأكل الفَرْجَ المزوّد بكواتم وموانع لا تخلعها إلاّ عندما ترغب أن يتساقط جسدها قطعة قطعة وتذوب هي غائبة وكأنّه يصلّي، لم تجرحه الأقفال، جرحته طراوة

الموسلين واللحم العاري ويد نشمة التي كأنّها استيقظت فجأة، قبَّلته في شفتيه، طويلاً، أخذت شفته السفلى بين شفتيها، أوغلت كثيراً في المصّ برغبة جموحة وقالت له إنّهم سيقتلونها إن عرفوا أنّها تحبّه وتقبّله بكلّ هذا الشبق والرغبة، تركته وابتعدت عنه راجية إيّاه أن يرحل إن كان يحبّها فالصبح فضّاح وعوّاد لا يترك شاردة ولا واردة إلاّ ويُوصلها إلى الشيخ الكبير الذي لا يتوانى إن خرجت عن حدود مهنتها بذبحها وتعليق رأسها كي يغدو جمجمة فارغة. افعلي ما شئت إلاّ أن تلوّثي روحنا وتسفحي شرفنا، سيكون لك زوج يحميك تختارينه بملء إرادتك وستهجرين حياة الغرابيل. قال لها الشيخ وهو يتأمَّل صدرها الناهض ويرى ارتباكها أمامه. القرباط لا يرتبكون إلاّ في تلك الخيمة المزدانة بالأسرار والمهابة. ينهض أبو الهايم كأنَّه يستعدّ للخروج قبل أن يداهمهما الصبح، تحذّره نشمة بأنّهم مستعدُّون لقتله إن علموا شيئًا، وذبحه في بيته من الوريد إلى الوريد. يخرج أبو الهايم ونشمة تستلقي على فراشها المُعَدّ في الزاوية، الصّبْحُ كأنَّه سيتقدَّم عاصفًا، الملك المخلوع يقول له إنَّه لم يعد يعزف كما كان، وأنغامه في السهرة كانت غير لائقة به. أبو الهايم لا يردّ إنّما يُشيح بيده فيفهم الملك المخلوع ويقول له إنّ أمّ مسعود لا بدّ تسأل عنه، يوصيه إن زارها أن يُسَلّمَ عليها ويبوس رأسها ويقول لها إنّه استلم ما أرسلته. أبو الهايم كأنّه لا يسمع، برودة أيلول توقظ مسامّاته، يصل إلى بيته ويخرج من حقيبته التنكيّة نايًا قديمًا ملفوفًا بمناديل حريريّة بيضاء مُطَرّز عليها اسم صبحة، أختي فاطمة كانت قد طَرّزته بمخرزها حين رأت أنّه لا يستطيع نسيان صبحة، والناي أهداه إيّاه راعٍ مرّ على بيته في ليلة شتائيّة قارسة ونام

عنده، أخبره الراعي أنّه صاحب والده الذي كان رجلاً طيِّبًا وشهمًا وقويًّا وأنّه ما زال يذكر أخته ذكيّة حين كانت صبيّة. الرجل ترك له نايه ورحل مع أغنامه في الصباح باتّجاه الشرق واستحلفه أن يأتي لزيارته في رأس العين. قال الراعي إنّ عمر الناي أكثر من ثلاثين سنة وهو يهديه له إكرامًا لذكرى صاحبه القديم. العنّابيّة لم تسمع شيئًا إلاّ أنّ نشمة تقلّبت في فراشها وعصرت نهديها، فكّت واقيات سروالها وبحثت عن طعم قبلاته على متانة النسيج الشفّاف وفي المسامّات، وأيقنت أنّها تحبّه، تغلّب عليها، وأنّها كبرت وكأنّها لم تعد قرباطيّة، سمعت تلك العذوبة التي داهمتها، والملك المخلوع كأنّ الروح عادت له بعد أن فهم تمامًا ماذا يعني كلّ هذا، وأحسّ بالخطر يُحيط بكلّ هذا الهواء وبقنافذه وبتلك الخيام التي تراءت في ضوء الصبح علامات أبديّة على الضياع في جغرافية تفرّ ولا تقف.

البرِّيَّة الشرقيَّة تنهض دفعة واحدة. مع الضوء ينهض القرباط، يتركون دفء فرشهم، ويعركون عيونهم بأيديهم، عَوّاد فقط يغسل وجهه، ويحتسي قهوته، ويبدأ حديثًا مع الملك المخلوع. ينتشر القرباط، والعنّابيّة بيوت تفتح أبوابها للصبح فينهض العنّابيّون، رائحة الشاي تتصاعد مع بخاره فتنتعش الصباحات وأجساد الرجال الذين يلفّون سجائرهم ويدخِّنون قبل أن يصطحبوا بغالهم ومحاريثهم إلى الأراضي التي اقترب أوان زراعتها، أو يتوجَّهون إلى آخر ما تبقّى من بيادرهم ومحاصيلهم لتصفية الحسابات. القشّ على البيادر، التبن وأكياس الشعير والجلبان والعدس الأحمر. كلّ شيء يجعل من الصباح النديّ طقسًا مبكرًا. برودةٌ ونحنحةُ بغالٍ على دروب تتبادل التحيّات بنشاط.

أنا لا أستيقظ مبكّرًا لكنّني أسمع صوت أبي في أرض الحوش وهو يصرخ على عائشة كي تنهض لتسقي البغلين وتُحضر فطورَ جدّتها، فتنهض بتثاقلٍ ناعسةً، تلبس ثيابها. أخبرتني زليخة أنّ عائشة أدمنت النوم عارية، أسمع وقع خطواتها على الدرج نازلة، وطرطشة الماء وهي تغسل وجهها وأمّي تؤنّبها بعصبيَّة لتأخُّرها في النوم وتصفها بالبليدة. عائشة أصبحت أقلّ كلامًا، ما عادت صاخبة، ضاحكة، وملتهبة. وضحة رغم كلّ محاولاتها لم تستطع إقناعها والبنات الأخريات بصحبتها، أَتَتْ بكحلٍ وكريمات وإيشاربات ملوَّنة وفيما بعد بقمصان نوم شفّافة وطلبت أسعاراً زهيدة، قالت إنّها تُبادلها بأيّ شيء، لكنَّها لم تسمح لها بالصعود إلى الغرفة العلويّة ولم تسمح لها بفرد كيس بضائعها إلاّ على عتبة الحوش معلنة عدم رغبتها في شراء أيّ شيء منها. قالت إنّ جدّتي لم تعد تأكل كما كانت تفعل، ومنذ عشرة أيّام لم تفطر، تترك صحن البيض المقلي وكأس الحليب دون أن تلمسهما وتأمرها بأن تُعيدهما غير مُصغيةٍ إلى رجائها أن تأكل حتى ولو لقمة واحدة، وتابعت بأنّ جدّتي في الليلة الماضية لم تنم، فراشها ما زال ممدوداً كما كان وشراشفه لم تُمسّ، أمّي استفسرت عن أحوالها وحاولت أن تفهم ما حصل. بالأمس رأيت حيرتها بعد أن استيقظتُ متأخِّرًا كعادتي ونزلتُ إلى أرض الحوش، أمّي قلقة، تريد أن تحكي، أن تفعل شيئًا ما، تدور في أرجاء الحوش، تفتح باب الإصطبل وترى أبي المنشغل بقدم البغل البنّي والمنهمك فيما بعد بثلاث سلاحف صغيرة وتحضير العلف لعشاء البغال، تتمتم بكلمات، ينظر إليها ويعود إلى غرباله وسلاحفه، وتلك الرائحة العذبة التي يحبّها حين تبدأ البغال

بخفض رؤوسها نحو المعلف الحجريّ ملتهمة التبن المهزوز والشعير، ثم تعطس بعد ذلك، كأنّ رائحة الحوش تُنذرني بشيء ما لا أستطيع تحديده، أمّي تدور في أرجائها كأنّها تبحث عن شيء ما. تأتي نسوة أعرف بعضهنّ والأخريات أناديهنّ بخالتي، تأتي عمّتاي ثم تدخلان إلى غرفة جدّتي، تقبّلان يديها وتتحدّثان مع أمّي على انفراد وترحلان، ما زال المصران يتدلّى والحجاب غطّاه الغبار تماماً، أراه معلّقًا على قوس باب الحوش وأبي يدخل وينام دون أن يأبه لأيّ شيء، أخرج من هذه الفناءات الغامضة. أختي زليخة لا تدري ماذا تفعل فتجلس على درج الغرفة العالي وتحدّق في الخدوش منتظرة عودة عائشة. أخرج من الباب المُعَدّ لخروج الأموات وتلكّؤ البغال على فوضى رصفه، أضيع في العنّابيّة. النهار في العنّابيّة مصيبة، سأم ووقت ممطوط، أرى القرباطيّات وهن يُفاصلن في الأسعار وتعلو أصواتهنّ دون داع، بعضهنّ يجلسن ومن حولهنّ العنّابيّات المستفسرات عن نشمة وأبي الهايم وعَوّاد والملك المخلوع وأسعار صحون البلاستيك والألمنيوم والكحل، متشعّبات بالحديث عن أشياء غامضة لا أسمعها. وضحة لا تتلكّأ، تدور كملكة النحل وأرى مَخْطَتَها وصدرها الرخو، أتابع طريقي إلى خارج العنّابيّة، حيث كلّ شيء مُعَدّ لأزيز الزيز في الظهيرات القائظة، ألمح بيت خالي المتطرّف في كلّ شيء، أشعر بمرح خفيّ وأنا أدخله وأرى خالي كأنّه ناهض للتوّ من نومه، يحلق ذقنه وهو يطلب منّي أن أعدّ الشاي، وفيما بعد يقول بمرح إنّه اشتاق لسلمان وإنّي كبرت. رأيت عينيه الحزينتين المنكسرتين ونظرة التحدّي التي تنبثق منهما، قال إنّه سيزوّجني إن أردت، ضحكت وطلبت منه أن يُزَوّجَ حاله أولاً. شربنا الشاي ونحن

نضحك، إحساس بالسعادة ينتابني وأُخْبِرُه أنّ أحمد الجمل سيرسم اللّه سلمان يُكْثِرُ من مبيته في تركيا، يضحك ويقول إنّ المرأة التركيّة استبدَّت به. وأضاف إنّه اشتاق إلى أختي فاطمة فهي تفهم عليه وسيزورها إن لم تأت بعد الزرع. في بيت خالي صندوقان، أحدهما صغير لناياته ومزاميره، والآخر لملابسه الأنيقة، وصندوق صغير مغلق بقفل، ألمحه في قعر الصندوق الكبير لا أعرف ما بداخله وأرى حرصه عليه، لم أسأله أو أحاول التطاول كي أرى ما بداخله وهو يفتحه، ثم يعيد إغلاقه ويرجعه إلى زاوية الصندوق الكبير. خالي شرب الشاي ثم حضر زوج خالتي فشرب الشاي أيضًا وقال إنّ سلمان أتى في الليل متأخِّرًا ومعه بضاعة كثيرة أخفاها في مكان بعيد عن أعين الناس، وإنّه ضرب زوجته في الليل، وزوج خالتي استعاذ باللّه وقال إنّ سلمان يسمع كلمة خالي فرجاه أن يُكَلّمَهُ في الليل ويقنعه كي لا يعود لضربها. يأتيه رجال لا يُشاهد أحد في العنّابيّة أشكالهم، يمرّون بسيّارة ويتفاهمون مع سلمان بسرعة فيصحبهم إلى مكان البضاعة، يسلّمهم ويستلم النقود. أرى في عينيه نشوة انتصار ورجولة مبكِّرة، سبقنا بها جميعًا، يأتي لخالي بأشياء سرِّيَّة يخفيها عن أعيننا، ويرجوه أن يذهب معه إلى استانبول، ويغريه بأنّه سيصطحبه إلى karakoy.

يتلمّظ سلمان وهو يصف أشكال نهود النساء وبطونهنّ وفروجهنّ المتروكة هكذا للهواء في karakoy، ويُفَصّل لخالي الأسعار، ثم يحدِّثنا فيما بعد عن صاحبته التركيّة التي يقول إنَّه سيتزوَّجها ويصطحبها معه. يقول إنَّ كلمة جانم التي تهمس بها في أذنه قبل تلمّظها صيوان أذنه بلسانها تجعله يشتعل. يضحك سلمان ويقول

الدوريّات زادت من حصصها والشغل ما عاد مُربِحًا كما كان وإنَّه يفكِّر بالذهاب أبعد من تركيا.

في العنّابيّة لا تستوطن إلاّ أسرار خيانة الزوجات، كلّ شيء مفضوح، متروك هكذا للعراء، للقيظ، ومفتوح على أكثر من احتمال. لا يستطيع أحد فهم التسلسل المنطقي لأيّ حدث ولا يستطيع أحد لملمة أجزاء حكاية واحدة. كلّ شيء مُتَداخِل، القرابات والأحاسيس والمواقف. عَرَض عليّ خالي الذهاب معه لزيارة عَوّاد، قلت له يجب أن أعود إلى الحوش وأخبرته أنّ جدّتي لم تنم ولم تفطر، أحسّ بانقباض، قال إنّه سيأتي لزيارتنا عصراً، تركني ومضى. برودة خفيفة وقيظ لم ينسحب بعد. كنت أرى من بعيد خيام القرباط وأحنّ إلى أسنان الذهب التي يعلّقونها بمهارة في أفواه العنّابيّين الذين يتباهون بها، ويجرّبون لمعانها تحت أشعّة الشمس، تدخل الكمّاشات إلى الأفواه بينما نحن نعلّق أبصارنا باللّون الأصفر الذي يبدأ باللمعان وإعادة تشكيل مشهد الأسنان والفم. أريد الرحيل عن هذه الأنفاس، تاركًا ورائي كلّ شيء، أوغل أكثر في تدوين الحكاية التي لا تُدَوّن، تفرّ الكلمات من بين يدي وكأنّي سئمت من كلّ شيء وما عاد العمر جديراً بتضييعه هكذا، وأتذكّر أنَّ أحمد الجمل سيرسم وجه اللّه، وجدّتي التي تكتب الرسائل بلغة لا أعرفها وتضعها في زجاجات فارغة لتبعث بها إلى البحر، تُوغِلُ أكثرَ في العمر ولا تُغلق باب بيتها، كأنّي أريد الفرار منها، من أبي الذي لا أعرف لماذا لم يعد رجلاً ناجحًا في تجارته وفي تمزيق سراويل أمّي، وأثوابها الداخليَّة والتربّع في صدر الغرفة بين الضيوف كسيّد حقيقي. كأنّ الذكرى ترعبني حين كانت عفرين

تبدو لي خلاصاً في أوّل مرّة وطئتها، فرحت بألوانها، بنهرها وضفافه، بمنظر الشرطة وهم يتجوّلون والناس تتحاشاهم، وفيما بعد حين أنهضني معلّم الرياضة وقال لي: لماذا أنت غير حزبي؟ صمتّ، خرست لا أعرف ماذا سأقول، لم أتكلّم، قال لي هل أنت أخرس؟ لم أتكلّم وعلمت فيما بعد أنّ المعلّم حزبي وأنّه يرفع صوته على المدير وهو من الحزب نفسه، ويدلّل أبناء مدير المنطقة الذي جمع أهالي عفرين وقال لهم إنّهم كلاب وسيؤدّبهم وسيرمي بهم إلى السجون ليموتوا كالحشرات إذا عصوا الحكومة ولم يحتفلوا باحتفالاتها. أهالي عفرين تبادلوا النظرات، همهموا قليلاً وتفرّقوا وتحدّثوا بلغتهم الكرديّة عبارات مقتضبة ولم يأتوا في اليوم التالي إلى ساحة السراي مكان الاحتفال. المعلّم قال لنا إنّه إذا لم يسمع المسؤولين في حلب صراخنا فإنّه سيحاسبنا، وكنّا نحن لا نعرف، لماذا كلّ هذا الضجيج. خرجنا في طوابير وانحدرنا من باب الثانويّة باتّجاه ساحة البازار الفارغة، ثم باتّجاه ساحة السراي، وقفنا بصفوفنا، كما قال لنا المعلّم وكانت الصفوف الأخرى بجانبنا تتململ، وتحاول استراق النظر إلى طوابير بنات الثانويّة والمعلّمات الغريبات، اللواتي لا يروين ذكورتنا المتفتّحة مبكّراً. خرج مدير المنطقة إلى شرفة السراي ورأينا نجومه اللامعة وبزّته الأنيقة ومعه رجال قالوا لنا إنّهم مسؤولون أتوا من العاصمة. قال المعلّم ارفعوا اللافتات فرفعناها، اهتفوا فلم نعرف بماذا، قال متوعّداً سنرى غداً في المدرسة وقال إنّنا أبناء قحبة. ثم خرج طالب من بيننا وهتف لمجد الحكومة فهتفنا وراءه، بصوت خجول أوّلاً ثم تعالى زعيقنا، سررنا بهذا السباق مستمتعين بأصوات فتيات الثانويّة، مدير المنطقة تكلّم وصفّقنا ثم هتفنا.

تكلّم رجل بدين قالوا إنّه مسؤول من العاصمة فصفّقنا وهتفنا، ثم ألقى قصيدة قالوا عنها عصماء فصفّقنا وهتفنا ثم هتفنا، وهتفنا، واستغربنا ألاّ يخرج المعلّم إلى المنصّة كي يختم الحفل بكلمة طويلة، وعرفنا أنّه فقط حزبي، واستغربنا لماذا يهدِّدنا ويستعرض عضلاته أمامنا ونحن محشورون في المقاعد كالأرانب، خائفين، مذعورين، غير قادرين على تحريك أصابعنا. في اليوم التالي استدعانا المعلّم إلى غرفة الرياضة، كنّا أكثر ممّا نظنّ وقال: تكلَّموا. قلنا: عن ماذا؟ قال، إذن أصواتكم ليست مبحوحة وانهال على أصابعنا بالعصيّ، وقال عدّوا، عددنا وبكينا، ضربنا وبكينا، ووسم أخواتنا بالقحبات وقال أنا أعرفكم، أكراد شيوعيّون. لم نفهم ماذا يعني بأكراد وشيوعيّين، وقلت له بأنّني لست كرديًّا ولست شيوعيًّا وأنا من الطلاّب الشاطرين بشهادة أساتذتي فصرخ بي اخرس، فخرست واتّهمنا جميعًا بمعاداة الدولة وقال إنّه سيكسرنا ويرمينا خارج المدرسة، ومع أنّنا هتفنا، هتفنا حتى بحّت أصواتنا، والمعلّم يستعرضنا أمامه ويتكلَّم كقائد محكمة عسكريّة مُكَلّف بإعدام فصيل خائن، كنّا نتبادل النظرات ولا نعرف ماذا سنقول، وقال إن لم نُظهر ولاءنا للحكومة فنحن خونة. المعلّم كان يُحاسب الآذنَ والأساتذةَ الآخرين والطلاّبَ واللّهَ وآباءنا وأمّهاتنا، والأنهارَ والبحارَ والجبالَ وأشجارَ الزيتون التي تُزَنّرُ عفرين كإسوارة ذهبيَّة، كنت أفرح حين أرى صفوفها المنتظمة وأشمّ أريج زهرها أوائل الربيع. عدت للعنّابيّة وأخبرت خالي وطلبت منه أن يذهب معي ليكسر فكّ المعلم ويُفهمه أنّه وَغْدٌ. طمأنني وسكت ولم يحضر كما كنت أظنّ، وكما قلت لرفاقي في الصفّ الذين انتظروا رؤية فكّ الأستاذ مكسوراً كي يهتفوا من أعماقهم، وكنت

أتخيَّل خالي بطلاً نهتف له، وعمّي هلال الذي قالت جدّتي إنّه بطل من أبطال الاستقلال سيفرح في قبره حين أصبح أنا بطلاً أيضاً. واستولت عليّ صورة فكّ الأستاذ المخلوع. أبناء مدير المنطقة الأنيقين أخذوا جوائز وضحكنا نحن، لم نعرف أنّهم يوزّعون جوائز على الكسالى، كذلك ابن رئيس المفرزة كما نسمّي ذلك المبنى الأصفر الكالح المحمي ببرّاكات خشبيّة وبنادق ورجال شرسين. في الاحتفال السنويّ لتوزيع الجلاءات طلب المعلّم أن نقسم الدرجة الأولى على أبناء مدير المنطقة. أنا بكيت في الصفوف ورفضت الصعود لاستلام جائزة الدرجة الثالثة فأتى المدير وأشار نحوي كي أقترب، فاقتربت، سلّمني جلائي وبطاقة تحسين ولم يسمع حين قلت له إنّي أبارز هؤلاء الأغبياء أمام كلّ المدرسة بالجغرافيا والتاريخ والقراءة والجبر والهندسة وحتى بالجري. المعلّم أشار لي كي أبتعد إلى الصفوف الخلفيَّة وقال بأنّ العام الدراسي انتهى وكلّ عام ونحن بخير. عدنا من عفرين إلى العنّابيّة، سرت على أقدامي مع أولاد العنّابيّة، رأينا وجهنا في صفحة النهر من فوق الجسر وقذفنا الماء بالحصى، شتمنا المعلّم، وحين اقتربنا من العنّابيّة انتابني البكاء وتذكَّرت أنّي لست الأوّل في صفّي، كأنّ دموعي ما زال ملحها تحت لساني إلى الآن وكأنّ الذاكرة لا تريد أن تُسعفني وتُريحني قليلاً. وعند أعتاب جدّتي أمّ مسعود بكيت بينما ضحكت ثم قبّلتني، عائشة وفاطمة وزليخة اجتمعن حولي وقلن إنّي سأصبح دكتوراً وقلت لهنّ إنّي سأترك المدرسة وآخذ سلمان معي لنكسر فكّ معلّم الرياضة.

طعم الحموضة لا يفارقني، ما زالت تحت أسناني، ولساني كأنّه أُصيب بالعفن، خالي من بعيد يسابق أكثر من ظلّ له، ويدخل مدينة

القرباط غير المرئيّة، عواميد الخيام ترمي ظلالها على الأرض، وتُغلّفه الأبخرة المتصاعدة من طناجر ضخمة، رائحة البرغل واختلاط الأقدام المهيَّأة دومًا للرحيل. لماذا يغيب خالي في النشوة وهو يوغل أكثر في اللامرئي؟ الصدور المفتوحة، النهود المتدلِّية وحرّيّة العبث بالزمن والمكان. يغيب في نشوة الحرّيّة عبر ثياب الموسلين والغرابيل والحمير، الملك المخلوع يرحِّب به ويدعوه إلى الأرائك ويمارس الكسل ورغباته المفضوحة، يُخرج فضيحته ويرميها على مفترق الطريق، يحملها طفل قرباطي ويرمي بها في إحدى الطناجر فتتبخّر، ويحسّ خالي بنفسه خفيفًا، سعيداً، مرحًا، تأتيه نشمة بثيابها النظيفة وتقول له خذني، فيأخذها على مرأى من الفضيحة التي غطّتهما ثم تبخَّرت وهطلت في أرض أخرى. ياللروعة، خالي يدخل في اللامرئي، يعبث بمفاتيح الثبات وينطلق أكثر بهاءً. أراقب المشهد من بعيد وأصرخ حين تتحرَّك القافلة: خذوني معكم، زنّروني بالموسلين والغرابيل وبهجة الفضيحة. العنّابيّة أمامي فضاء مفتوح على ثرثرة مكرورة تنتظر المطر وأخبار جدّتي وتبحث عن كلمات الحكاية. حين دخلت أرض الحوش سمعت أصوات ضحكات تنبعث من غرفة أبي، لم أعرف صاحبها ولم آبه كثيراً، قالت أمّي: اصعد وسلّم على ابن عمّك. سألتها: من ابن عمّي؟ أجابت: الأستاذ أحمد هلال، أمّي في أرض الحوش متوجِّسة كأنّها تبحث عن شيء مفقود، أمسكت بديكين وصاحت عليّ كي أذبحهما، قلت لها أنا لا أستطع رؤية الدم، وتابعتُ طريقي إلى غرفة أبي، كان الجميع متحلِّقين حول الأستاذ أحمد هلال الذي عرفته من نظافة ثيابه وذقنه الحليقة. اقتربتُ من الجالسين وسلّمتُ عليه، نهض

حين قالت عائشة إنّي أخوها وابن عمّه، قبّلني ورَحّب بي ثم أفسح لي مكانًا قربه كي أجلس. كان أبي على يمينه وجلست بينه وبين رجلٍ لا أعرفه قال أحمد هلال إنّه سكرتيره الخاصّ، ومرّة أخرى قال إنّه سائقه، ومرّة ثالثة إنّه صديقه. حين أتى العنّابيّون للسلام عليه مساء امتلأت غرفة أبي بالزوّار، عائشة وزليخة كانتا هناك، عائشة تُحَدّث أحمد هلال عن أخبار العنّابيّة التي لا يعرفها أو التي لم يسمع أيّ شيء عنها منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة، فهو لم يأت خلالها إلى العنّابيّة، وزليخة أطرقت رأسها خجلاً حين مازحها وغمز لها أنّه سيزوّجها. أبي لم يأبه كثيراً بهذا الضجيج أو بحركات أمّي المرتبكة، المرحّبة، الودودة، وكأنّه لم يسمع كلماتها التي تتذكّر بها هلال أبو أحمد الذي رأته حين كانت صغيرة. تصف جهامته وبريق عينيه وضحكه العالي الرنين الذي يُفرقع في أرض الحوش حين يعود من سفره، ثم تتذكّر أمّ أحمد وتترحّم على الاثنين. أبي بقي صامتًا وتمتم أنّ البغل ما زال مريضًا وجرحه ينزّ قيحًا أصفر، والعمليَّة التي أجراها له لم تُنْهِ آلامه وتُعيده مرّة أخرى إلى قوّته حين كان يخبّ في الدروب ويجرّ المحراث لوحده، ثم أضاف أنّه سيضع له على جرحه صفيّة تنّور، وسيعيد تنظيف جرحه وإلاّ فإنّه سيصطحبه إلى البازار يوم الأربعاء ليعرضه على طبيب بيطري. فهم أحمد هلال أنّ عمّه لا يستمع إلى حديثه ولا يأبه كثيراً لهذا القدوم وإن كان لايتكلّم، فقط ينظر إلى نهدي عائشة التي أدركت ذلك فأمعنت في الدلال ورفع يديها كي يستوي النهد مشدوداً والحلمة تكاد تصرخ، ثم تهزّ مؤخّرتها حين تنهض كي تجلب شيئًا وتتابع الحديث مع ابن عمٍّ لا تعرفه، تسمع باسمه مقرونًا بأخبار متناقضة

يجمع بينهما أنّه غدا رجلاً مهمًّا في العاصمة، وهو متورّط بجملة من الفضائح التي لا تنتهي. قال لعائشة إنَّه أحضر ثلاث حقائب، واحدة لعائلتنا وواحدة لجدّتي التي قالت لأمّي إنّها أغلقت بابها ولا تستطيع إزعاجها الآن كي يذهب ويقبِّل رأسها ثم يديها ويطلب رضاها، كما أبدى رغبته منذ اللحظة الأولى لوصوله. والحقيبة الثالثة لعمّتي والمقرَّبين من العنّابيّين. وطلب من عائشة الاهتمام بأمر توزيعها، عائشة حملت الحقيبة المهداة لنا وصعدت بها إلى غرفتها ثم لحقت بها زليخة. وابن عمّي يمدِّد رجليه ويضحك دون أيّ سبب، ثم يتكلَّم مع أبي ويقول له إنَّه كبر وإنَّه يشاهد دومًا أبناء عمّي في العاصمة، لكنّ أبي لا يأبه فيحدِّثه عن السلاحف وموسم الجلبان ثم يعود إلى سيرة البغل الذي ينزّ قيحًا. أحمد هلال قال بأنِّي أشبه جدّتي وأنّه سعيد أن يراني رجلاً. سألته عن أعماله التي قال إنّها متنوّعة من التجارة والسمسرة إلى الاستثمار، ولم يُفْصِح عن التفاصيل التي قال إنَّني سأعرفها حين أزوره في العاصمة، وإنّه يعتمد عليّ كثيراً فيما سَيُقْدِمُ عليه ولم أفهم على ماذا سيقدم. لاحظت ثيابه النظيفة وتشمّمت رائحة عطره التي أذهلت أختي عائشة وأسرتها، وقالت فيما بعد إنّها ما زالت تعبق في الغرفة ولا تغادر أنفها، مبالغة في وصف جمال مُرافِقه وتهذيبه الذي يصل حدّ الأنوثة، ومهارته في قيادة السيّارة حين ذهبنا جميعًا في مشوار إلى الجبل القريب عبر الدروب الترابيّة، وأنا أجلس قرب الشبّاك في المقعد الخلفي فرحًا بملمس المخمل النظيف والجوّ الغريب للسيّارة السوداء التي لم أسمع صوت محرِّكها يئزّ في أذنيّ كسيّارة العنّابيّة حين أنحشر في مقاعدها ذاهبًا إلى عفرين صباح السبت، أيّام كان معلّم الرياضة يقول

إنّي لا أحبّ الحكومة، ويُهَدّدُ بإبادة ذرّيّتي إذا لم أهتف في الاحتفالات المقبلة. بجانبي جلست زليخة ثم عائشة التي كانت تطفح من وجهها إشراقة وهي تختلس النظر إلى المرآة فتلتقي عيناها بعيني السائق الضاحكتين. قال أحمد هلال إنّه سيذهب لتقبيل يد جدّتي ريثما يحين موعد الغداء، ذهبت معه كي أبلغها خبر قدومه. كنت فرحاً بهذا الابن عمّ الذي عاد وأيقنت أنّه يستطيع كسر فكّ معلّم الرياضة ودوسه بحذائه الأسود اللامع الذي قدّرت أنّني أستطيع أن أتمرأى به إن أردت. عائشة استرخت أكثر وتمادت في الحديث مع المُرافِق الذي أخبرها أنّ المدينة كبيرة والحياة معقَّدة والناس لا يعرفون بعضهم البعض، فأكَّدت أنّها تريد زيارة المدينة والزواج فيها كما فعلت فاطمة التي تخبرها عن بيروت أعاجيب تجعل من عائشة امرأة صغيرة حالمة بالأسرّة الواسعة والأضواء الخافتة آخر الليل، ورائحة العطور المصفوفة بعناية إلى جانب علب الكريم في واجهات المحلاّت، وأشكال الألبسة الداخليَّة الشفّافة التي أُغْرِمَتْ بها إلى درجة الافتتان حين رأت فاطمة ترتديها وتتبختر بها بعد عودتها من حلب، يوم ذهبت لتجهيز أغراض عرسها. عائشة كانت تغصّ في الكلام ولا ترفع نظرها عن فتحة صدر المُرافِق وترى صدره الناعم ثم تنحدر إلى بطنه ثم إلى ما تحت بطنه فترى شكلاً لعضو نائم أو مستيقظ بخجل، فترسم أبعاده وتفتح كفّها كأنّها ستقترب من ملامسته، بينما ابن عمّي يتأبّط ذراعي ونحن نقطع أرض الحوش إلى غرفة جدّتي التي رأيتها مغلقة. قرعت الباب وانتظرت الصوت الذي تأخَّر، دفعتُ الباب الذي سمعت صريره ودخلتُ العتبة، كانت جالسة، مُتربِّعة، مُطرقة برأسها نحو الأرض، رفعته قليلاً حين

دخل أحمد هلال، خلع حذاءه وانهال على يدي ورأس جدّتي تقبيلاً، ورأيت دموعه كأنّها ستفرّ وصوته مخنوق وهو يقول إنّه مشتاق لمباركتها. جدّتي نظرت إليّ ولم أفهم ماذا تعني بنظرتها تلك التي لم أرها من قبل. ارتبكتُ، أنقذتني حين طلبت أن أناولها المسبحة من على الحائط، المسبحة الطويلة التي تفوح برائحة عطر قريب من رائحة الجوز لا تستعملها إلاّ قليلاً، في الأيّام التي أرى القلق يستبدّ بها فلا تستطيع النوم أو حين تعود من زيارة المزار غاضبة. أحمد هلال ثرثر الكثير من الأشياء بعد أن هدأ اختناق صوته وعاد ثابتًا متهدّجًا كأنّه يُطالب بحقوقه المهدورة، قال إنّه يعرف أنّها غاضبة عليه ولكنّه يطمع في كرمها وسعة صدرها، وأنّه طوال اثنتي عشرة سنة هي تاريخ غيابه عن آخر زيارةٍ للعنّابيّة يتذكّرها كلّ يوم صباحًا ويدعو اللّه أن يحفظها، وأنّه تبرّع أكثر من مرّة للجوامع والجمعيّات وأحرق لها النذور في التكايا وفي مزارات الأولياء، ونَذَرَ لها حجّة إن وَفّقَهُ اللّه في مشروعه القادم. أحمد هلال يتكلّم وأنا غائب عن التقاط الأصوات كأنّي أُصِبْتُ بالطَرَشِ، نظرة جدّتي كأنّها تطالبني بالبقاء إلاّ أنّي كنت أرى شفاهه تتحرّك كأنّها تتوسّل أو تشرح أمرًا غامضًا بينما شفاهها تتحرّك ببطء وتقول كلمات قليلة ولكن غاضبة. لم أرَ جدّتي غاضبة هكذا. بعيداً عن عالم الأصوات مُتَلَبّسًا خيبة جدّتي التي بدت كبيرة وهي ترفع يدها مشيرة بِسَبّابتها لأحمد الذي يبحث عن الكلمات، يفتّش عن الأعذار. حين خرجنا كان وجهه أزرق وباب جدّتي مفتوحًا تصل أصداء المُحْتَفِين به في المساء إلى غرفتها، وأنا حائر بهذا المشهد، ابن عمّي خارج كأنّه مطرود، في المساء قال أمام العنّابيّين إنّ جدّتي راضية عنه وهذه غايته.

ما زال الصَّمَم الذي أصابني يُحيّرني وأنا أبحث عن رغبة جدّتي كي أغدو شاهداً أصمَّ يرى حركات الشفاه ويُخَمِّنَ تراتب الأحداث ويقترب من انفلات المشهد الذي كان أحمد الجمل يُلَوِّنه. قال لي ابن عمّي عبارة عن كلب وقملة بكلاّبات كبيرة وإنّ جدّتي لن تُسامحه. العنّابيّون الذين تثاءبوا كثيراً وقالوا الجفاف كلّ سنة يزداد والأرض لم تعد تَغِلّ وتذكَّروا عمّي هلال كثيراً، ترحَّموا عليه وأبدوا استعدادهم لأن يُصَوّتوا لأحمد هلال إن كان مُرَشّحًا في انتخابات البرلمان وأنّهم سيحثّون القرى الأخرى على التصويت له وهم سيفتخرون به إن نجح وأصبح رجلاً قويًّا في العاصمة، وأنّ جدّتي لا بدّ أن تكون فخورة بطموحه الذي لا يُحدّ ورغبته في الوصول إلى أعلى المراتب. أمّي تثاءبت ونعست بينما كان شخير أبي يتعالى ورجلاه المشقّقتان تبرزان من تحت اللحاف دومًا، مُذَكّرًا الجميع بانتهاء السهرة، وإعادة تقبيل أحمد هلال والسلام على مُرافقه الذي ما زال يُراقب عائشة وهي تدور في أرجاء الغرفة باحثةً عن شيءٍ ما. قالت أمّي إنّ جدّتي لم تأكل من الطعام الذي جهّزَتْهُ لابن عمّي، وأنّها رفضت الصعود للسهر مع الجميع. أمّي اندهشَتْ وتوجّست شرًّا من أن يكون كلّ الكلام الذي قيل عن ابن عمّي صادقًا بأنّه رجلٌ مشبوهٌ وغير أخلاقي، وأنّه لم يحفظ وصايا عنّاب ولا روح أمّه الطاهرة وشهامة عمّي هلال وتفانيه في سبيل الاستقلال، وقالت إنّ الغرفة مُعَدَّة للنوم الذي أبدى ابن عمّي رغبة كبيرة فيه لغسل التعب كما قال، شاكرًا أمّي لهذا الاستقبال الحارّ الذي أشْعَرَهُ أنّه مرّة أخرى بين أهله، وأخواته وإخوته، وسلالته التي ما زال يفتخر بها أينما ذهب، وسمعتُ صوته وهو يتمتم بكلمات لم

تصل إليّ مع مُرافِقه بعد أن أغلقا الباب وراءهما، ثم سمعتُ صوت سعاله ورأيتُ الضوء ينطفئ، ويعمّ السكون، عائشة آخر المنسحبات إلى فراشها، أراها ذابلة آخر الليل كأنّها مخذولة وعصبيّة قليلاً وهي تغلق باب الغرفة وراءها، جلست في فراشها والعتمة تلفّها، ثم عرّت نهديها ورَمَتْ بكاملِ ثيابها، تقلّبَتْ في فراشها طويلاً قبل النوم، وفيما بعد. في الصباح الثاني نهضت حين علمتْ أن ابن عمّي خرج مع أمّي لزيارة المقبرة وقراءة الفاتحة للأموات وزيارة عمّتي. لبست ثيابها وأبقت جزءها السفلي عاريًا إلاّ من ألبسة شفافة وحملت صينيّة الفطور إلى المُرافِق الذي ما إن دخلت عائشة وتركت الباب وراءها مفتوحًا حتى اعتدل وجلس في الفراش والتمعت عيناه وهو يراها صامتة تتقدّم وتجلس على طرف الفراش قرب الصينيّة. كانت تضحك مُدَارِيَةً خوفًا أو خجلاً أن ترى رجلاً غريبًا في فراش مَرْمِيٍّ هكذا أمام أنوثتها. المُرافِق مدّ يده إلى نهدها، كأنّها ذابتْ أو ماتت من فرط اللّذّة، همس لها أنّه خائف وأنّه سمع أن العنّابيّين يذبحونه ويذبحونها إن شاهدوه يُعَرّي نهدها ويَمُصّه لكنّ عائشة طمأنته بألاّ يخاف وأن يكون حذرًا، يده أخرجت النهد الثاني وأطلقته في الفضاء الأبيض. عينها على الباب وعينها الأخرى على يده وهي تعوي بلذّة في مسامّاتها التي سالت وانفتحت فجأة على مدى فسيح من الحقول الخضراء. فوجئ وهو يراها كأنّها ذابتْ بين يديه ثم وهو يسمع صوتها المنخفض صارخًا: أبوس رجلك ألمسه. شمّرت عن ساقين أسمرين، قويّين، ملفوفين بعناية أدرك المُرافِق حرمانهما وانفتحت أمام ناظريه جنّة ملفوفة بنسيج شفّاف ومثير. المُرافِق تناسى المكان من حوله، امتدّتْ

يده على الفخذ الأسمر وارتفعت إلى أن وصلت إلى فرجها الذي تندّى بالسوائل، وعائشة كأنّها ذابت وانتبهت فجأة إلى المكان، فرأت النوافذ العالية والسقف فهرعت مُسرعة فلتانة من الذكورة المضطجعة على فراش، تركت المُرافِق حائرًا من سرعة نهوضها كأنّها تريد الهرب، هبطت الدرجات القليلة مرتبكة. زليخة كأنّها فهمت كلّ شيء حين رأت خدّي عائشة المتورّدين، ثم وهي تمعن النظر في نهديها الرخوين وحيرتها التي ظلّت تتجوَّل في أرض الحوش حتى نزل المُرافِق مطأطئ الرأس قليلاً وبحياء واضحٍ سأل عن ابن عمّي، قالت له زليخة إنّه سيعود وإن كان يرغب بفنجان من القهوة تستطيع صنعه بيديها. المُرافِق غمغم وعائشة حائرة في أرض الحوش، نظرت إلى زليخة التي صعدت إلى الغرفة لتُعِدّ فنجان القهوة ثم إلى المُرافِق وضحكت عيناها غامزة المُرافِق الذي ابتسم بدوره. حين اقترب منها قال لها: أنت لذيذة ثم قرصها من نهدها، ففرّتْ مبتعدةً إلى غرفة جدّتي تاركة المُرافِق جالسًا على الدرج منتظرًا القهوة.

في أرض الحوش الواسعة كان السأم يجول، أصوات البغال تنبعث من الإصطبل المغلق على أبي الذي قرّرَ إعَادة تضميد قروح البغل بقماش أبيض ناصع أحضره خصّيصًا من بازار عفرين مع علبتي كحول ودواء أحمر وبعض المراهم التي قال إنّ طبيبًا بيطريًّا نصحه باستعمالها. أبي مع البغال والسلاحف الصغيرة التي اعتادت رائحة التبن والقصرين والرؤية في الظلام، ألِفَتْ يد أبي وهي تطبطب على دروعها فما عادت تُخَبِّئ رأسها حين تتشمّم رائحة يديه تقذف بالحشائش الخضراء المنتقاة خصّيصًا مع أوراق الخسّ وجذور النباتات الغضّة.

السأم يجول، يُعَرِّشُ على النوافذ والأبواب، على البوّابة التي ما زال المصران المنسيّ يتدلّى منها مع الحجاب الصغير الغارق تحت الغبار. أمّي نسيت الموضوع وما عادت لتعليق المصارين وكتابة الحِجَابات، واستعاذت باللّه داعيةً الرُسُلَ ورجال الكرامات أن يساعدوها في إعادة أبي رجلاً تفوح من إبطيه الرجولة ويترك دروع سلاحفه، يقذفها إلى المزابل ويعود إلى تجارته التي كانت رابحة، واعتادت ترتيب شؤوننا بعيداً عن استشارته. أصبحتُ رجل البيت الذي كنت أرى من نوافذه الفضاء البعيد وأتشمّم في أحاديثه رائحة الحنان الذي رافقني طوال حياتي. الضجّة سبقت عودة أمّي وابن عمّي من زيارتهما وقالت أمّي إنّهما زارا خالي أبا الهايم الذي رحّبَ ومازح أمّي وإنّه سيتزوَّج عمَّا قريب، وإنّ نشمة مزحة ثقيلة وستنتهي، وقال ابن عمّي بأنّ خالي متورِّط في أمرٍ لا يليق به وإنَّه سيساعده ولن يترك القرباط يلعبون به. ابن عمّي تهامس مع مُرافقه ثم سمعته يتنحنح وهو يدخل إلى غرفة جدّتي، لم يطل الأمر كثيراً كي نعرف أنّها غاضبة عليه ولن تغفر له، لم أعرف ماذا يريد من غفرانها، أيّة ذنوب اقترف، وهو الرجل الأنيق، اللَبِقَ، الغني والقادر على جعل العنّابيّة مركزاً وجَنّةً، كما قال في السهرة الماضية حين اجتمع العنّابيّون في غرفتنا وكان أبي يهزّ رأسه مُوَافقًا. وكنت أرى جدّتي طوال الأيّام الثلاثة التي قضاها في العنّابيّة مُشْمَئِزّةً منه غاضبةً عليه، وهو يتوسَّل لها أن تنسى، وكلّما كنت حاضراً كان يُصيبني الصَمَم فلا أسمع شيئًا، فقط أرى الشفاه تتحرَّك وتتفاهم. جدّتي بيدها المعروقة تُشيح الذباب وتشير له ألاّ يعود إلى العنّابيّة مرَّة أخرى، أرى ارتباكه وهو يودِّع العنّابيِّين الذين توافدوا

لتوديعه، رأيته يضحك وهو يُقَبِّلُ الرجال ويُمازِحهم ويَعِدَهُم بأنَّه سيعود قريبًا وسيزور مسقط رأسه دائمًا. ثم رأيتُ المُرافِق يبتسم لعائشة وهو يأخذ سلّةً مُغَطّاةً أمرتْ أمّي بوضعها في صندوق السيّارة وقالت إنّها هدية بسيطة. ردّدَ ابن عمّي كلمات كثيرة ثم رأيت الغبار يتصاعد خلف سيّارته السوداء التي غابت مسرعةً، مُتَخَطِّيَةً البيوت وخيام القرباط في البرِّيّة الشرقيّة، مبتعدةً عن الروائح التي كنت أراه كأنّه يشمئزّ منها ويُقاوم ألاّ يظهر اشمئزازه. أختي عائشة عادت إلى الحوش عصبيّة قليلاً وقالت لي زليخة فيما بعد إنّها في الليل لم تستطع النوم إلاّ متأخِّرة وعارية، وقد اعترفت لها بأنّ المُرافِق قَبّلها أكثر من مرّة في فمها وقرص نهدها ثم داعبه، وأنّه تحسَّس بأصابعه فرجها الذي كان قد تندَّى بمجرّد ملامسته فتأوهَّت، وتابعت زليخة أن نشمة حين كانت تصعد إلى غرفتنا مع البنات العنّابيّات كُنّ يُغْلِقْنَ الباب ونشمة تُخْرِجُ من صُرّتِها الصغيرة أنواعًا غريبة من الكريمات والروائح العطرة، كما تُخْرِجُ أيضًا دفاتر ملوَّنة ومليئة بصور لرجال عراة تتدلَّى أعضاؤهم، ونساء يُمسكن بتلك الأعضاء ويلعبن بها. كانت نشمة تجلس في صدر الغرفة وتتأكَّد أنَّ الغرفة آمنة والبنات اللواتي كنّ ينتظرن رؤية كلّ هذه العوالم ويتساءلن من أين تأتيهم بكلّ هذه التصاوير الممتعة وهل كانت تعرف مثل هؤلاء الرجال الجميلين أو كانت تتقن قراءة الكلمات الأجنبيّة المكتوبة على الغلاف وتحت كلّ صورة، تَفْرُدُ صُرّتَها الصّغيرة وتبدأ بعرض أنواع الكريمات وتقول إنّ دهن الجسم بها يُثير في الجلد لذّة المضاجعة، وأضافت زليخة أنّ العنّابيات كنّ يتعرّيْنَ واحدة، واحدة، وتبدأ نشمة بدهن أجسادهنّ. العنّابيّات يتعرَّين ويلبسن

ثيابهنّ بسرعة، محتفظات بتلك اللّذّة الخفيفة، خائفات من مداهمة أحدٍ ما الغرفة، إلاّ عائشة التي كانت تَتَفَنّن وهي تسفح الكريم الزهري على جسمها وتدهن به كلّ مسامّ جسدها وتتأوّه قليلاً مثيرةً شبقَ وضحكَ الصبايا الفاجر والمكبوت. كانت تحتفظ بعلب الكريم في صُرّتِها مع ألبسَتِها الداخليّة المُصَانَة والتي أحضرتها فاطمة معها من بيروت، ونشمة تُلَمْلِمُ صُرّتَها ونُقُودَها مقابل ثمن الكريم وترحل بعد جلسة طويلة، تعرض كلّ هذه البضائع الغريبة رافضةً تركَ الدفتر الملوّن عند عائشة، أو إعارته لبقيّة الصبايا لليلة واحدة، رغم أنّ كلّ واحدة كانت تدفع ربع ليرة ثمن الفرجة على الدفتر وليرتين ثمن كلّ علبة من الكريم وربع ليرة من كلّ واحدة عن كلّ أغنية بذيئة تغنّيها نشمة بصوت منخفض، وتتحلّق الرؤوس حولها لتستمع إلى تفنّنها في وصف الرجال وأعضائهم ولحظات الصعود إلى السرير والدخول في أعضاء النساء والخروج منها. ما يُنْبَش في الغرفة يُدفَن فيها فلا تعود واحدة للحديث مرّة أخرى به، منتظرات نشمة التي ما عادت تدخل غرفتنا كي تلحق بها الصبايا. وضحة لم تستطع احتلال مكانها فبقي المكان شاغرًا يبعث السأم في نفوس الصبايا منتظرات الزواج وصوت الطبل المُعْلِن عن انتهاء زمن الكريمات وبداية بهجة البرلون المثير بشفافيّته. القرباط لم يعودوا مُهِمّينَ بالنسبة للصبايا ما دامت نشمة قد اعتزلتْ حَمْلَ السطل والدوران في الأزقّة. الذكور تناسوها واستعاضوا عنها بوضحة التي بَدَتْ مُملّةً لهم بعد فترة قصيرة بجسدها الرخو واضطجاعها على المزابل وفي الخرائب ناظرة إلى ساعتها ومُعْلِنَةً انتهاءَ الوقت، كما بدأت العلاقات تفتر بين العنّابيّين ومخيّم القرباط بعد

عـرس الغزّاويّـة الذي أثارتْ أخبـاره العنّابيّين حيـث فكّروا أن يحطِّمـوا هذه الخيام على رؤوس القرباط ويُعْلنوا بداية القطيعة مُتَحَسّرين على زمن القرباط البهيج، حين كانت كلّ الأشياء مختلفة، لها لون ورائحة لذيذة تزكم أنوفهم فيقبلون أن ينتهي سأمهم وضجرهم ويتلوّنُ صيفهم وبداية خريفهم بهذه الخيام وسِيَر البشر البعيدين، منصتين إلى الحكايات الغريبة ومحدِّقين بالغرابيل والموسلين وأسنان الذهب المشغولة بعناية. القرباط الذين أحسّوا بهذا الفتور بعد عرس الغزّاويّة بدؤوا يُحَدّقون بخيمة نشمة المنتصبة كجزيرة خضراء وسط محيط من العنّابيّين والأبواب المغلقة في وجوههم وتصنيفهم قوماً غير مرغوب بهم في هذه الديار، والملك المخلوع الذي أحسّ بالشرخ والفتور تشاور مع عَوّاد وبقي صامتًا لا يتكلّم مع أحد كما فقد طَبْعَهُ المرح وبدا كأنّه ينتظر شيئًا ما، لم يعد يزوره أحدٌ من العنّابيِّين الذين بدا رجالهم مُتململين، ومُبْتَعدين رويداً رويداً عن أبواب خيمة نشمة وعن سحرها وغموضها وغير مُنْشَدّينَ إلى أسلاكها المغنطة، وانهالت الأسئلة في البدء على وضحة فقالوا لها: ماذا يفعل الرجال مع نشمة حتى الصباح؟ فتطلق قهقهة داعرة حاسدة من شدقها الكبير المتدلِّي كإسفنجة رخوة، وأبو الهايم يا وضحة هل يُشارِكُ الرجال عبثهم وهل تُذلّه وهل نام معها بعد عرس الغزّاويّة وهل سيتزوَّجها؟ تفلت وضحة من الانزلاق في حديث عن أبي الهايم الذي غدت علاقته مع الخيمة الجميلة مثيرة وغامضة وغير قابلة لأيّ توضيح حتى بالنسبة للقرباط أنفسهم الذين استهجنوا تمادي نشمة في علاقتها معه رغم أنّه ما زال يتردَّد إلى الخيمة كأنّه حقّ من حقوقه، متغاضيًا عن اللغط والشائعات التي بدأت

تتفسّخ. لم يتكلّم مطلقًا ولم يزر جدّتي كي لا يرى العتب ولا يشاهد الإحساس بالمصيبة الذي داهم الجميع.

بدت عيناه شاردتين حين كنت أجتاز العتبة داخلاً إلى غرفته، أحدِّق في وجهه فلا أرى البؤبؤ، ترك ساحة الرؤية مفتوحة على ظلام طويل تتخبّطُ فيه وتتعثّرُ قدماه بالصخور الصغيرة المرصوفة، وبدا لي بهيًّا أكثر كأنّه استعاد وجه عنّاب بعدما انطفأت دماملُه. تضامنت الذكورة معه ومنعت النساء من الثرثرة على هواهنّ بسيرته. ابن عبيد صديق خالي حاول إقناعه بالعدول عن هذه المهزلة وهذا الجنون، فيما بعد حين شاهد نشمة كأنَّه يراها للمرّة الأولى وفُوجِئ بالجمال الوحشي والصدر العاري، سكت، صفع زوجته حين أكّدت بنبرة مستهترة أنّ أبا الهايم سيصبح قرباطيًّا مثل هؤلاء القرباط ويعمل معهم في سلخ جلود الحمير وصنع الغرابيل، وأنَّها كانت منذ زمنٍ بعيدٍ تعرف أنّه لا يليق به أن يكون عنّابيًّا. الصفعة كانت إنذاراً أوّليًّا إن كرّرت الحديث فتستطيع ترك أولادها الأربعة والذهاب إلى بيت أهلها.

بقي ابن عبيد مذهولاً بتلك الصورة التي رآها. أبو الهايم على طرّاحة واطئة بجانب نشمة الجالسة، متعالية وكأنّها تريد الطيران، الصورة لم تكتمل، نشمة قلقة، حائرة، مرّة واحدة أرادت أن تقف أمام ذاتها وتخلع كلّ أقراطها، أن تبقى عارية للحظة واحدة، قامة أبي الهايم ترتفع، تقف على الحوافّ كأنّها تحسّ بالامتلاء حين تنظر في عينيه أو حين لا تريد الاعتراف، ونشمة لم تُغَيِّرَ من طقوسها الجديدة شيئًا، فقط ترسم صوراً غير مرئيّة تتقافز أمام عينيها، تحاول مرّة أن تُنْكِرَ، أن تكذّب أحاسيسها بأنّها امرأة باردة، مهجورة، خاوية حين يكون أبو

الهايم بعيداً عنها أو حين يغيب، تمنَّتْ لو أنّها تستطيع الذهاب إلى تلك الغرفة العلويّة غامزةً لعائشة أن تُخلي المكان وتجمع الصبايا، فتُخرج ذلك الدفتر الملوّن ثم الكريمات وبعدها تختلي مع عائشة وتبوح لها بأنّها امرأة ذاوية وذابلة دون رحيق شفتي ذلك الرجل الغريب المُصَمّمَ على عبادتها كما أباح لها آخر مرّة والإحساس بالفقدان والخسارة يُعَرّشَ فوقهما، ونشمة لا تستطيع أن تدلّهُ على دروبها المقبلة، على ما يُخَطّط له عَوّاد وما يُضمره الملك المخلوع المختصّ بشؤون الجغرافيا التي سيحلاّن رموز خرائطها ويتعلّمان لغة عوالمها وفصولها.

لا تجرؤ على البوح بأنّه قد جعلها امرأةً دفعةً واحدةً بهذا الإصرار، وبأنّها وصلت إلى الحافّة التي من الممكن أن تتدفّق منها أحاسيسها العاشقة، أو أن تقول له إنّها بدأت تحبّه دون أن يزعجها هذا الخاطر، أو إنّها حقيقة امرأة مغرمة بشرود عينيه وعذوبة يديه وحضوره الأنيق، تعرف أنّ مواعيد الرحيل تُطْبَخُ الآن والإحساس بالخطر يتشمّمه القرباط قبل دخوله ديارهم، لكنّها كانت حائرة، تريد الإقامة دومًا في هذا الفضاء المُنْتِن مع رجل يدخل خيمتها، يسفح عمره على مخدّات وهمها ويخرج مُترعًا بالخسارة والإحساس بالخيبة، يُحاصرها لحظةً فتودّ الرحيل فوراً والابتعاد عن كلّ شيء، تاركة ضوء القمر منتشراً على بقايا القرباط، وأوتاد الخيام المقطوعة، والتراب المنعّم، وسيور الغرابيل المقطوعة، وجلود الحمير المذبوحة.

هذه اللوحة فتنتني، ضوء القمر يُنير بقايا القرباط، وأنا أدخل الأرض المهجورة وحيداً أبني من أنفاسهم برجًا عاليًا، الشهقات والزفير وروائح الجنس المختلط برائحة الطبيخ، محاولاتهم بالتمويه لاسترضاء

العنّابيّين، وقَشَبهُمْ فيما بعد وهو يُهَيْمِنُ على المكان، ضوء القمر على أمعاء متراخية مُعَلّقة على شجرة الزعرور الوحيدة ذات الأغصان القليلة المتروكة هكذا للمصادفة، هاجرةً الظلّ، إيواء القوافل وألغاز الأزمنة المرحة في تلك البرّيّة الكئيبة. يرتفع البرج وأسمع أبي من آخر النوافذ يأمرني أن أترك ورائي كلّ شيء وآتي إليه، أقول له بأنّ برجه مرتفع وعالٍ ولا أستطيع الوصول إليه، أبي ساكن البرج يشير إليّ بيده كي أصعد، وأخبره مرّة أخرى أنّني لا أستطيع الصعود، يدلّي لي حبلاً من أرسان البغال ويقول: اصعد، فأصعد ومن آخر نافذة تنبسط العنّابيّة تحت أنظارنا.. نرى أسطحة المنازل، وفسحات الدور، النوافذ التي ذَبُلَ الضوء فيها والأشجار القليلة المتناثرة، يشير بيده إلى مكان أعرفه فأرى الضوء يكاد يذبل في غرفة عائشة. أفتح الباب وأدخل، أبي بجانب عائشة كأنّها اكتشفت رائحة الفحولة ولذّة العَبَث بحلمتها مُتَقَلّبَةً في فراشها مُسْتَمِعَةً إلى الأصوات البعيدة التي تصل إليها مع نسائم البحر من بيروت. صوت فاطمة الناعس المُغْتَلِم وهي تُحِيطُ زوجها برجليها وتتنهّد كأنّها تتمزّق وتخرج من الكوّة الضيّقة لتحلّق فوق البحر امرأة تريد أن تضاجع نهراً كي تهدأ قليلاً. عليّ يجاهد كي يسيطر على فاطمة التي تموج، يُثَبّتُ كتفيها ويدخل هذيانها، يُوغِل في ذلك اللهيب الذي يلفحه، وهي تتمزّق وتعوي كبنات آوى، تتمسّك به، ببقاياه. عليّ في الفراش مستلقٍ وفاطمة تهدأ قليلاً تقول له: دخّنْ ـ أحبّ رائحة التبغ منبعثة من جلدك ـ يحتار، يُكابِرُ قليلاً ويُشْعِلُ سيجارة، لا يستسيغ هذه اللعبة ويخجل من قطعة اللحم الصغيرة المتراخية بين فخذيه ولا يفصح عن رغبته العميقة في النوم. فاطمة

تحتضنه، وتحلم بأزمنة يدخل فيها الرجال من كلّ الثقوب حتى تطفح، تصل أصواتها إلى عائشة المتقلّبة في فراشها، المسترخية، مطبقة الجفنين، وهاذية، الغرفة تعبق بروائح لا نعرفها، نتشمّمها ولا نستطيع تحديدها، رائحة لذيذة، وعائشة تتقلّب لا تريد النوم، لا تحبّ أن تغفو مهجورة، وحيدة في فراش بارد، يقول أبي بأنّ العنّابيّين لا يحبّون النساء المتعفّنات من البرد، والعنّابيّات إن لم تُغرقهنّ وتجعلهنّ صامتات ومطيعات ومبلّلات يُنْجِبْنَ من الحائط نهراً كي يغرقن فيه. وزليخة أخبرتني فيما بعد أنّ عائشة كانت تهذي بأنّ نهرًا يدخلها كلّ يوم وأنّها تترك النافذة مغلقة كي يحطّم أقفالها ويُغرقها، عائشة تحبّ النهر العاصف،.. كأنّ برجي يتهاوى، تتهاوى الأنفاس فينزل أبي وفي يده أرسان البغال ويجلس على حجر، لا يدخل معي إلى غرفة جدّتي التي كأنّها تنتظر قدومنا، تُخْبِرُني أنّ عنّاب ينام في الداخل كي لا أرفع صوتي، أقول لها، أرجوها، أقبّل التراب تحت أقدامها، أن تُريني وجهه فتُشير بسبّابتها كي أصمت، فأصمت، وتقول لي وجهه مرسوم على كلّ الأشياء وإنّه كان يُحاذينا حين كنّا نهبط البرج، وإنّه متعب وغاضب ولا يريد العنّابيّات أن يتزوّجن أنهاراً، والعنّابيّون يبحثون عن سراب ويقبعون في خديعة المكان، تشير بيدها إلى رسالة مدسوسة في زجاجة مُحكمة الإغلاق، مكتوبٌ عليها بحر بيروت، أعرف أنّها رسائل لفاطمة التي بقيت ساهرة بينما عليّ نائم ويشخر ويرفس اللحاف برجله، تقول لي اقذفها من فوق البرج إلى البحر.

أخرج، وأبي على حجر، كما تركته كأنّه نسي الكلام، يرافقني ومن تحت المصران والحجاب المُغبرّ يعبر، ينظر هازئًا إلى البوّابة العالية

ويُشير إلى القنطرة العالية ويقول إنّ جدّي طلب من المعماري اليزيدي الذي استحضره من عفرين خصيصًا أن يجعلها بعُلُوّ هامات ثلاثة رجال راكبين على أحصنتهم، كي يَمُرّ عنّاب إذا أتى في لحظةٍ ما. ويقول لي إنّ الحجَابَ والمُصْران ذبلا وهو ما زال يحبّ السلاحف. وبعد أن عبر قال إنّه يرى كلّ شيء ولا يريد سماع أيّ شيء، وجدّتي ستخبرني ذات يوم لماذا ترك تجارته، وما عاد دخان تبغه يتصاعد في سماء الغرفة كي تذوب أمّي في دوائره المتصاعدة، وجدّتي فقط تعرف لماذا أمّي أنجبت من الحائط نهراً وفرشت له العتبة كي يجلس سيِّداً على هذا الفراغ. أقول له إنّ حكايتي لن تدوَّن والوهم يمحو كلّ شيء، لا أستطيع فهم ماذا يحدث في الخفاء، ومشهدي المفضل جلود حمير مقذوفة، معلَّقة على شجرة زعرور وحيدة تحت ضوء القمر، ونساء عاريات ينتظرن الأنهر ورائحة التبغ. أبي كأنّ صوته اعتدل وما عاد ساهمًا عنّي، أسمعه يقول ما أقسى أن تنتظر امرأة وحيدة رائحة تبغ. العنّابيّة نائمة أو كأنّها غائبة، منسحبة، البيوت غامضة، كلّ شيء أبيض أمامنا، البرّيّة الشرقيّة تنبسط تحت أقدامنا وشجرة الزعرور تتراءى لي من بعيد كأنّها أيقونة متشعِّبة الأطراف، والمسيح على ذُرَاها مصلوب، أبحث عن البرج فلا أجد شيئًا، أفلت يدي وأحاول أن أمسك ما بنيت، الهواء يفرّ من بين أصابعي، يقول أبي البرج تهاوى، وإنّه يستطيع أن يرسم لي برجًا إن كنت أرغب، لا أُبدي رغبتي وألاحظ الرسالة المدسوسة في يدي وأبي يلاحظ حيرتي، يمدّ يده ويقول لي أعطني الرسالة، أعطيه إيّاها فيتركني وحيداً ويعود، أراه يدخل أرض الحوش الواسع ويُحني رأسه قليلاً كي يتابع دخوله إلى الإصطبل،

يُغْلِقُ البـاب وأسـمع وقع حـوافـر البـغل البُنّيّ. مِنْ حـولي كـلّ شيء يتـهاوى، وحـيـداً في بـرّيّة فتنتني صـورتهـا، متـهـادية تحت ضوء القـمـر متـشبِّـثة بشـجـرة زعـرور وحـيـدة كـأنِّي أخـرج من الحكـاية لأدخل في الأزمنة اللامرئيّة، حيث كلّ شيء باهتٌ وخاوٍ وبارد.. أمكنة مـهدومة وأطياف رؤى، أسير، أعرف أنّ قدميّ ستقودانني إلى ذلك الكهف، أصل قريبًا منه وأرى الضوء ينبعث شحيحًا على غير عادته، ودون ضجيج أرفع الستارة التي تُسَمّى بابًا وأعبر إلى الكهف، الضوء خافت، تلفّني رائحة التبغ، وأرى أحمد واقفًا، غارقًا بالألوان، الأصابع وأكمام قـمـيصـه، بنطاله، والطاولة التي أمـامه، كـلّ شيء ملوّن، لا ينتبـه إلى وجودي، أجلس على الأريكة وأراقب يديه، أصابعه وهي تُبَقّعُ الأبيضَ بهدوءٍ شديدٍ، بعنايةٍ ألحظُها، هو غارقٌ وأنا أكاد أختنق، يلتفت إليّ كأنّه رآني حين دخلت ولكنّه لم يستطع تحيّتي. التفت إليّ، حيّاني بإشارةٍ من يده وعاد إلى ألوانه أتمدَّد على الأريكة وأعبث بالكتاب الفرنسي المفتوح على الطاولة، أتفرَّج على الصور وأُقَلّبُ الصفحات، أحاول فكّ الحروف الفرنسيّة. أفشل إلاّ بالتعرّف إلى الأسماء التي لم أسمع بها من قبل، أُقَلّبُ الصفحات وأنتبه إلى صوته المنبعث من فمه المليء بدخان سيجارته التي لم تنطفئ أبدًا منذ أزمان، أقول له بأنّني بائس ولا أدري لماذا، يضحك ويقول إنَّه سيصنع الشاي، أسمع صوت الماء ثم صوت الوابور، ويُدندن بأغنية لا أتبيّنُ كلماتها تتحدَّث عن الهجران والفراق. أنظر إلى اللوحة الكبيرة الموضوعة على الطاولة المثبتة بأربعة مسامير، أكبر من أيّة لوحة رأيتها في مرسمه، مساحة هائلة من البياض وفي الوسط تلَوّثَتْ بالأزرق الشفّاف والغامق كأنّها ملامح وجه

غامض، يعود أحمد بكأسين من الشاي الثقيل ويمدّ يده لي بسيجارة آخذها منه، ويتأمَّل اللوحة من بعيد ويقول لي إنَّه يرسم وجه اللّه منذ ثلاثة أيّام، ولن ينتهي من هذه اللوحة طوال حياته، وفيما بعد أخبرني أنّ ابن عمّي قوّاد كبير ولديه ماخور في العاصمة وأنّه سينجح في الانتخابات وسيُصبح عضواً في البرلمان، وجدّتي تبكي الآن، وتكتب الرسائل إلى كلّ الجِهَات وتنتظر عنّاب كي يأتي في أيّة لحظة، وأنَّها سئمت الوحدة، وأخبرته أنّ المزار من الممكن أن يتهدَّم لذلك يجب أن نُدَعِّمَ حائطه الجنوبي بدعائم من خشب الزيتون ونُرَمِّمَ بالإسمنت المسلّح الشروخ التي ستصيبه وهذه العنّابيّة لا تفقه شيئًا وما عادت كما كانت. تكلّم أحمد وراقب ردود فعلي، ولم ينتظر كلماتي، اقترح أن نتمشّى قليلاً، خرجنا من الكهف، برودة الخريف المنعشة كأنّها أيقظته فانتعش وجهه وبدا أكثر صفاء وقوّة، وعيناه أكثر لمعانًا. دروب العنّابيّة مقفرة، البيوت من بعيد تبدو كمعابد مغلقة، ندخل الأزقّة، يلفّنا الظلام، والسيجارة تُضيءُ وجهَهُ. يُمسكني بيدي ويُوقِفُني تحت نافذة بيت فطّوم الأرملة مشيراً إليّ بإصبعه أن أسكت، يعود الصمت يخيّم ومن النافذة أسمع صوت فطّوم ضعيفًا كأنّه يأتي هامسًا إلينا من مسافات بعيدة، ألتقطُ حشرجةَ أنفاسها، ورجاءاتها لرجلٍ ألاّ يتركها الآن، وأنينُ رجلٍ لم نعرف صوته. أحمد يضيء وجهه كأنّه اكتسب قوّة إضافيّة وأسمع صوت فطّوم يقول: يا حيف عالزلم. ثم وهي تطلب من الرجل أن يرحل قبل أن يطلع الصبح فيفضحها، الرجل يتنحنح وكأنّه ينهض الآن كي يخرج، نتابع مسيرنا مبتسمين، أرسم وجه فطّوم الأرملة وأُدَوّنُ التفاصيل لذلك الأنف الدقيق والشفاه الغليظة والصدر

الأربعيني الذابل الحيوي المحروم من بَرَكَةِ الذكورة بعد وفاة زوجها منذ ستّ سنوات، تاركًا لها أربعة أطفال أكبرهم بنت في السادسة عشرة من عمرها أخذت من أمّها الشفاه الغليظة والشهوة التي لا تنام، ممّا اضطرّ أمّها لتزويجها لأوّل رجل قَرَعَ بابها فرحلت معه إلى البادية كي تضاف إلى زوجتيه الاثنتين وأغنامه الكثيرة. الثلاثة الآخرون أصغرهم طفل وُلِدَ بعد موت أبيه بثلاثة أشهر، والطفل الأكبر مَعْتوهٌ يقضي نهاره وهو يستحمّ بالتراب ويتشمّم فشك البغال، هازئًا من أخيه الأكبر الذي يُمسك بعصا تين طويلة ويضربها كي تركض كالحصان. فطّوم الأرملة تخبِّئ أسرارها، تأتي إلى منزلنا، تجلس عند العتبة وتتهامس مع أمّي كثيراً، تُقَبِّلُ يد جدّتي التي تباركها دومًا وكأنّ العنّابيّة لا تعرف أنّ رجلاً يزور فطّوم الأرملة آخر الليل ويخذلها دومًا. قلت لأحمد إنّ فطّوم كانت تجلسني في حِجْرِها قبل أن أكبر، يقول لي الجلوس في حِجْرِها الآن ألذّ وأشهى ويضحك، نتابع طريقنا دون العودة إلى السيرة كأنّنا الآن نتبادل تراشق الماء الساخن والقبلات معها. نخرج من العنّابيّة إلى العَرَاء، وأبوح له أنّي سأزورها في أقرب فرصة ويردّ بأنّ عليّ أخذ موعد لزيارته أيضًا، يعود أحمد للتدخين وأطلب منه سيجارة وأدخِّن، تبدو السماء صافية والبرودة منعشة والمكان أليفًا، نسمع وقع خطانا الهادئة على الأرض، أقول لأحمد إنّي قلق ولا أدري لماذا، لا أستطيع النوم بسهولة، يتابع تدخين سيجارته ولايلتفتّ إليّ، في ساحة العنّابيّة بدا كلّ شيء صامتًا، الحجارة والأماكن والمئذنة الوحيدة وبئر الماء. نقطع الساحة مسرعين كأنّنا نَوَدّ الاختباء من الأماكن المكشوفة. على الناصية يجلس هادي العنّابي مقرفصًا على حجرٍ يراقبُ غرباءَ مرّوا ولم يلحظوا

وجوده، تشعّ عيناه حين نقترب منه، ينهض ويسير، أقول له إنّي منذ زمن لم أره وأبحث عنه لأُخبره أنّ الكنز حقيقة ولكنّه نُهِبَ وضاع بين أقدام القوافل العابرة، يُشير لي بيده بالسكوت، ويقول الخرائط المفقودة هي التي تسبّبَتْ بهرمه المفاجئ ولكنّه اقترب من نهاية رسم الخرائط الجديدة، ويعتقد أنّ الكنز ما زال مدفونًا في أعماق الأرض، وما نهبته القوافل العابرة هو ما تساقط من الجرار الضخمة وما هي إلاّ أشياء تافهة لا تصلح أن نقف عندها. أحمد يحثّنا على السير بسرعة كأنّ خطرًا سيداهمنا، هادي يجرجر أقدامه ويشير إليه ألاّ يستعجل وأنّنا سنلحق بهم ولم يترك لي فرصة للسؤال أو الفهم. تابع حديثه مع أحمد الذي بدا مشغولاً وبانت ملامح قلق متصاعدة ترتسم على وجهه وقال له إنّ وجه اللّه الذي يرسمه لن يستطيع إكماله، وخطوط الحاجبين كانت خطأ كبيراً. قال أحمد إنّه سيرسم وجه اللّه ويستطيع إكماله والبياض الذي يتحدّاه لن يطول حتى يتلوّن وإنّه لا يريد إنهاء الأسئلة. يتابع هادي سيره بخطواته البطيئة التي اضطرّتنا أن نبطئ المسير وينتهي الزقاق المفتوح على البرّيّة الشرقيّة والعنّابيّة ساكنة. كنت سأسأل هادي عن أشيائه التي تبعثرت فانفتحت البرّيّة الشرقيّة أمام أقدامنا وانتهى الكلام. البرّيّة الشرقيّة أمامنا ممتدّة، خطوات وكلّ شيء واضح، حركة غير عاديّة. كانت الأصوات تصلنا ضعيفة، أقول لأحمد هل ترى شيئًا، نقف قليلاً على بداية التخوم لنستطلع أو نفهم ما يحدث في هذا الحشد الآدمي الذي يتحرَّك أمامنا رتلاً، أسمع صوت أحمد كأنّه يعلن حقيقة يجب أن أعرفها، إنّهم يرحلون سرًّا، يا لهم من جبناء، القرباط يرحلون، هكذا انكشفت الظلمة أمام حدقاتنا المتَّسعة، أقول لهادي

الذي بدأ يبتعد عنّا عائداً إلى مكانه المعتاد هل تعرف إلى أين سيرحلون ياهادي؟ هادي يشير بيده وتصلني كلماته متقطّعة. لا مكان لهم، دعهم يرحلون وإلا تشوّهوا، أحمد يجرُّني من يدي ونتجاوز السنسيل باتّجاه تلك القافلة التي تُلَمْلِمُ شَتَاتَها، وتستعدّ للمسير، الخيام طُويت والحمير استعادت مكانتها متأهِّبة، منتظرة التحميل والتحزيم، تلك الألوان غابت، وجوه القرباطيّات متعبة والأولاد الصغار ناعسون ذابلون، الرجال يحزمون عصيّ الخيام ويسدفونها على ظهور الحمير، كلّ شيء يُسَدّفُ ويرتّب. نقترب رويداً رويداً ونصبح على مقربة من المشهد، القافلة تسير.. الرجال فوق ظهور الحمير والنساء يلحقن بهم، رتل أحادي يعرف دربه جيِّداً، عَوّاد مشغول وأسمع كلماته وهي تُؤَنّبُ قرباطيّة على تأخّرها، الملك المخلوع ما زال جالساً مكانه دون أعواد وقنافذ، أشير لأحمد أن نقترب منه، أحمد دون أن يراني يخطو باتّجاههم، كأنّه يريد تقديم واجب الوداع والاعتذار عن أخطاء العنّابيّة. أبحث عن أثرٍ لنشمة فلا أرى أثراً وأُخَمِّن أنّ عددهم قد تناقص، فإمّا أنّهم رحلوا على دفعات أو أنّ نشمة رحلت مع بناتها وحيدة. الملك المخلوع لا ينهض من مكانه، يرفع نظره إلى الأعلى، يتفرَّس في وجهينا ويقرأ، أحمد يحيّيه فيردّ التحيّة ويدعونا للجلوس لكنَّه يستدرك ويقول: لا، أنا سأنهض لِتُرافِقَاني للمرّة الأخيرة. أحمد يقول الوقت مُبَكّر لرحيلهم ووجهتهم ليست باتّجاه الشرق هذه المرّة، ويسأله إن كانوا قد غيَّروا الجهات، أو حدث أيّ مكروه لهم، الملك المخلوع يضحك وأرى أسنانه شعّت وسط الظلام، وغبار القافلة الذي ذكّرني بسحرٍ تمنّيتُ رؤيته، عيشه، رحيل دائم

وغبـار قوافل. يتكلَّم الملك المخلوع مع أحـمـد ولا أفـهـم لماذا يهـزّ رأسه ويتـبـاطأ بالردّ أو السـؤال، الملك المخلوع يسـألني عن خـالي وعـن أبي ويُوصيني بالسلام عليهما وعلى جدّتي أمّ مسعود. أفهم من حديثه أنّ نشـمـة رحلت مع بعض البنات والأطفـال في سيّـارة جاءت أوّل الـليل وَخَفّفَتْ عِبءَ رحيل القافلة، وقال القرباط لا يحسّون بالمتعة إن لـم يروا تلك القـافلة ويلفّهـم ذلك الغبار. سرنا ثلاثتـنا، الملك المخلوع في الوسط والقـافلة تمرّ على يسارنا، كـانت تنسـحب رويداً رويداً، الروائح والألوان وضـحكات القـرباطيّـات، وتغـيب صـدورهنّ المتـروكـة للعـراء في هذا الظلام.. الزمن توقَّف تماماً، وما عـادت الجـهـات مهـمّة بالنسبـة لي، لا أدري لماذا أصابنا الخَرَس وتبخّرت الكلمات، ولماذا أحـمـد الجمل صامت وهو يسند الملك المخلوع في مسيره. الليل الـذي شارف على الانتـهـاء، كأنَّه نبَّهني ببرودته أنّ الحكاية لن تنتهي وفـصـولها مُـشَرّدة. القـافلة أمامنا، نرى سيرها المُنظَم ونسمع الهمـهـمات، وبعض الأصوات، الحـمير تُسرع في المسير ولم يبقَ سوى الملك المخلوع الذي وقف بجانبه رجل لا نعرفه وقدّم له حماراً أبيضَ مفروشاً ببـردعة نظيفة، مشيراً عليه أن يلحق بالسـائرين. لوَّح الملك المخلوع بيده وبدا ظهره مشـدوداً، متين العضلات وغير محنيّ كـما كنت أراه، يبتـعدون وأُنَبّهُ أحـمد إلى ضرورة عودتنا. العنّابيّة كأنّها بعيدة، موحشة، باردة، جَبانة، ظالمة.

أحـسست بمشاعـر متناقضة، ودارت في ذهـني الحـسابات التي لا بدّ منهـا، هذا الرحـيل سـيكسـر ظهـر أبي الهـايم، سَيُـفْـرِحُ أمّي وبعض العنّـابيّين الذين اعـتـقـدوا أنّ القـربـاط هم أسـبـاب الانهـيـار الأخـلاقي والانحـراف الـذي بدأت أحـاديثـه تظهـر وتطفـو على السطح. في طريق

عودتنا كنّا أنا وأحمد منفصلين أحدنا عن الآخر كأنَّنا غريبان التقينا في قطار مسافر، مللنا الحديث وصمتنا بعد ذلك متأمِّلين الزوايا والسهوب التي كان يقطعها القطار بسرعة جنونيَّة. أحمد صامت، وأنا غائب، البرِّيّة الشرقيّة أمامنا خالية إلاّ من شجرة الزعرور الوحيدة التي بدت لي حزينة، مهجورة وغير راضية عن هذا الفراق. تركني أحمد على باب الدار وتابع طريقه دون أن ينبس بكلمة، رفع يده مودّعًا وتابع تدخينه، رأيت ظهره وسُحُبَ الدخان المنفوث في الهواء يُغَلِّفُهُ ويجعله أقربَ إلى المتوحّد مع حجارة الزقاق الضيِّق. عبرتُ أرض الحوش في طريقي إلى فراشي الممدود في الغرفة العلويّة. في الزاوية المقابلة لفراش عائشة التي احتضنتْ زليخة وغطّتا في نوم عميق. خلعتُ ملابسي وتمدَّدتُ في الفراش مُوقِنًا أنّ الحقائق لا تأتي كلّها دفعة واحدة، وأنّ تدوين الحكاية ما هو إلاّ وهم فلا حكاية ولا أبطال والمسرح مُقْفِرٌ تمامًا.

الدفتر الثاني

هُلام.. أكفَان.. وجوه مَمْحوّة

العنّابيّة حامضة، كأنّي أستشعرها تحت لساني وهي تذوب كقطعة سُكّر، ثم تعيد تكوين هياكلها من الغبار والقشّ، وترسم طرقاتها لتنهض وتكتشف أنّ المكان وَهْمٌ مارسَهُ الزمن، حين صعد إلى خشبة المسرح واكتشف أنّ الأضواء مُطفأة وكلّ شيء ساكن.

خالي حين علم بخبر رحيل القرباط من الصبية خرج من منزله وجرى. وصل إلى البرّيّة الشرقيّة، جلس على حجرٍ وبكى.

عائشة تلهج وهي تُخبرني وتُشير إليّ ألا أدخل إلى غرفة جدّتي فهي غاضبة منذ الصباح، ومزاجها ليس على ما يرام. جدّتي لا تلتفت إليّ، تنكش الأرض بعصًا تُمسكها بيدها المعروقة. أعود إلى أرض الحوش وأرى باب الإصطبل مفتوحًا وعمود الغبار نازلاً مع أشعّة الشمس المائلة، أسمع سعال أبي وهمهماته التي لم أفهم منها أيّة كلمة، أقف عند باب الإصطبل، أبي ممسك بقدم البغل وتفوح في الجوّ رائحة الكحول والقَيْح، البغل ساكن، وهو منهمك في علاجه.

أصعد إلى الغرفة الغربيّة، أُغَيِّرُ ملابسي وأنزل الدرجات بسرعة كأنّي هارب من هذا المكان، زليخة تعتني في الزاوية بكَمْشَةِ ثيابٍ مغسولة، تنشرها على الحبل الممدود فَرِحَةً بأنوثتها المُبَكّرة. الأزقّة مُقفرة، والغبار يحيط بي.

العنّابيّة تتبادل السأم والملل، الأولاد ما زالوا يُردّدون أنَ القرباط قد رحلوا. أشعر بالغربة واللزوجة تُحيطان بجسدي، كأنّي وحيد في أرضٍ مرميّةٍ كمصادفة أمام أقدامي، كأنّي كبرتُ قرنًا، نسيتُ طفولتي وشِبْتُ فجأة وها أنا في طريقي إلى المقبرة لأرسم حدود قبري وأضطجع ككلّ الرجال الشجعان الذين يختارون موتهم. نسيت عدد سنوات عمري، واستبدّ بي ضيق أطبق على صدري وجعل من وجوه العنّابيّين صفحة سوداء دون معالم. في المساء قالت عائشة إنّ أمّي جلست على قرص الدرج، بكت ومسحت دموعها بغطائها الأسود، ثم استقبلت خالتي في الغرفة الغربيّة. المرأتان تحادثتا كأنّ مكروهًا لا بُدّ سيُحيقُ بأركانهما ويُحيل أيّامهما إلى سوادٍ أعمى، ثم نزلت وحيدة إلى غرفة جدّتي، جلست على العتبة وتكلّمت كثيراً عن أبي الهايم، عن كلماته القاسية معهما، وعن زعيقه في وجهيهما وكأنّه أمرهما بأن تغادرا منزله ولا تفتحا سيرة نشمة أبداً.

ضعت في الدروب، وضاقت الجدران في كهف أحمد الجمل على صدري، وأحمد غير مكترث، يُقهقه بلا مبالاة تاركًا لي الطاولة الواطئة كي أعبث بصفحات الكتاب الفرنسي المفتوح دومًا، مشغول عنّي بتحديد ملامح وجه اللّه الذي قال لي إنّه سيرسمه لا محالة، ولا بدّ سيصل إليه، يشير بيده إلى النقطة الزرقاء المنثورة بغموض على بياض اللوحة، ويقول هذه بداية المعرفة، ثم يضيف بأنه سَئِمَ العنّابية ويجب أن يرحل إلى المدينة، أو حتى إلى العاصمة، مشيراً إلى لوحات مرصوصة بعناية وأخرى متروكة هكذا بإهمال شديد للغبار وللهواء وللنظرات العابرة. أحمد لا يلتفت إليّ، يخبرني أنّه كان يجب أن يقتل

أباه كي لا تموت بدريّة، وأنّه نادم لماذا تأخَّر عن سرقة أموال أبيه، وأنّ عمّه الأكبر أتاه منذ يومين يريد أن يُصالحه مع أبيه، وأنّه سيفقد عقله إن بَقِيَ على حالته هذه من الهجران والوحدة. أحمد سمع كلام عمّه بهدوء وقال كلمات مقتضبة فَهِمَ عَمّهُ منها أنّه لم يَتَخَلّ عن مزاجه الشرس، فخرج مبتهلاً إلى اللّه أن يأخذ بُعُمْرِ ابن أخيه الضالّ، كأنّه كَبُرَ وأوغل في العمر كثيراً، وما عادت العنّابيّة تعنيه بشيء. لاح مزاجه أكثر رعونة، وبدا أكثر ضيقًا وأقلّ حماسًا لتدوين الحكاية وكأنّه يريد أن يقول لي إنّ كُلّ شيءٍ وهم، ما عدا حقيقة البهجة التي تعتريه وهو ينظر إلى يديه الملطّختين بالألوان، ثم وهو يتحدَّث عن تَقَدّمه باللغة الفرنسيّة. بدأت أُحِسّ بوحدتي منذ الآن وبشقائي، مللتُ هذه الوجوه التي لا تشي بشيء سوى قساوة بدأتُ أتحسّسُها مؤجّلة أو مخبّأة تحت الجلد، بين المسامّات وفي العيون.

قسوة العنّابيّين رغم أريحيّتهم وهُزْئِهِمْ من كلّ شيء، المُصْرَان المُعَلّقُ فوق القنطرة ما عاد يُثيرني بعد فشله في إرجاع أبي رجلاً قويًّا يُمارس تَجَهّمَهُ فيعلن زمنه ويخيط الدقائق كي يوقف هذا العبث، وهذه التفاهة التي أحسّ كأنّها استبدّت بالعنّابيّة، ما عاد شيء يُغري بالتأمُّل أو التحدُّث أو إبداء أيّ رأي.

المكان غربتي، كأنّي مشدود بمسامير فولاذيّة وقدماي تجرجران أيّامي. خالي في العنّابيّة داخل كلّ البيوت، على جميع الشفاه، وهو معتصم بوحدته بعيداً عن الجميع كأنّهُ مُتَرَهّبٌ أو مُتَرَفّعٌ عن الثرثرات التي وصلت إليه أصداؤها. العنّابيّة التي لم تُودّع القرباط كما كانت تفعل كلّ سنة انكمشت على ذاتها مُوقِنَةً أنّ أزمنة جديدة قد تغلغلت

في النسيج، ولا فكاك من الاعتراف بأنّ البرِّيّة الشرقيّة لن تترك أبا الهايم إلاّ وتأخذ ما تبقّى من عقله وشهامته، أو كأنّها تنتظر شيئًا غامضًا، تُعدّ العُدّةَ للتغلغل فيه. صَمْتُ جدّتي جعل من الرحيل كارثة قد تنفجر في أيّة لحظة. أرض الحوش كما هي منذ سنوات ومع ذلك أحسست بالملل، الدرج الذي كان أليفًا، محبّبًا إلى نفسي، الشقوق الصغيرة في النوافذ العالية كأنّها قروحٌ لن تندمل، المكان يسير إلى حَتْفه ويدعني وحيداً، جدّتي في صمتها أضافت إليّ جَدّةً جديدةً، وخالي الجالس في غرفته وحيداً، رأيته مقرفصًا كأنّه منذ زمن بعيد تَجَمّدَ هكذا وانتهى زمنُ الألق. أعرفه حين يكون غارقًا في الحزن أو الفرح، كأنّي أرى الآن نشمة وهي ترتسم أمامه طيفًا لا يُمْسَكُ وبُرْجًا لا يصل إليه. بعيدة نشمة، وخالي لا يستطيع أن يُخفي حتى دموعه أو هكذا تراءى لي. بعد ذلك أتى سلمان ورغم كلّ ضجيجه لم يستطع أن ينتزع منه إلاّ ابتسامة من شمع. رأيته يذوب بسرعة ليعود وجهه إلى التغضّنِ. سلمان قبّلني كأنّنا معنيّان بمصير هذا الرجل أكثر من كلّ الناس، قبّل خالي وقال له إنّه فور وصوله من سفره أتى إلى هنا ليطمئنّ على خاله العزيز، ويوصل له هداياه. فَرَدَ كيسًا صغيرًا تناثرت من قعره علبُ تبغ أجنبي، وأكياسُ قَمَرْدين، قطعةُ قماش مُخَطّطة ودفترٌ غامضٌ ملوّنٌ أخفاه عن ناظري رأيته فيما بعد وفوجئت بجمال النساء العاريات. كان سلمان فخوراً بنتائج عمله وغير مهتمّ بأيّ شيء، شاتمًا العنّابيّة وأهلها البليدين، هَمَسَ له بأشياء لم أسمعها وَلَمْ أرغب في الخروج من قوقعة صمتي.

العنّابيّة الآن تنزف ذاكرتها، وجدّتي تنتظر من يحمل الزجاجة المغلقة بإحكام لقذفها إلى مياه البحر، وإلى عناوين الشواطئ المجهولة

التي ما زلتُ غير قادر على فكّ طلاسم تلك التعاويذ وتلك الحروف التي تحرص على ألاّ يراها أحد وهي تَخُطّها ثم تُودِعُها قعر الزجاجة، تُغْلقها جيِّداً بسدّادة فَلّين وتنتظر أحد المسافرين كي يوصلها إلى البحر، كأنّها منذ آلاف السنين مقيمة هكذا ولن تترك مكانها لأحد، كأنّي حامل الأيقونات وبرادع البغال لأجدادي الذين تعاقبوا عبر الزمن حتى اختلطت دمائي وما عدت أعرفُ أو أدرك أيّة حقيقة تَحْكُمُ تكويني. أيّة هجرات وأيّة حروب ومجاعات وواحات نَضِرَة هي التي أوصلت الصولجان إلى يدي كي أكون وريثها!

عائشة تلوب كأنّها تريد أن تفعل شيئًا وهي عاجزة، ألحظ مؤخّرتها المتينة تهتزّ، ثم صدرها المكتنز وهو ينبثق كالفضيحة، ثم أمّي وهي تُرَدّدُ على مسامعها كُلّ يوم أَخْفي هذه الفضيحة مشيرةً إلى ثدييها الرائعي التكوين وهما يتمركزان كالروابي أو كالثمار الناضجة. عائشة الذكيّة تتحايل على كلّ شيء، على الهواء والزمن، على أمّي وأبي وجدّتي وعليّ كأنّها لا تشعر بضرورة ممارسة ألاعيبها. وزليخة التي أوصلتها إلى قناعة أنّها الوصيفة وخليفتها على الأرض وبأنّها سَتُعَلّمُها أسرار الأنثى إن كَتَمَت السرّ. عائشة تكسر الحطب وتُشْعِلُ التنّور، أمّي تصرخ من غرفتها أنّ العجين قد حمّض، فتردّ أنّها تشعل النار. المساء يُنذر بخريف مبكّر أكثر ممّا يجب. برودة منعشة تصبح آخر الليل برداً يجب اتّقاؤه، لا أستطيع النوم ولا المكوث في البيت قرب أمّي التي تنهر أبي أو إحدى أختيّ، أو تضمّ التين اليابس بقلائد لتعلّقه جانب قلائد الباميا. أجول في العنّابيّة باحثًا عن سرّ خلود المكان وعن وَقْعِ سنابك الخيل التي صهلتْ وجعلت جدّنا عنّاب يترجّل عن فرسه

ويُوْدِعُ المكانَ أسراراً ضائعة، أحمد قال لي منذ أيام بأنّ عليّ حراسته، لم أفهم قصده، وقال لي سأُفْهِمَكَ فيما بعد. اصطحبني من يدي حين مررت عليه ورأيته يتلذّذُ بشرب الشاي، مرتديًا ثيابًا نظيفة كأنّه استحمّ للتوّ وأصبح يانعًا، جميلاً، بانت ملامح وجهه رطبة، متسامحة، أقلّ عنفًا وأكثر انسيابيّة، فوجئت به، وضحكت حين رأيته يدخّن سيجارته بأناقة ويلبس حذاءً جديداً. قال لي اجلس فجلست، قدّم لي الشاي بكأس نظيفة ولم يترك لي فرصة لأتساءل عن سرّ هذا التغيير، قال: بعد أن نشرب الشاي لدينا مشوار، الآن استمتع بِأُبّهَة صديقك، وقهقه بصفاء. لأوّل مرّة أسمع ضحكته صافية هكذا كأنّها أفلتت من الينبوع، وأراه مرحًا. نهضنا معًا، ظننت أنّ العنّابيّة كالعادة ستكون مسرحًا لمشوارنا الليليّ، قال لي ونحن في الطريق احرسني، سأقف وأراقب بيت فطّوم، لقد شاهدها منذ يومين وقال لها بأنّه سيزورها وضغط على كفّها، لم يترك لها فرصة لتحتجّ أو تعتذر، كلّ ما في الأمر أنّها اضطربت قليلاً واحمرّت وجنتاها بعد أن تركها ومضى في دربه. الليل يغطّي العنّابيّة، النوافذ مُطفأة والحركة هدأت تمامًا، طلب من فطّوم أن تترك له باب الحوش مفتوحًا، وتنتظره في الغرفة الشرقيّة القريبة من المطبخ. أحمد ينظر إليّ كأنّه يُخبرني حقائق لا نقاش فيها، ولا يحتاج إلى أيّ رأي أو أيّة نصيحة، أو كأنّ الموضوع قد تجاوز كلّ الإشكالات الأوّليّة، وأنّه ذاهب إلى بيته لا إلى فطّوم الوحيدة والتي سمعنا أنّاتها بين يدي رجل آخر قد يكون عشيقها أو رجلاً ستتزوّجه.

العنّابيّة لا ترحم، إن خرجت الفضيحة إلى قارعة الطريق سيصبح الشرف لواءً يتساقط تحته الرجال، والنساء سيخاتلن في السيرة. أحمد

هادئ وصفحة وجهه في الظلام ثابتة لامعة، أشار لي كي أصعد إلى السطح المقابل لبيت فطّوم وأراقب الزقاق وكلّ مداخل الحوش، إن أتى أَحَد أُعْلمه بقذف حصاة على الباب وهو سيتدبّر أمر خروجه من النافذة الخلفيّة ثم يهرب عبر السِنْسيل إلى البيادر. نبَّهني أن أحترس، وترك لي جاكيت صوف كان يرتديه لأتّقي به البرد. اتّجهت إلى الخرابة، وتمركزت على السطح، رأيته يخطو في أرض الحوش ويشير إليّ أنّ كلّ شيء على ما يرام. رأيته يقرع باب الغرفة قرعًا خفيفًا ثم يلج في الظلام ويدخل. رأيت يد فطّوم في الظلام أو كأنّها تراءت لي، ثم ضوء الكاز وقد علا فتيله، وظلال أشباح أتخايلها الآن تُحيط بالمكان.

العنّابيّة من هنا أكثر وضوحًا. أنا بعيد عن مرمى النظر للقادم من أوّل الزقاق، اخترت ركنًا يَقيني اللسعات الخريفيّة الباردة، خائفًا عليه و في الوقت نفسه أتخيَّل ذلك الدفء الذي يغوص فيه، أعرف حضن فطّوم جيِّداً وأعرف حجم نهديها وتشقّق شفتيها، انتبهتُ بعد زمنٍ إلى أنّ الضوء عاد مرّة أخرى منخفضًا وأيقنتُ أنّ الأمور تسير على ما يرام. أنا حارسك الآن ومُدَوّنُ أسرارك، ولا أعرف إلى أين تسير وإلى أين أسير معك، سترسم وجه الله وتعيد الروح إلى بدريّة وتتلوَّث بالألوان إلى آخرك. كم عاشقًا مرّ قبل أحمد على تلك العتبة؟ فطّوم الوحيدة طَعْمٌ سهلٌ للرجال وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، رأيتها تبكي بين يدي أمّي مرّة وتشكو الوحدة والهجران والزمن الصعب، وأمّي تُهدهدها وتُطمئنها بأنّ أولادها سيصبحون شبابًا ولن يذهب تعبها هدراً. كنت صغيراً حينئذ، ولكنّي عرفتُ أنّ عائشة تعرف كلّ أسرارها، كانت كثيراً ما تصعد إلى غرفتها وتغلقان الباب خلفهما،

وعائشة حين تراها مُقبلةً تترك من يدها كلّ شيءٍ وتُقَبّلُهَا مازحةً، قارصةً لحم فخذها بخفاء. عائشة تعرف أسماء وأشكال الرجال جميعًا، وفطّوم تخبرها عن أعمال متعتهم ولكنّها قد تكون فعلاً مهجورة والصوت الذي نبّهنا إلى أنّها ليست كذلك ما هو إلاّ رجل عابر يقضي عندها ساعات من وقت لآخر، ثم يتركها امرأة وحيدة فريسة القلق والكبت والحلم بمن يسدّ ثقوبها ويحميها.

الساعة قاربت الثانية صباحًا، والزقاق صامت، الأحجار صامتة، الأسطحة، المنازل والشبابيك، كلّ العنّابيّة غارقة في صمت رهيب. صوت رياح خفيفة وبعيدة، وأنا أنتظر خروج أحمد، مضى الوقت الذي اتّفقنا عليه، قال لي: في الثانية تمامًا سأعود، هذا آخر وقت لعودتي، إن تأخّرتُ أكثر فاتركني واذهب، لن أذهب حتى أطمئنّ عليه، لن أتركه وحيداً هكذا، انفتح الباب ببطء ورأيت وجهًا أطلّ من الباب وعاد، ثم أحمد وهو خارج كأنّه مسترخٍ، أو تراءى لي قد افتتح أزمانه الجديدة، نزلت من السطح بعد أن تبادلنا إشارة السلامة، والتقينا على باب الحوش. أشار لي بالسكوت حتى نعبر البيوت فسكتّ.

وقع خطواتنا في الزقاق توقظ أعماقي الهائجة ثم ونحن نودّع آخر البيوت انفجرنا بضحك هستيري شديد، لم ألحظه يضحك من قبل بهذه الشدّة، سألته كيف تمّت الأمور، قال: تمام التمام. ولم يُضِفْ شيئًا.

العنّابيّة تُبالغ في كلّ شيء، تُضَخّمُ كلّ شيء وتحتال على مَلَلِ أزقّتها. تخترع الوسائل والطُرُق لتسكيت نسائها، والرجال يزدهون برجولتهم دون أيّ سبب، لا يجدون من يحاربونه فيبالغون بوصف

الفحولة. والنساء يَحْتَلْنَ على كلّ شيء من أجل فكّ حصارهنّ، يُشَمّسْنَ أجسادهنّ ولا يدعن العَفَنَ يتسرَّب إلى مسامّاتهنّ. العنّابيّات السمهريّات، ذوات الأيادي الخشنة والبطون الناعمة بالغتْ الهجْرات في النَيْلِ منهنّ، فالكثيرات بقيْنَ دون رجل لفترات طويلة، والكثير يعرف عن الكثير.. والكلّ مُصَابُ أخيرًا بالداء نفسه، صمتُ الفضيحة يتَّخذ في العنّابيّة ميثاقَ شرف، وإن خُرِقَ هذا الميثاق بُولِغَ في فَضْحِه.

تخبِّئ البيوت أسرارها، ولم تكن بحاجة إلى درب الغياب ولا لسجلاّت الحكومة ومساعدات الأحزاب والمنظّمات، كانت تعيش اطمئنانها وتبحث عن ذهبها العتيق كي تُبادل به الأثواب والأحذية وخشخشة الفضّة في أيادي صباياها ونعومة البرلون على أجسادهنّ. أقول لهادي العنّابي ونحن نرسم شكل الخريطة مرّة أخرى إنّه بالغ كثيرًا في توصيف الأشياء للعنّابيّين حتى ألحّوا على جنونه، وتركوه فريسة للحيرة وعدم التصديق، لم يقل شيئًا إلاّ أنّه لم ينس. وبعد قليل من مسيرنا حول السور العتيق كما كان يُسَمّي الأحجار المرصوفة حول المزار قال لي الحقيقة هي ألاّ تُخبر بما تعرف، بل بما أنت قادر على تخيّله والتهويم فيه. هادي دومًا يسحبني من يدي ويُعيد على أسماعي أنّ القافلة التي ضلّت دربها تركت للعنّابيّة ثروة لا تُقَدّر بثمن وأنّ من سَيُدَوّنُ الحكاية كاملة سيعرف الحقيقة كاملة ويكتشف أنّه خُدِع وسيموت من الحسرة، والتفت إليّ ثم أوقفني وقال لا تُدَوّنُ الحقيقة كاملة. أعاد الدورة حول السور وقال لي ابحث تحت هذه الخدوش، أي في الأرض، وستخرج الممالك لك، مُجَلّلَةً بأغطية رأس عنّاب الكبير وأغطية رؤوس فرسانه، وأشار إلى مكان قريب من الركن الشمالي

للمزار وقال: احفر هنا: إيّاك والتهاون إن صَدّكَ الصخر المتشبّث بالأجواف، ابتعد قليلاً يا هادي كي أرى أين أنا، وأين تلك التي يُسَمّونها ثقوبًا وكنوزًا مفقودة، ابتعد قليلاً ودعني أهيم وحيداً في سماء التسابيح المفروطة.

هكذا بين ذرّات التراب وأثواب النساء العنّابيّات السَمْهَريّات، الواقفات على نواصي المدن والعواصم ومفارق القرى والدساكر، بأيديهنّ الشموع وعلى جبينهنّ الغار، العنّابيّات المُنفلتات من مكائد المكان، تجرفني العنّابيّة وتقذفني في المنحدر. أرى نفسي شيخًا مسنًّا واقفًا في وادٍ سحيق، أريد الوصول إلى تلك القمّة، الدروب مسدودة والبرِّيّة واسعة، الوادي مُنبسط أمامي كصحراء أسير فيها دهرًا، أصل إلى تلك البيوت المشعشعة بقناديل الزيت، كلّما أَلْهَجُ باسمها تبتعدُ ويضيق الوادي، لا يبقى إلاّ صوتي والصدى، وأعود هرمًا أكثر ممّا كنت، أجلس على حجر وأبكي، من تحت الحجر تنبع المياه دافقة هائجة.. المياه تتجمّع، تُشَكّلُ بحيرة زرقاء، صافية، كبيرة، ضفافها بعيدة، وأنا على الحجر ما زلت ألمح التكوين، من البحيرة تخرج سبع بطّات بديعات الريش. يسرن بهدوء ملكي ويقتربن منّي، أختلط بالألوان وأضيع في زحمة الأصوات، أصواتهنّ، سبع بطّات أو إوزّات أم أميرات مُسخْنَ على هيئة سابحات. تقول لي الكبرى ماذا تفعل هنا يا شيخنا، كأنّي بالصوت أعرفه، وتشير لي الأخرى بالصعود على ظهرها كي تحملني بعيداً عن ضلالات المكان. يتركني هادي في منتصف الطريق ويُشير إليّ أنّ الخرائط قد ضاعتْ وعلينا إعادة رسمها، ولماذا يا هادي علينا إعادة رسمها؟! دعنا نَضِعْ مع الخرائط ونكسب الوهم، لماذا

الحقائق وجوهر الزمن؟ هكذا نُتَمّمُ ضياعنا، ونهيم باحثين في دفاتر القرباط عن معنى لإشعاع الكلمات القليلة التي جُوّفَتَ في بقائنا واستقرارنا في العنّابيّة، حيث الغبار غَطّى جلودنا ونفذ عبر مسامّاتنا ليُحيلَنا بعد زمن إلى أحجار صَمّاء رُصِفَتْ في قلعة قديمة ثم أغلقت القلعة أبوابها، ثم ضاعت المفاتيح بعد موت الملك، واستبدّ السكون بالكون وبالقلعة التي بدأت تكتب تاريخ الصمت، ونحن أحجار. اترك الخرائط ضائعة يا هادي وتعال لنشرب الشاي مستمتعين بشمس الصباح والكسل الأبديّ. هادي لا يسمعني وأنا في الأمكنة المرئيّة واللامرئيّة أحسّ بالبُهوت، وأنتظر أحمد أن يُنْهي تلوين اللوحة كي أسأله عن الجهات التي لم يُفسدها الملح. العمر مفسدة، الكلمات التي لم أسمعها منذ زمن تتساقط من شفتي أبي الذي يُثير الشفقة بتسليمه مفاتيح كلّ الجِرَار لأيّ قادم، والإخبار عن كلّ شيء، ما الذي يُحَوّل الرجال إلى خرَق. تؤكّد أمّي دومًا أنّ نظرةً منه كانت كافية كي تُجْفلَ الجهات وتَغِلّ بريق عينيها. ما زالت تذكر كفّه القويّة وهي تنزلق على فخذها المشدودة ثم وهي تحتضن نثارها في الفراش المعطّر ذي الشراشف البيضاء الفوّاحة بأريج البابونج الذي تخلطه مع الماء المغلي، مزدهية بنشوة رجلها. والآن، ما الذي أحاله إلى حجر متحرِّك، صامت، غير غيور، مُلتاع من الداخل وذاهب وراء رائحة البغال يتشمّمها بعنف كأنّ مصيره في تلك الرائحة فيحكّ خياشيمه، يقترب بأنفه من جلودها ويُمعن أكثر في المتعة كمن يتشمّم جلد امرأة خارجة للتوّ من الحمّام، تاركةً الباب وراءها مفتوحًا كي تهبّ رائحة دخولها مصحوبة بذلك البخار الذي بُورِكَ حين سال على مسامّاتها وأكسبها النضارة المشتهاة.

جدّتي لا تقول شيئًا مع أنّها تعرف كلّ شيء، لذلك لا تقسو عليه ودومًا تتلقّى أخبار بغاله باهتمام مبالغ به، ثم أتحسّس أسئلتها وهي تُرَمّزُها، تُشَفّرُها، تُحيلُها إلى ضباب مفردات لا تَقِي ولا تُفْصِحُ عن أيّ جواب، وهو يَفْهَمُهَا ويُجيب عليها بالرموز نفسها مضيفًا إلى ضبابيّتها غموضًا يُغري بالبحث والتوقُّف طويلاً عندها. كنت نائمًا في غرفتها مرّة وأتى أبي صباحًا، رفعتُ وجهي من تحت اللحاف وعدتُ للنوم، لم أعد أكترث لحضوره أو لأن يكون لي أب، اعتدتُ غيابه أو تغييبه من الصورة تمامًا حتى امّحى وأصبح ضربًا من الذكرى القديمة التي ألتقيها فجأة فَأُشيحُهَا بيديّ كي تغيب أكثر وتبتعد عن طريق حضور التفاصيل القوي الذي يُرافقني. أصبح بالنسبة لي ذلك المصران المُتَيَبّسَ المعقود والمُتَدَلّيَ بثقة فوق رأسي حين أعبر الباب المتحوّل فيما بعد إلى بيت للديدان تتناسل منه وتتساقط فوق رأسي حين أقف تحت القنطرة مراقبًا حركة الزقاق الضيّق المُتْرِبَ. نهضت جدّتي وتهلّل وجهها ـ كأنّي أراه من تحت اللحاف الذي حبس أنفاسي ومنعني من متابعة نومي ـ قالت له إن كان سيغرس شواهده هذا العام، لكنّه أجاب بنبرة صوته القديمة، الصوت القوي غير المهتزّ، بأنّه على الأغلب ليس هذا العام ثم قال إنّ الأرض خصبة وسيزرع نصف دونم ويحصدها خصّيصًا للبغل، كيف يزرع الشواهد ولا أراه. أم ماذا تعني جدّتي؟

قلت لأحمد: هل يزرع الرجال الشواهد؟ وماذا تنبت الأرض المزروعة بالشواهد؟ أحمد قهقه وقال لي: الموت، ثم سكت. وبعد برهة تابع أنّ الحكاية التي أُدَوّنُها لا تصلح لشيء إلاّ لتثبيت الصورة الثابتة ولن أستطيع الانفلات من إسارها. فكّرت كثيرًا أن أرمي ورائي كلّ

شيء، الأقلام والحبر والأوراق التي سَوّدْتُها ثم التي وُضِعَتْ بين يديّ والتي تُشَكِّلُ عبئًا كبيرًا لا أحتمله. فكّرت كثيرًا بترك تلك الدروب تقتسم مصيرها والرحيل بعيدًا عن تلك الرائحة التي تُهفهف حولي منذ أزمان بعيدة، حَكَمَتْ طفولتي وجعلتني طفلاً لا يُحبّ المزابل وتسلّق أشجار التوت، إنّما المندهش دومًا من اقتراب أيدي أصدقاء طفولتي من أعشاش اليعاسيب بجرأة منقطعة النظير وسرقة الدجاج ونكاح الأغنام في المراعي، والتجسّس على الأزواج ونشر سِيَرِهم في الصباح للتندّر ولفرقعة الخواصر من الضحك على أصوات النساء المبحوحة. تمنَّيت لو أستطيع ممارسة هذه اللّذّة التي داهمتني وأنا ممسكٌ بإلية الغنمة والجًا فيها كأنّي الإسكندر المقدوني يفتح العالم وتدنو من قدميه كلّ العروش. لو أستطيع تكرار هذا العبور، هذا الخطأ والتمتّع بعينين وقحتين كعينيْ سلمان الذي أمسك حمارة بيضاء صغيرة وأمام كلّ الرجال والصبايا اللواتي في طريقهنّ إلى البئر قال لو تتحوّلين إلى امرأة أو لو تضطجعين.

لو أرافقه عبر الحدود وهناك يداهمنا البرد فنتدفّأ بالبطّانيّات ونستريح قرب كومة أحجار، وندخّن باستمتاع شديد، أو حين نلمح دوريّة الحدود ننبطح بين الأعشاب أو نبحث عن مغارة قريبة نعرفها مُسْبَقًا، خبراء بتضاريس كلّ شيء، الأرض، الحدود، المرأة والزمن.

كثيرًا ما أنظر إلى الأوراق، إلى طاولتي الآن وأنسى كلّ شيء. أخرج إلى هواء العنّابيّة أتنشّق حموضته وأثقاله وأقتحم خلوة فطّوم كما فعل أحمد منذ أزمان بعيدة لأقول لها إنّه حدّثني عن ذلك اليوم وإنّي كنتُ حارسه أراقب الأسطحة والزقاق والباب، ويلتهب عضوي

من الانتصاب حين يذبل الضوء في غرفة فطّوم. لا أحتمل تلك الحرقة في المسالك. فأفتح أزرار بنطلوني وأخرج تلك القبعة الحمراء الملتهبة على عمود من لحمٍ قاسٍ، أستحضر وضحة التي لم ألمس إلا فَرْجَهَا مقابل نصف ليرة دفعها أحمد عوضًا عنّي حين استحضرها إلى كهفه، راميًا لها خمس ليرات خضراء تراءت أمام عينيها ككنز، فاستأنست بالمكان، وبدأت تتحرَّش به دومًا، إلاّ أنّه قال إنّها رخوة وكثيرة الكلام والخوف، وما عاد يفتح لها مجالاً للحديث راميًا بنظرته القاسية الكفيلة بإبعادها وهي تتمتم.

حضرتْ، على فراش وثير مُثْقَلَةً بنهديها المُرْتَجّين، وكانت نظيفة، وعادت تلك السخونة إلى أصابعي التي لامست قطعة برلون تحتضن مثلّثًا من الرعب والدفء، كانت وضحة فيها تضطجع. ثم تنهض لتأتي نشمة الغضّة المنفلتة من خطأ الجغرافيا، تأتي على مهل وتُغادر فوراً قبل أن تُعَرّي جزءها الأسفل حين ينبثق وجه خالي أبي الهايم من المشهد وفطّوم أخيراً وجسدها يلتمع وهي عارية تمامًا.

كنت أسترخي وتداهمني البرودة حين كنت أحرس أحمد الذي أصبح فيما بعد لا يحتاج حارسًا، صارت فطّوم تحرسه وتحرس لحظاتهما، تُهَيِّئُ كل شيء، الأبواب والمزالج وتُخبِّئ قمصان البرلون التي اشتراها لها أحمد، ستّة قمصان شفّافة لامست جسدها وأمرها أن تدعكه بالصابون جيّداً حين تستحمّ، صار للغرفة رائحة غريبة، لذيذة، رائحة تبغ ورجل وأجساد تتماحك بلذّة منفلتة من إطار الخدر، فطّوم تُهَنْهِنُ، تصرخ، كأنّه زوجها، أو كأنّها تستدعي الفضيحة إلى بيتها، امرأة مختلفة لا تخاف نظرات الناس المريبة.

في العنّابيّة كلّ شيء مريب، أمّي كأنّها اطمأنّت إلى أنّ خالي سينسى ويعود إلى عاداته القديمة في الحذر من كلّ شيء، وقالت لخالتي بأنّ الزمن سيداوي جروحه، ويجب أن تبحث له عن عروس مناسبة، لكنّ خالتي ارتابت في الأمر وقالت مهمومة إنّ سلمان أصبح قلقًا من الحرمان وحذراً. خالتي الطيّبة تستشير أمّي في كلّ شيء وتودعها الأسرار كلّها، وأمّي تبحث عمّن تودع أسرارها عنده. تنظر إليّ مرتابةً، وكأنّها تكتشف أنّي لن أكون سيِّد البيت وحاميه. تراخيّ مع أختيّ ورحيلي الدائم إلى منزل خالي ومغارة أحمد الذي تستعيذ من سيرته وتترحّم على أمّه التي كانت امرأة ودودة وضعيفة أمام عليّ الجمل وبخله.

خالي انقطع عن محادثة العنّابيِّين، وعن عاداته القديمة في البحث عن القوافل الضالّة كي يُزَوِّدَهَا بالتبغ والماء والتين اليابس ويستضيفها في بيته، يَعْلِفَ بِغَالَهَا ويتمدَّدُ رجالها في صدر الغرفة متحدّثين عن أسعار الشعير والتبن وعن المواسم وثارات العشائر. ما عادت تعنيه كُلّ هذه الوجوه، وكلّ هذه الأخبار، أصبح لا يسأل أحداً، وهم يستغربون هذا النفور وهذا الصمت الذي جَلّلَهُ، فلا يُطِيلُون المكُوثَ، تعود بِغَالُهم للرحيل دون أن تستريح، في بيته كنت أراه، أرتبكُ في حضوره الصامت، كعادتي أتجوَّل بحرِّيَّة في الفضاء المفتوح وأستنشق هواء القُرْبَاطَ البعيد الذي يبَقّعَ كلّ الأشياء، المَسَانِدَ وزجاجَ النوافذ، الأبوابَ وشَراشِفَ الفرَاش، صندوقَ الثياب والمساميرَ المتروكة عاريةً على الجدران، أقول لخالي أبي يزرع الشواهد، رفع رأسه وقال لي لم يزرعها بعد، ولكنّه سيزرعها. قلت له: ولكن لماذا؟ أجابني انتظر

وستعرف، ما زال كلّ شيء أمامك مغلقًا، افتح الأبواب وستعرف كلّ شيء. الأسرارُ في العنّابيّة مِلْحُ أيّامها. عاد خالي للصمت، لدخان سجائره ولرائحة قصب نايه العتيق، ينهض فأنهض معه، أقول له أريد مرافقتك، يمسك بيدي ويمضي بي.

أحسست بالحرارة وأنا أنظر في عينيه اللامعتين، سَنُفَتّشُ أرضَ القرباط، التمعت عيناي، ثيابه تهفهف مع نسمات المساء وصوت أجراسه ترنّ في ذاكرتي، شَهْنَقَات البِغَال، ورائحة الماء في الجرن، والرعيان ينتظرون أغنامهم، النساء ينشلن الماء من البئر، والحركة المفعمة بنشاط الماء المتسرّب، المبلّل بأجساد النساء، ورعشة البرودة. خالي لا ينتبه إلى أنّي معه، أسير في ظلّه وأَلْمحُ رعشته حين دخلنا البرّيّة الشرقيّة من الجهة المشرعة لخطواتنا، اختلطت مشاعري وما عدت أفهم شيئًا ممّا يحدث حولي، أَتَكَلّمُ مع خالي فلا تخرج كلماتي وخالي لا يسمع، وقف عند كلّ حجر وأطال الوقوف.

من صدر خيمة نشمة تنهض امرأة تحفّ بها الفراشات، صدرها مفتوح كأنّها تستقبل الأَلَقَ وذوبان يديه، تنهض وتمسك بالأصابع المرتعشة، كأنّه غاب عنّي، ما عدت أراه أو ألمحه. حلّق كغيمةً فوق رأسي وبَلّلَ مطره وجهَ نشمة التي تشرّبت الماء وتَبَلّلَتْ أثوابها الشفّافة فشفّ تكوينها، قال لي إنّ عَوّاد هو الذي عَجّلَ بهذا الرحيل.

الخيمة وهمٌ وأنا أبحث عن الحروف والكلمات، كلّ شيء غادرني، إلاّ خالي الذي عاد ممسكًا بي بقوّة أكبر، كأنّه يخاف أن يضيّعني أو يفقدني. يده تشدّ على أصابعي وكفّي معروقة، قال لي ونحن في طريق عودتنا: طريقي صعب اتركني يا ولدي وافتح كلّ

الأقفال، إيّاك وجوز القطن الفاسد إيّاك..، كلّ الوصايا تساقطت من بين شفتيه كأنّها اللحظات الأخيرة، وحين تركنا البرِّيَّة الشرقيّة وخَيّمَ أوّلُ الليل على العنّابيّة، وبدأت الأصوات تنتشر، عاد مرّة أخرى غيمة، سرور خفي أقرؤه على ملامح وجهه وفرح لذيذ تغلغل إلى لحظاته، كانت الكلمات تتساقط ولا أستطيع الوقوف على رصيفِ معانيها، غريبًا عَمّا يجري حولي وإن سُررت بخالي الذي أحسسته أكثر شبابًا وهو يعبر إلى غرفته تاركًا يدي، طالبًا منّي أن أبعث له سلمان حالاً دون أن تعلم خالتي أو أمّي بشيء، لاحظت السرورَ الذي أحاطه وأنا أخبره أنّي كالبرق سأخبر سلمان وأحفظ سرّه وأعود إليه، فقال لي ليس الليلة، لي كلمتان مع سلمان. سلمان كان عائداً لتوّه ويتناول عشاءه. لم يطل الأمر إلاّ لحظات، أخبرته على الباب، وتركته ورائي يلوك اللقمة في فمه ويبحث عن حذائه في العتبة، أخبرته أنّه يريده لوحده، كأنّ سلمان فهم كلّ شيء، وكأنّي فهمت كلّ شيء. مضيت إلى الحوش الواسع وكان أبي يتوسّل إلى أمّي أن تتركه بحاله وأنّه يريد النوم في الإصطبل قرب البغل فهو ينزف أكثر من أيّ يوم مضى ويحتاج أن يغسل قروحه، كي لا تتعفّن، أمّي تقسم إنّها لن تتركه ويعلو صياحها.

عائشة جالسة على الدرج ترقب المشهد باستمتاع يُغْضِبُ أمّي فتنهرها لتدخلَ إلى غرفتها، وزليخة تمدّ رأسها من النافذة وتعود إلى الداخل، عائشة تُشير لي ألاّ أَتَدَخّلَ وأن أصعدَ إلى الغرفة. صوت أبي المتوسّل، ثم المصمّم، ثم الغاضب، وبكاء أمّي فيما بعد وصوتها المخنوق المتوسِّل أن يأخذ الله عمرها ويُرِيْحَهَا، فرحتُ لأنّ أبي غَضِبَ ولأنّه

دخلَ إلى الإصطبل ومهّد القشّ في الزاوية لينام جانب البغل الذي بدت قروحه تُنْتِنُ، تنشر رائحة لم أتشمّمها من قبل، وتنزّ قَيْحًا أصفر.

في الغرفة كانت زليخة تُمارس طقوس المساء، تتحرَّك، ترتّب شيئًا ما، وأنتبه إلى أنها بدأت تكبر وأرى ملامح طيِّبة ترتسم على وجهها المتسامح دومًا، تنتبه إلى وجودي الصامت وتقول إنّ أمّي معها حقّ، ثم تمدّ رأسها من الشبّاك ثانية وتخبرني أنّ أمّي تبكي في غرفة جدّتي، وعائشة جالسة على الدرج تُفَصْفِصُ البزر، تسألني إن كنت أحتاج إلى كأس شاي، ثم تعود برأسها وترقب أرض الحوش. مساء العنّابيّة وصوت عائشة يدعوني للسهر على الدرج. أخرج وأجلس بجانبها على الدرج، تلحق بي زليخة وتأتينا ببساط نَمُدّه تَحْتَنَا وتذهب لتصنع الشاي، منذ زمن بعيد لم أجلس مع أختيّ، عائشة مسترخية كأنّها تُمارس لذّة خفيَّة في تربُّعها هكذا على المشهد أو كأنّها شامتة بأمّي. تقول لي إنّ جدّتي زارت خالي أبا الهايم في بيته وتحدَّثت معه بأشياء لا يعرفها أحد، وأنَّ العنّابيّة تتكهّنُ، ثم تعود إلى جُمَلِهَا غير المترابطة، وتسألني إن كنتُ ما زلتُ أزور أحمد الجمل. أستغربُ السؤالَ وأخمِّن أنّها تقصد أن تقول هل أعرف شيئًا عن فطّوم.. وتغمز بعينها وتتابع أنَّ فطّوم سألت عنِّي، تأتي زليخة بكؤوس الشاي وتجلس عند أقدامنا، تسند رأسها إلى رُكْبَتي وتُحَدِّقُ في فراغ الحوش. أسأل عائشة إن كانت تريد الزواج، فترفع يديها وتقول يا ريت. تضحك زليخة للآهة المصحوبة بِبُحّة صوتها وتقول لي هل سأذهب لزيارة ابن عمّي في العاصمة؟ فأقول لها لا داعي، وإنّه سيعود مرّةً أخرى إلى العنّابيّة وسنراه. يخيّم الصمت على الحوش، ونسكت

كأنّنا اكتشفنا أن لا شيء يربطنا كي نُتَابِعَ ما بدأناه وأنَّ عوالمنا منفصلة تمامًا. يا ليتني ذكر تقول عائشة وهي ترشف الشاي ولا تنتظر جوابًا أو إكمالاً لحديثها، أضحك وأسألها: ماذا ستفعلين لو كُنْتِ ذكرًا؟ قالت: لا شيء، قلت: إذن لماذا؟ قالت هيك. أمّي تخرج من غرفة جدّتي وترانا جالسين كأنّها صُدِمَتْ بالمشهد وسَمِعْتُ كلماتها التي تَشْتُمُ النَسْلَ وتأمرنا بالدخول. لا نتحرَّك من مكاننا فتتابع طريقها إلى الخارج، وتقول ستذهب لعند خالتي، وإنّها ستهجر هذا البيت، بعدها تنحني عائشة وتوشوش زليخة بكلمات لا أسمعها. ارتبكتْ ثم نهضتْ ودخلت الغرفة وعادت بعلبة تبغ، تُفَاجِئُني عائشة وهي تمدّ لي سيجارة، آخذها منها وأنا مندهشٌ أنّها تدخّن، تشعل لي سيجارتي، تُشْرِعُ سيجارتها، تتركنا وتطمئنّ على أبي وتعود. عائشة تُدخِّن كالرجال، تُخرج الدخان من خياشيمها وتستمتع بطعم التبغ، ولا ترتبك مثلي حين تُمْسك سيجارتها. تُخْبِرُني زليخة أنّ مُرافِق ابن عمّي هو الذي أعطاها عُلَبَ التبغ، وأنّها تشتري من الدكّان وأحيانًا تدخّن مع خالي حين يأتي لزيارتنا، وأنّ بنات أخريات في العنّابيّة يدخّنّ. أحبّها وهي تدخِّن وتستهتر بهذه الفناءات الصامتة، وهي تجمع من حولها البنات وتبدأ بممارسة حركات بذيئة أمامهنّ، ثم وهي تدعوهنّ للرقص، وتخبرهنّ عن أسرار تعرفها فيندهشن منها ويُسَلِّمْنَ بها زعيمةً وحارسةً لأحلامهنّ. أخرج إلى الدروب، أقول لهادي أن يُفَسّرَ لي وَلَعَ العنّابيّين بالرّوِي، فيقول لي: اترك هذه الأوهام وانتبه جيِّداً للدروب المحوّة فهي التي ستوصلك إلى الحقيقة. ابحث عن البياض فهو الذي سيوصلك إلى التدوين. يقودني من يدي إلى البرِّيّة الشرقيةّ ويجلس

على حجر، يُفْرِدُ خرائطه ويقول لي سَجّلْ وارسم. يَتَفَوّهُ بكلمات أفهم منها أنَّه يُعيد تحديد الجهات، فأقول له الجهات لم تتغيَّر، ينظر إليّ ويضحك هازئًا، الجهات تغيَّرت، الشمال لم يعد شمالاً والجنوب لم يعد جنوبًا. أقول له إنِّي لم أفهم قصده، فيردّ بأنَّني لن أفهمه أبداً، أرسم خطًّا بيانيًّا جديداً وأكتب كلمة شمال مكانَ الجنوب وأُشير بسهمٍ إلى أنّ الشمالَ هو جنوبٌ الآن. يأمرني بشطب ما كتبتُ ويحذِّرني من إضافة أيّ شيءٍ لا يأمرني به، فهو العارفُ وأنا لست إلا مُدَوِّنًا. أشطب الكلمات التي كتبتها، ويعود فيأمرني أنَّ الجنوب هو درب المغامرين الذين لم يجرؤ الكثيرون من أبناء جيله على اجتيازه لاعتقادهم أنَّه مسكون بالعفاريت والجانّ، وأنَّنا الآن سنكتشفه ونُنَقّبَ فيه. أقول له إنّ الوادي هو المركز الذي اتّفقنا عليه وأشير إليه على الخريطة إلى النقطة م، يقول: هذا هراء، تابع واستمع جيِّداً، ارسم دائرة، فأرسم دائرة، ثم يقول إنَّ مركز العنّابيّة هو مركز هذه الدائرة، وهو مزار عنّاب، فأكتب على المركز، مزار عنّاب. يقول لي القافلة ضَلّتْ في إحدى نقاط محيط هذه الدائرة. عليك تحديد هذه النقطة، قلت له ولكنَّك غيّرْتَ خُطَطَكَ، قال لم أُغَيّرْ خُطَطِي وإنّما يجب رسم الخريطة بتفاصيلها، وأخبرني أنَّه حين كان عائداً عام ١٦٩٤ من فلورنسا إلى القاهرة، ترافَقَ في الطريق مع رجل مصري. أخبره أنّ العنّابيّة هي مملكة الأسرار، والعثمانيّون ما زالوا يبحثون عن التَرِكَة التي خلّفها وراءهم الخلفاء في تلك البقاع وأنَّ الطريق ممحوّ، مفقودٌ، لذلك يَضلّونَ دومًا في الوصول إليها، ونصحني بإخفاء أصلي العنّابي لئلا أُرْشِدَ العثمانيِّين إلى الأسرار. وفي القاهرة أوصلني إلى راهبٍ قُبْطي

تحادث معه في غرفة مجاورة أكثر من ساعة ثم عاد الراهب والرجل الذي استأذنني وقال إنّي وصلتُ إلى المكان الذي سيطمئنّ فيه عليّ. الراهب كان رجلاً بشوشًا، طيِّبًا، وجهه معافى، أدخلني غرفة أنيقة فيها سرير وطاولة عليها شمعدان نحاسي ضخم، وكرسيّ وخزانة صغيرة من خشب الجوز العتيق. قال لي: استرح الآن وسأعود إليك في المساء، ثم أشار إلى غرفة صغيرة وتابع: هذا الحمّام، تستطيع أن تستحمّ فيه، تركني وذهب، تمدَّدت على السرير، وغفوت كأنّي لم أنم منذ زمن بعيد، وفي المساء عاد، أشعل الشمعدان. غسلتُ وجهي وجلستُ قبالته على الكرسيّ الآخر من الطاولة، سألني عن أهلي وعن العنّابيَّة ثم عن أسفاري والبلاد التي أقمتُ فيها. ثم دخلتْ علينا امرأة بين يديها صينيَّة عليها زجاجة نبيذ ودجاجة مطبوخة، وضعت الصينيَّة على الطاولة ودون أن تتكلَّم خرجت، صبّ لي كأسًا من النبيذ وصبّ لنفسه قليلاً من خمرٍ فاحت رائحته اللذيذة في الغرفة. استمع الراهب إليّ وقال إنَّه سيقدِّم لي هذه الغرفة لأُقيم فيها، وحين أزمع الرحيل عليّ إبلاغه قبل أيّام ليؤمّنني مع القوافل الذاهبة إلى فلسطين. كانت ألوان هادي تتغيَّر وهو يتذكَّر، تخرج الكلمات من بين شفتيه بطيئة كأنَّها تتدحرج فوق أرض وعرة أو كأنَّه لا يريد إخباري عن الحقائق التي لا أستطيع فكّ رموزها، إنما يحيِّرني انسيابها الشبيهُ بانفلات ماء في أرض عطشى. سكتَ فجأة ونظر إليّ كأنّي دَنَسٌ لا يحبّه. قال لي ماذا تفعل هنا؟ قلت أرسمُ الخريطةَ، وأكملت: ما اسم ذلك الراهب يا هادي؟ قال أيّ راهب؟ قلت الراهب القبطي، قال حين نجد الكنز ستعرف كلّ الأشياء، أنا لا أريد معرفة الأشياء، فقط لو أستطيع تمزيق كلّ شيء

والتفرّغ لاصطياد العصافير واللّوبَان في أزقّة العنّابيّة، أشارك أحمد الجمل برسم وجه اللّه، نفرد اللوحة ونبدأ بالتلوين. اليدان. الوجه. الشعر المسترسل ثم نمحو كلّ شيء.. اللّه لا يدان ولا وجه ولا أقدام، إذن نعود للتلوين بشكل آخر. ارسم يا أحمد بالأزرق، وائتني بالبرتقالي. أحسستُ بالضيق من أنّ هادي قد سكت فجأة ثم سمعت صوته مُتَابعًا أنّ ذلك الراهب كان يعرف العنّابيّة جيّدًا، وأنّه لا محالة عنّابي مثلنا واسمه جرجس. صباح اليوم التالي أتى وبيده صُرّة صغيرة فتحتها وفَرَدْتُ محتوياتها على السرير، طقم رسمي جديد أسود وبذلة أخرى مهترئة قليلاً وقميص وحذاء مع جورب، علّقْتُ الطّقْمَ الرسمِيّ على الحائط ولبست البذلة البنّيّة بعد أن استحممتُ ونزلت إلى الكنيسة، كان بانتظاري في البهو، قادني من يدي إلى غرفة جانبيّة وقال لي استمع يا بنيّ، أنت هنا ضيف وستعرف كلّ شيء ولن أتركك قبل هذا، سأناديك بميخائيل وسأقول إنّك من دمشق، وتستطيع الدخول والخروج كما تشاء. زَوّدَني ببعض النقود واستأذنني تاركًا لي حرّيّة التجوّل. الحجارة العتيقة، والفسحة البهيّة، الجدران العالية والجرس العالي، صور القدّيسين والمسيح المعلّقة في صدر القاعات تُنْذِرُ بجلالٍ رهيب، خرجت إلى القاهرة وتَشَمّمْتُ العَبَقَ كأنّي خُلقت من جديد، وكأنّ الخَرَسَ أصابني، لم أشكر الأب جرجس ولم أقل ماذا سأرث أو متى سأرحل وعمّاذا أبحث. كنت مستمتعًا بهذا الانفلات في القاهرة، أدور في الأزقّة الضيّقة وأتشمّم رائحة الأجداد والتاريخ والناس، أقف على ضفّة النيل وأرى تلك العظمة التي تُجَلّلُهُ كأنّي أرى فيضانه الآن وحسناء مصريّة تهوي من أذرع الرجال إلى عُمْقِ الماء كي

تُهَـدّئَ غـضـبـه. ذهبت إلى الأزهر وهناك خلعتُ حـذائي وصلّيت، صلّيت وتعبَّدت ورأيتُ وجهَ عنّاب قادمًا من آخر القافلة خلف المسيح والنبيّ والصحابة والقدّيسين الذين أحاطوني برعايتهم. حين أعود مساءً لأتناول عشائي مع جرجس الذي بدأ بتعليمي اللُّغة اللاتينيّة التي لم أحتج لوقت طويل كي أفكّ رموزها ثم كي أتلعثم بها وسطَ بهجةِ ومحبّة كلّ الذين كانوا حذرين في الاقتراب منّي بداية، والذين شكّلوا لي وطنًا حين جلسنا وتحادثنا وصلّينا وأرقنا النبيذ على المذبح وتمتمنا الصلوات باللاتينيَّة، وتبادلنا معارفَ السفر والأشعار وقصص التاريخ.

جرجس كأنَه تناسى أنّه سمّاني ميخائيل وبدأ يُعاملني على أنّي ميخائيل حقيقة وأنا أيضًا تناسيتُ. ماذا تهمّ الأسماء أمام هذه الأيدي الطافحة بالبِشْر، بالمحبّة، وأمام ذلك السور الذي تركني ألهو بالزمن وأُنَظّفَ ماعَلِقَ بي من تعب السفر والترحال؟ أخبرت جرجس أنّي أذهب أحيانًا إلى جامع الأزهر فابتسم بهدوء. صلاة الأحد كانت أحبّ اللحظات إليّ، كنت أرتدي بذلتي الجديدة وأفطر ثم أنزل على الدرج بخفّةٍ إلى الفناءِ وهناك أراقب القادمين، النساء الأنيقات والرجال المتسامحين، لم يخطر ببالي أنّ صوت الأرغن وضوء الشموع المنعكس على صفحة وجه ماريا سيجعلني أسير عشقٍ لن أخرج منه إلاّ وأنا مُفَتّتُ العظام أمام رقّة شفتيها وعذوبة أصابعها التي كانت تضيء. كأنَّ هادي لا يحبّ الرويّ، كلماته كانت تفيض ثم تنقطع، يتذكّر مفردات ضاعت في زحمة الأشياء التي توارثها العنّابيّون أو بعثروها مع أظلاف أغنامهم وتناسوا الزاوية التي كان يجلس فيها مستمتعًا بالشمس، أو هاربًا من ضجيج الألوان في البعيد الذي كان يتراءى لعينيه وحده

والرائحة التي ستلفّه وتتغلغل في نسيجه فتدغدغ جلده وتتركه نادماً على عودته كي يبحث عن دروبٍ طُمِرَتْ تحت حوافر البغال وهُزْءِ العنّابيِّين. كنت أنتظر بقيّة الحكاية التي أعادتني مرّة أخرى إلى نشوة الاكتشاف ولذّة التدوين، تركني هادي وحيداً في دروب العنّابيّة ومضى، قال: غداً نُكْمِلُ رسمَ الخريطة. لتذهب خزينة عبد الملك بن مروان إلى الجحيم، تعال كي نرسم وجه ماريّا الحلو وأيادي جرجس. لا تتركني وحيداً أتيه في حواري القاهرة وأتخبَّط في المعابد، أتشمّمُ الروائحَ ولا أعرف أيَّة أزمنةٍ أريد. لا تتركني وحيداً. لم يسمع صوتي ولم تكن مَلْهَاةُ الدروبِ الخاويةِ المَمْحُوّة إلاّ مهزلةً تُحيطُني بها العنّابيّة وتجعل من أنفاس عنّاب، وهو قادم مع المسيح والنبيّ وباقي القدّيسين، إلا حبالاً من الوهم أصعد بها إلى آخر سماء وهناك أقفز في الفضاء أسبح وألوب باحثًا عَمّنْ يُرشِدُني إلى ضلالاتي وسرّ الدروبِ الممحوّة. حاولتُ اللّحَاقَ بهادي، ولكن كيف؟ على طرف البرِّيَّة الشرقيَّة أحسست بخُوَاءٍ ثم بِحُزْنٍ، قلق، بهتان، فراغ، وتراءى لي طيفٌ أواخر الليل يَخِبّ على الدرب، يقطعها، يدور حولها، يلتقط أنفاساً أو يُلَمْلِمُ أشياء لا أراها. طيفٌ كنتُ أعرفه، أعرف رائحته وخُذْلانه، رأيتُ قامته في الظلام، وككلّ الغرباء يَخِبّ على درب الغياب، عرفته من قامته، من عمره المتساقط، أوهامه التي لا تُسَوّر، لا تُحَدّ، لا تنكمش. أبو الهايم بيده حقيبته التنكيّة يكتب تاريخ الغياب، أحاول اللحاق به، أحاول لملمة رائحته من على التراب، إلى أين؟ أصرخ وكأنّي صرخت ولم يلتفت، أهما عيناي تغبّشان أم إنّها الحقيقة التي انتظرتها. أبو الهايم راحل ولا سبيل إلى إقناعه بالعدول عن هذا الرحيل.

كان في أيّامه الأخيرة يبدو لمن يعرفه كالمتسوِّل ثم يبدو كالهائم، كأنّه استعاد سيرته دفعة واحدة واكتشف أنّ العمر خسارة. انقلبت الجهات أمام قدميه، لم يعد الشمال شمالاً ولا الجنوب جنوبًا، واختلط الغرب بأردية الشرق لتتربَّع الجغرافيا وتغدو الأرض مسطَّحة، مربَّعة، مثلّثة، وأبو الهايم لا يُمَيِّزُ سوى الشرق الذي تنبعث منه رائحة أثواب نشمة المهفهفة. كأنِّي أُصِبْتُ بالرَمَدِ وأنا أراه يغيب كسفينة ورقيَّة، دون أن أستطيع احتضانه ولو للمرّة الأخيرة، أو النظر في عينيه لأُذَكِّرَهُ بكلمات جدّتي حين قالت له إذا أردت أن يرقصوا فلا تعزف في كلّ الأوقات، دوزنْ نايك جيِّداً يا ولدي.. ثم قالت له وهو يغادرها، لا تتعجَّل الأشياء. الوحيدة العارفة، المُوقِنَةُ أنّ العنّابيِّين يستهويهم الرحيل بحثًا عن أوهامهم. قال لي أحمد حين دخلتُ كهفه، تَمَدَّدْ ونَمْ إن استطعت، فهو يعرف دربه جيِّداً. كان يعرف أنَّه قد رحل، وبهدوء شديد عاد لرسم وجه اللَّه، دخان سيجارته يتصاعد من وراء كتفيه ليشكِّل غمامة فأتشمَّم رائحة التبغ وأهدأ قليلاً .أتمدَّد على الأريكة الوحيدة وأنظر في السقف، فيما بعد قال لي أحمد إنَّ خالي لو لم يرحل لما كان عنّابيًّا، إذ ليس من المعقول أن يترك نشمة ويندب حظّه في هذه الأرض القفرة، إنَّه عاشق وسيقتله عشقه لا محالة. ولن تستطيع إنقاذه لأنَّه يجب ألا يُنْقَذَ بل تركه لمصيرٍ يواجهه. على الأريكة غَفَوْتُ، وفي الصباح نهضتُ متأخِّرًا. كان أحمد الجمل قد افترش الأرض ونام بجانبي، قَدّرْتُ أنَّه سهر طويلاً، غسلتُ وجهي ونَشّفْتُهُ، رتّبْتُ الأريكةَ وخرجتُ، وعلى مدخل الحوش رأيت عائشة بحركتها العصبيَّة تستعدّ للخروج إلى البئر لجلب الماء، أخبرتني أنّ أمِّي

تبكي وأنَّها قد تمرض إذ وَهنَتْ كثيراً. ولم تتوقَّف عن البكاء مذ جاء سلمان وأخبرهم أنَّ خالي قد رحل وراء نشمة وأنَّه قد لا يعود، وأنَّ سلمان أصبح وكيله في فلاحة أرضه وزراعتها، وأخبرها أنَّه سيكون بخير وسيطمئنّ عليه بين فترة وأخرى، وأنَّه يعرف مكانه وسيزوره دومًا. وقال مُهَدّئًا أمّي كما هدّأ أمّه من قبل: إنّ الموضوع لا يستحقّ كلّ هذا العويل. وخرج غاضبًا مستخفًّا من قلّة عقل النسوان. الخبر تَسَرّبَ إلى الأزقّة كلّها، وصل إلى المراعي ودخل إلى البيوت وبدأ الجميع بالتأويل والتَكَهُّنَ، استرجاع الذكريات القديمة والجديدة التي وقعت وحفرت في الذاكرة والتي لم تقع فتشكّلت في لحظة الحديث. الرجال في أعماقهم حزنوا. النساء والصبايا ابتهجن بحزن لأنّه لا يزال هناك رجل يترك وراءه كلّ شيء من أجل امرأة ويمضي إلى المجهول كي يقاتل ويقارع حتى يحظى بها، وحلمن في الليل أنّ أبا الهايم قد قارع سبعة جيوش وقطع سبعة بحار وسبعة قفار وأخيراً وصل إلى أدراجهنّ، تَزَيّنّ لَهُ وعلى فِرَاشٍ عابقٍ بالنظافة ذُبْنَ بين يديه، رجل يأتي من آخر الدنيا، مهتديًا برائحة امرأة يحبّها.

العنّابيّة تمارس تكهّناتها، تنقسم في الرأي وتُؤَلّفُ سِيَرًا وأوهامًا، ابن عبيد جاره أكّد أنّه آخر من شاهده كان خارجًا كي يتوضّأ، مرّ من أمامه ولم يستطع الكلام معه واستغفر ابن عبيد من ذلك الوجه الغضّ الذي اكتسب نضارته لِتَوّه. وأَكَّدَ أنّ خطواته كانت لا تطأ الأرض، وكلّما ابتعد أصبح مرئيًّا وكبر أكثر، وعندما لحق به أحسّ أنّه قد غاب عن أنظاره. وأقسم ابن عبيد، كما هي عادته حين يريد أن يُقِرّ حقيقةً لا تُصَدّقُ أو شاهدها بمفرده، إنّ أبا الهايم توقّف للحظات مكان خيمة

نشمة والتقط زهرة بنفسجيَّة لم تُرَ في البرِّيَّة من قبل بتويجاتها المدوّرة وساقها السامقة التي تطاولت على غفلة. وتابع ابن عبيد لمستمعيه في ساحة العنّابيّة متحمِّساً، وجهه يطفح وهو يشرح بيديه، كأنَّه يُقَرِّرُ مصير العالم وقال إنَّه حاول البحث عن آثار خطواته على الطريق الترابي فاندهش عندما اكتشف أنَّ الأرض المستوية كانت تمحو خطواته كأنّها تتآمر مع الريح، وظلّ يُقْسِمُ لفترةٍ طويلةٍ إنّ الزهرة البنفسجيّة كانت تنمو في الصخرة البيضاء التي نُصِبَتْ عليها خيمة نشمة، وإنَّ الوردة جَرَحَت الصخرة. ظلّ ابن عبيد يروي لسنوات أنّ أبا الهايم رجل عنّابي صميم وأنّه من أبطال اللّه وقد اختاره للمهامّ الصعبة ليمتحنه، وعندما أصبح ابن عبيد مُتَدَيِّناً أقسم إنّ أبا الهايم وليٌّ من أولياء اللّه وإنّه لا بدّ شفيع لنا كي تدخلَ العنّابيّة الجَنّةَ من أوسع أبوابها.

الصورة بهيجة، ما عدت حزيناً على رحيله كما كنت حين رأيت طَيْفَهُ يُغادر، بل قلّبت الموضوع في ذهني واعتبرته جديراً بالحياة أكثر من أيّ عنّابي آخر. نسي أنّ درب الغياب يجب ألا يُغَطّيه الغبار. أُهَدِّئُ من خواطر أمّي وأُخَفِّفُ من حِدّة لهجتها وهي تصف نشمة بأنّها قَحْبَة قد كتبت لأخيها عند مشايخ حلب كي يلحق بها، وأنّها إذا رأتها ستسحب نهديها وترميها للكلاب. أُهَدِّئُها، أُمَازِحُهَا، أُتَفِّهُ الموضوع رافعًا صورة خالي إلى مصافّ الأبطال، فتشيح بيدها بالسكوت وتتابع نشيجها. أتت خالتي محمرّة الوجه، باهتة العينين، صعدت فوراً إلى الغرفة حيث أمّي تنتحب، وارتفع صوتاهما بنحيب مشترك كأوركسترا تُؤدّي معزوفة حزينة. تركتُهما ونزلتُ من على الدرج، رأيت أبي جالسًا قرب باب الإصطبل المفتوح وكأنّ عينيه

تضحكان، يفرك كفّيه وشعور بالرضى يغمره لم أعرف لماذا، إلاّ أنّي قدّرت أنّه قد يكون مسروراً لأنّ أبا الهايم قد رحل بهذه الطريقة العنّابيّة. اقتربت منه ومازحته، فقال لي إنّ البغل البنّي بدأ يتشافى، وقروحه بدأت تندمل والدواء الذي أحضره من البازار قد أتى مفعولاً جيّداً، وتابع بأنّ البغل الأبيض عيناه ترمدان، وقد يكون لأوراق التين و الفقّوع الذي تناوله بشراهة دَخْلٌ بهذا الرمد، وأنّه قد سكب للبغل الأبيض القطرة في عينه وأنّه سيشفى ولا بدّ. قلت لأبي إنّ الجوّ جميلٌ والشمس خفيفة، والشتاء سيكون دافئاً هذا العام وموعد حرث الأرض قد اقترب. أشار بيده غير مكترث وقال كلّ شيء في أوانه حلو، ثم تابع الاستمتاع بالشمس الخريفيّة الخفيفة. في طريقي إلى غرفة جدّتي التقيتُ زليخة في منتصف الطريق، عرضتْ عليّ شُرْبَ القهوة فوق قرص الدرج، وافقتُ وغمزتها. تكبر زليخة خلسةً، وتُسرف في الأنوثة والطيبة والمحبّة، عيناها تبرقان بنظرات حنونة دوماً، تجعلك أليفاً معها كما هي مع كلّ الكائنات، تُغَطّي البغَالَ بأكياس خيش حين يشتدّ المطر، وتبكي على الخراف التي تُذْبَحُ في الأعياد والأعراس والمآتم، تُقَرّبُها جدّتي منها وتمسح على رأسها وهي تحاول أن تدّعي شيئاً أكبر منها، كأن تدخل غرفة جدّتي وتسألها إن كانت تحتاج إلى شيء، بينما تعرف أنّ عائشة قد أمّنَتْ لها كلّ حاجيّاتها من طعام ومياه نظيفة وتنظيف الغرفة وغسيل الثياب الوسخة، وقصّ الأظافر التي امتنعتْ جدّتي في آخر فترة عن قصّها معارضةً رغبة الجميع، رافضة مناقشة الموضوع، فاستطالتْ قليلاً، وعلّقت عائشة ضاحكة أنّ جدّتي تريد أن تَطْليها بالمناكير. لم تغضب من المُزَاح وضحكتْ، وصلتُ إلى غرفتها

ورأيتها كما هي دومًا مُتَرَبِّعَةً وسط الغرفة، لكنّ وجهها كان يُخْفي قلقًا لم تفصح عنه حين سألتها إن كانت تعلم أين هو أبو الهايم الآن أو إن كانت تعلم أنّ هادي العنّابي قد زار مصر حقيقة، أم أنّه ينسج لي حكاية كي يستمتع بدهشتي ويُغْريني برسم الخرائط لأمكنة موهومة وكنوز ضائعة. لم تجب بل سألتني عن أحمد ولماذا لا يأتي لزيارتها وهل هو مريض أم ماذا، قلت لها بأنّه يرسم وهو بصحّة جيِّدة ولكنّه يعيش في مللٍ دائمٍ من العنّابيّة وغبارها. وشعرت أنّ جدّتي تعرف أنّي أُغَطّي عليه ولا أريد إخبارها أنّه يزور امرأة ما تدعى فطّوم، سكتَتْ جَدّتي وقالت بعد قليل إنّ أبا الهايم بخير وروح عنّاب تُرافقه ولا تسمح لأحد أن يمسّه بسوء، وهذا الفعل من صميم العنّابيّة، وأنّها سترسل له رسالة تخبره فيها أن يستمرّ ويمضي إلى آخر الحبّ، والرجل الذي يذهب كي يبحث عن امرأة يُحبّها كالرجل الذي يبحث عن وطن ضائع وهي ليست غاضبة عليه وتستخفّ ببكاء أمّي وخالتي. ثم ضحكت حين رأتني جالسًا في الباب أستمتع بنسمات يوم خريف هادئ، قالت لي متى سأرحل عن العنّابيّة، قلت لها لا أدري إلاّ أنّ الموعد قد اقترب وخاصّة بعد رحيل خالي.

ذكرى ذلك اليوم ستبقى عالقة في ذهني وسأدوِّن المفردات كي أستطيع تسجيلها أو إيجاد مكان لائق لها في الحكاية، جدّتي قلقة، أمّي وخالتي توقّفَتا عن البكاء ولم أسمع همسهما المتقطّع، وبعد قليل انضمّت إليهما عائشة ثُمّ عادت إلينا غاضبةً. أنا وزليخة جالسان على قرص الدرج نحتسي القهوة ونتحدَّث بهدوء عن العنّابيّة، تُحدِّثني أنّ البنات في العنّابيّة ينظرن إليّ الآن شابًّا وإحداهنّ تغمز لعائشة كي تُدَبّرَ

لها لقاءً معي. عائشة تُهمهم غاضبة وتُشير إلى الغرفة الغربيَّة حيث أمّي وخالتي وتقول: وَكْر الجنون، وإنَّ هاتين الامرأتين لا بدّ أنّهما مخبولتان. كأنّ خالي مات أو ذهب للموت، وابتسمتْ لزليخة وغمزتها أن تُحضر لها فنجاناً، لطيبتها نهضت وأحضرت الفنجان وسكبت القهوة لعائشة التي جلست على الدرجة الواطئة وقالت بأنَّها ستقرأ لي فنجاني وتكشف المستور. قلت لها إنَّه لا مستور ولا مكشوف، وأعطيتها فنجاني وأنا منسجم في هذا الاسترخاء اللذيذ بين عائلتي، ألمحُ أبي قرب باب الإصطبل، هو الآخر كأنّه يتطلّع إلينا، عرضنا عليه شرب القهوة معنا فأشار بيده رافضًا واكتفى بنظرة حنونة إلى زليخة التي حملت إليه فنجان القهوة رغم عدم رغبته به، أخذه منها ووضعه قربه وأخرج علبة تبغه، وبعد قليل رأيت رأسه مرفوعًا وهو يغيب وسط دخان التبغ القوي. قالت لي عائشة إنَّ طريقي صعب وطويل، قلت لها قديمة فقالت إنّها لا تمزح وإنّي سأرى إن كانت لا تستطيع كشف المستور. وفيما بعد قالت لي زليخة إنّ عائشة تجمع الصبايا في غرفتها وتقرأ لهنّ الفناجين وسط صرخات الدهشة والاستحسان والتحسُّرَ والتمنّي من جميع الصبايا، حتى غدت باعتراف جميع الصبايا مستودع أسرارهنّ، ولا تمانع حين تقرأ فناجين الصبايا بفرد المستور من أحلامهنّ الليليّة بلغة سوقيّة، واضحة، بذيئة ممّا يُثير اهتمام جميع الجالسات وحماسهنّ لتكرار الجلسة بشكل دائم أو شبه دوري، ويقسمن على الحفاظ على جميع الأسرار وإنّها استطاعت إحراج فطّوم حين قالت لها في جلسة خاصّة إنّه ينتصب في فنجانها شخص غريب الأطوار لكنّه قويّ يجعل للفراش نكهة. فوجئت فطّوم وفيما بعد

اعترفت لها أنّ أحمد الجمل يزورها كلّ ثلاثة أيّام، تترك له الباب مفتوحًا وتستحمّ في الغرفة نفسها. أحمد يحبّ رائحة الصابون المتصاعدة ويأخذها مبلّلة بالماء. يُبهجها بصمته وعنفوانه حين يطويها بين ذراعيه وتحسّ بأنّ جسدها يتقصّف بين يديه، لا يترك مَسَمًّا في جسدها دون تقبيله، وأشارت من طرف عينها أنّه بالكاد يكفيها وأنّها امتنعت عن الرجال الآخرين الذين كانوا يزورونها بين الحين والآخر لأنّهم وسخون ومتزوّجون أيْ خيرهم مسحوب، كما تهمس فطّوم لعائشة وتقهقه. عائشة متواطئة مع الجميع، قالت لي اسمع واحكم بنفسك، وعادت للتحديق باهتمام مبالغ به بالفنجان، وقالت إنّ طريقي صعب وطويل ولكن سأجتاز جميع المصاعب، وإنّي منذ عدّة أيّام أُعاني من حيرة وأنظر في شكٍّ وارتيابٍ إلى كلّ شيء وهناك سرّ أبحث عنه وأشخاص لهم خيالات أراهم كلّ يوم وأُحَادِثُهم وهؤلاء أشباح يجب أن أبتعد عنهم كي أرى طريقي جيِّداً وألاّ ألتفت ورائي، وأشارت بإصبعها أن أرى ذلك في الفنجان شارحة لي هذه البقعة هي الأشباح وذلك الخطّ الأسود هو الطريق الصعب والطويل. لم أرَ شيئًا إلاّ أنّ زليخة نَبَقَتْ برأسها وأكّدت صحّة كلّ ما قيل واستعاذت باللّه. ثم تابعت في منتصف الطريق هناك خيال امرأة، ثم أكّدت بلهجة واثقة بأنّها امرأة، وقالت ستكون محبوبًا من النساء ولكن احذر منهنّ، وهناك أكثر من واحدة تشدّك إليها ولن تفوز بك أيّة واحدة سوى التي تمشي معك الطريق الطويل والصعب. لم أعد أسمع ما تقوله، انتبهتْ عائشة إلى شرودي فلكزتني وأخرجت علبة سجائرها من صدرها وقالت لي أعطني كبريتًا، أشعلتْ سيجارتها وتركت صفحة وجهها لنسمات

الخريف، رأيتُ لأوّل مرّة في وجهها ذلك الحرمان الطويل وأدركت أنّها امرأة يليق بها التمرّغ على العشب عارية بين يدي رجل يستطيع احتواء جسدها المكتمل. نهدان مكوّران قويّان أسمران، وحلمة أراها تنبثق من تحت الثوب الضيِّق الذي تُصِرّ على ارتدائه، رغم معارضة أمّي وصراخها المستمرّ أنّها دائمًا كالعروس. ثيابها نظيفة، ليست كباقي بنات العنّابيّة، وتفوح منها رائحة عطر لا أعرف من أين حصلت عليه. قالت لي زليخة فيما بعد إنّ فاطمة حين عادت من بيروت تركت لها عطورًا وأدوات تجميل كثيرة ومراهم وثيابًا فاضحة تلبسها حين تكون وحيدة أو حين تكونان وحيدتين في الغرفة. تروح وتجيء بألبستها الشفّافة المخجلة وتقف أمام المرآة تُقَرِّبُ المرآة من فرجها وتضحك ثم تُعيدُ خلع ملابسها تلك وترتّبها مرّة أخرى في صُرّة وتُخفيها في قعر الصندوق. وأكملت زليخة أنّ عائشة لا تنام إلاّ وجزؤها السفلي عارٍ وأنّها لا تخجل. زليخة تقول كلّ شيء كأنّها توأمتي أُحِسّ بها عن بُعْد، بأحلامها الصغيرة وحبّها للناس، غيرتها على أهالي العنّابيّة وتقديسها لجدّتي، كأنّها كنزي الذي سأظلّ أكتشف أنّي مُقصّر بحقّها. اكتشفتُ فجأةً صديقة وسط هذه الخرائب كبرت فجأة في الظلّ وخرجت الآن لتقف إلى جانبي باحثة عن طرائق السرد ومفاتيحه، وتنتبه زليخة إلى أنّ أبي أنهى شرب قهوته وكأنّه يريد شيئًا آخر. تُسرع في نزول الدرج وتقترب منه، تمسك بيده وتنهضه، أبي يقف فأرى قامته المحنيّة لأوّل مرّة. فوجئتُ بحركته البطيئة وظهره المُقَوّس من أعلى قليلاً وضَعْفِه الذي لم ألاحظه من قبل كأنّه هَرِمَ دفعة واحدة أو اقترب من الموت أكثر ممّا كنت أظنّ أو تظنّ أمّي. دخل إلى الإصطبل وبعد

قليل خرج ومضى إلى غرفة جدّتي، قالت لي عائشة إنّها سمعته يبكي منذ أيّام وكانت شهقاته المتقطّعة خفيضة وتُنْذِرُ بأنّ شيئًا ما سيحدث، وأنّه ليس بالصورة التي نراها.

فسحة الدار أمامي تُطبق عليّ، لا أريد تصديق أنّ كلّ شيء مضى. وقع حوافر الأحصنة ورائحة البغال وهي عائدة من حرث الحقول، صوت أبي المجلجل، الضاحك حين يعود من راجو، بغاله المحمّلة بالفحم، جَلاَلُهُ حين تأتي أمّي كي تأخذ أرسان البغال وتُحَضّرَ له الماءَ الساخنَ كي يستحمّ، خوفها أن تأتي بحركة لا تعجبه لئلاّ يُحيلها بنظراته إلى كائن ذائب من الخوف، ثم ضحكاته المنبعثة من غرفة جدّتي وهو يُحَدِّثُها بصوته العالي عن رحلته وعن تجارته المزدهرة والتي لا يرغب بتوسيعها أكثر كي لا يصطدم بقطّاع الطرق أكثر والمتنفّذين في عفرين وجبل الأكراد. تبتسم جدّتي فيرنّ صوتها قويًّا، واضحًا دون اهتزاز، ثم الرجال في الغرفة الغربيّة ورائحة الشاي والتبغ ونسمات الليل الندي. صوت أبي وهو يتكلّم، والرجال يوافقونه على كلّ ما يقول. لا أريد تصديق أنّ الغبار قد غطّى كلّ شيء، ألوذ بأثواب أمّي وهي تتحسّرُ على تلك الأيّام، وتشكو من الهجران متشوّقة عطشة للعزّ الذي كانت تشعر به يُهَيْمِنُ على المكان، ولذّة العيش مع رجل قويّ تنتظر الذوبان بين يديه، كان لا ينتظر أن يضمّه الفراش النظيف والعابق برائحة الغار حتى يأخذها في حضنه العاري على العتبة بينما تفوح من جسمه رائحة الماء الساخن والجنس.

في غرفة جدّتي كان أبي جالسًا على العتبة محدِّقًا في الزاوية، قال لجدّتي ألم يحن موعد زرع الشواهد؟ أطرقت برأسها في الأرض

كـأنّهـا حزينـة أكثـر من أيّ أزمـان أخـرى. جدّتي بـأذيالهـا، بثيـابهـا، بجلالها، تجعل من التنبّـؤ تفاهة ومن الحقائق أوهامًا كبيـرة، يتابع حديثه عن الملل بصوت مُتَرَاخٍ ويتكلّم عن المواسم المقبلة دون الإشارة إلى أيّة رغبة محدّدة، فقط يتكلّم، لاحظتُ أنّ صوته مشدودٌ أكثر، وهي تتابع صمتها. رفعتْ رأسها عن البساط المتشابك الألوان وقالت إنّ زرع الشواهد لم يحن بعد، انتبهت إلى وجودي واقفًا على الباب أخاف الدخول، أحسست أنّ هذه اللحظات لا تخصّني، انسحبت وعدت إلى أرض الحوش الواسع. ما زالت عائشة تدخّن، تستهتر بالمكان، بأمّي، بأبي، بجدّتي، بذكورتي وتدخّن، أخرج إلى العنّابيّة أبحث عن أنفاس ضلّت طريقها، العنّابيّون يسترخون أمام أبواب منازلهم، النساء يثرثرن، والرجال ينظرون في الفراغ أو يتحدّثون بكلمات مُكَرّرَة منذ الأزل، كأنّ المكان مذ خُلق والعنّابيّون يتقمّصون أرواح أجدادهم ويُعيدون أدوارهم على المسرح. الماكياج نفسه، الوجوه نفسها، الحوار نفسه، الخشبة نفسها والزمن متوقّف على تلك البوّابة التي لا ترغب بالإجابة عن أيّ سؤال. طعم الحموضة أُحِسّهُ تحت لساني، يذوب في فمي، أريد أن أبصقه، فلا أستطيع. المرارة تُغَلّفُ الوجوه، الاستكانة، الرضا الباهت، أحمد الجمل في كهفه يحدّق في لوحته وينهض مرّة أخرى كي يُعِيدَ مَحْوَهَا. يقول لي إنّ وجه اللّه يشوبه الغموض ولا يستطيع تبيان ملامحه وسط الضباب الذي سار وسطه بالأمس حين غادر إلى مدن لا يعرفها. دخل أديرة ووقف على أبواب جوامع، تأمّل في الزخارف والألوان المتداخلة، في الزجاج المعشّق والبسط الممدودة، تأمّل في سبّحات المشايخ ووجوه المصلّين وثياب الإمام البيضاء حين

صعد إلى المنبر وبدأ يَعظُ الناس المطأطئين كأنَّهم مُقَادونَ إلى حَلَبَةِ الإعدام. ضاع في مفاتيح المعابد وجال في الرمال ولم يستطع تبيان الملامح، استرخى أحمد وهو يُحَدِّثُني عن ماهيّة الأزرق حين يتداخل مع الأصفر، وأَسْهَبَ حتى كأنِّي ما عدتُ أسمعه وهو يُرَدِّدُ موت وحلم، وكنوز مفقودة، قال لي إنَّه سيهجر العنّابيّة قريبًا. ولا يعرف إلى أين يريد ترك هذا المكان، هكذا أحمد أبدًا يحلم بأمكنة بعيدة وبألوان غير موجودة، وبانتظار دائم. الكتاب الفرنسي المرميّ على الطاولة منذ زمن بعيد غطّاه الغبار وما زال مفتوحًا على الصفحة نفسها منذ أكثر من ثلاثة أشهر، قال لي إنَّه مَلّ محادثة نفسه، يريد أحدًا يُحَدِّثَه، امرأة تدخل فَتُرَتِّبُ له المكان ويتيهان معًا في الشوارع الخلفيّة لمدن بعيدة، غامضة، مفاجئة، يرسم التفاصيل كأنّها الآن ستدخل وتخطفه عابرة البوّابات، وطائرة فوق الدروب. ينتظر شيئًا ما، ولا يُفصِحُ عنه، يتكلَّم عن الأشياء كلّها دفعة واحدة حتى أظنّ دومًا أنَّ كلماته مفكّكَة وغير قابلة للترابط أو التوازن، يعود مرّة أخرى للوحته، وتحفّ به رائحة التبغ.

المساء في العنّابيّة الآن أكثر برودةً، يُبَشِّرُ بشتاءٍ قاسٍ، يحتاط له البشر بتكسير الحطب وتنظيف المدافئ وروث الأغنام والأبقار القليلة، يحتاطون بالمعاطف القديمة، تُخْرِجُهَا النّسَاءُ من الصناديق، يغسلنها من روائح النفتلين والعثّ والعَفَن، ويُعَلّقْنَهَا على المشاجب. الرجال يخزنون التبغ والثرثرة ويتحايلون على الملل والتثاؤب. جدّتي تفتح باب غرفتها وتنتظر المطر لتُحَادِثَهُ هو الذي يحمل لها أخبار البعيدين وتُحَمّلَهُ الأشواق والوصايا، تنتعش حين يصخب المطر، وتعود لرسائلها المدسوسة في القوارير الزجاجيَّة المحكمة الإغلاق، بانتظار من يحملها

للبحر. يقول هادي إنَّه تلقّى رسالة منها حين كان على شاطئ الإسكندريّة تأمره فيها بالعودة فوراً، ويُخبرُني أنَّه تلكّأ قليلاً ولكنَّه عاد بعد ذلك واعتذر عن التأخير وهي طَبْطَبَتْ على رأسه وأغلقت الباب كي يتحادثا على انفراد وتسمع منه الحكاية كلّها.

لا يتركني هادي العنّابي، يلاحقني ظلّه، يغيب قليلاً ويعود متربّعًا في أحلامي وجهًا نضراً ويدين نظيفتين وذقنًا حليقة دومًا، عكس العنّابيّين الذين يُغَطّي الغبار وجوههم، يقول لي إن أنهيتُ رَسْمَ الخريطة سيَغيبُ إلى الأبد ويتركني لمصيري. قلت له إنَّه يتلبّسُني ولا يتركني، وطلبت منه الابتعاد عنّي كي أكون مُحَايِداً في نظرتي للمشهد وأضفت بأنّي قادر على رسم وجه ماريا الحلو. إلاّ أنّه لم يأبه لكلّ هذه الكلمات وقال لي: أَعِدْ رسم الخطوط البيانيَّة من جديد.

أيّ عبثٍ هذا أن تُعيد رسم خطوط رسمتها للمرّة الثالثة أو الرابعة أوالألف، فيقول لي إنَّ الخطوط التي أرسمها تُمْحَى بسرعة وتعود الأوراق التي بيده إلى بياضها الأول وعَتَمَتِهَا، فيقول لي اصبر، فالصبر هو الطريق إلى جوهر الحكاية. أتحاشى أن أُغْضِبَ هادي فيغيب دون الوصول إلى الأوراق المدوّنة والحقائق التي لا تكتمل الحكاية بدونها، فأغدو باحثًا طوال عمري عن خطوط باهتة لأمكنة مندثرة وتاريخ ممحوّ، يقول لي ارسم. المركز م، وارسم محور السينات ومحور العينات، أرسم ما يطلبه منّي بصمت واستهتار يلحظه فيحجم عن متابعة كلامه ويهمّ بتركي وتوديعي. أرتبك وتتلعثم الكلمات فتخرج باردة، متقطّعة، معتذرة، يقول لي إن وجدتُ الكنز لي الحقّ في توزيعه كيفما أشاء ولي الحقّ في بناء العنّابيّة مرّة أخرى كما أريد وسأصبح

ملكًا دون أن يدري أحـد، أو بإمكاني إعـادة الملك المخلوع إلى عـرشـه، ويقول لي في الكنز خاتم الملك وعصا الخليفة التي كان عبد الملك بن مروان ينتظرها بعدما أَمَرَ صُنّاعَ سمرقند بصنعها وكَلّفَتْ أموالاً طائلة تلك التحفة المشغولة بعناية فائقة موشّاة بخيوط الذهب وعبارات التبجيل لسلالة بني أميّة والتَغَنّي بمحاسن دمشق. وقال لي إنَّ عبد الملك بن مروان أصابه غَمّ شديد حين علم بفقدانها. أستمع إلى هادي وأتيهُ في المكان الذي بدا لي غير الذي أعرفه، يجذبني من يدي ويُخْرِجُني من نطاق الجاذبيّة فأشعر بأنِّي قادر على الطيران والتحليق فوق المدن والبيوت وقادر على رؤية الأشياء من خلف الجدران، قادر على رؤية عائشة وهي تتمدَّد في فراشها ونصفها السفلي عارٍ وبأصابعها الخمس تُشَكّلُ ما يستبيح عذريّتها فتتبلَّل وتمتلئ مسامّاتها باللّذّة، تتلوّى في الفراش الدافئ، تحلم وتعرق وتنام مُنْهكة. زليخة على الفراش المقابل تستمع إلى زفراتها وتكتشف أيضًا أنّها بحاجة لمن يُسكت صراخ جسدها المُتَفَتّقَ للتوّ، فيبعث بالزغب النابت على ضفاف المشفرين وتهدل في سمائها الذكورة، ما لم تقله لي أنَّها بدأتْ تَتَرطّبُ وترمي خرقها الملوّثة بدماء الدورة الشهريّة مع خرق عائشة أو تغسلها بالسرّ، وبأنّها أيضًا تُكابر كي لا تعوي كعائشة التي لا تخاف أن تفضح رغباتها العارمة برجل يفتضّ أنوثتها ويبعثرها فينعشها، أتابع الطيران فوق البيوت وأرى أحمد وهو يخلع حذاءه على عتبة الغرفة وفطّوم تنهض من فراشها تقول له تأخّرتَ، ولا تنتظر طويلاً، لا تنتظر كلماته وأعذاره، فتحتضنه وتقوده إلى فراشها النظيف، تُعَرّيه وتُمَدّدُهُ. ثوبها الشفّاف يكشف عن تكويرة كتفيها وعن صدرها، فيلمع نهداها

الطافحان بسمرتهما وصلابتهما الملتحمة مع السوتيان الشفّاف. أحمد يتشمّم عطورها، عاريًا تتدلّى زوائده، وتتحفّز يداه، يحتضنها، يقبّل شفتيها، ويذهبان في اللّذّة والهنهنة، يتشمّم مساماّتها ويتشبّعُ بأنينها حين يُعَرّي جزأها الأعلى ويدعك نهديها بين كفّيه فتصرخ مكتومّة من اللّذة، تُعطيه حلمة نهدها الأيسر وتتصاعد فيه، تريد اختراقه برجليها الملفوفتين حول حوضه. أحمد يُقَبّلُها من كلّ الأطراف ويُمسك بحافظ أسرارها كأنّه يمزّقه ويتداخلان، تصرخ، تعرق، تتلوّى وهو يغيب في النشوة وهي تتمتم بكلمات غامضة غير مفهومة لا أسمعها وأنا مُحَلّقٌ فوق سمائهما.

أطير أو كأنّي طرت ورأيت خالي وقد أصبح مهرجان ألوان، يقول لي هادي ستطير يومًا ما، استمع الآن. أعود من غيبوبتي اللذيذة وأكتشف كم هو ممتع أن تطير وتدخل من كلّ الجدران والنوافذ والأبواب المغلقة وتُعيد كتابة التاريخ محافظًا على حرارة الأنفاس وقساوة الحقيقة، يقول لي هادي لا تَعُدْ إلى شرودك وإلاّ تَرَكْتُكَ وعدت، عليه إكمال رسم الخريطة. ارسم خطًّا مائلاً من بداية س إلى نهاية ع، وقِسْ لي المسافة، أريد التأكّد أنّ الكنز لم يخرج عن نطاق حدود العنّابيّة والسيل لم يجرفه أبعد من الوادي. أخبر هادي بأنّ المسافة التي يتكلّم عنها هي سفح الوادي. فيقول لي بصوت عالٍ: عظيم، الآن بدأنا نصل، الذهب في سفح الوادي ولم يذهب بعيداً، ارسم لي مخطّطًا لسفح الوادي من شمال العنّابيّة إلى جنوبها. أقول له دعنا من الرسم الآن. أريد أن أسألك ماذا أحضرتَ معك من القاهرة؟ ولماذا لم تأتِ حين التقطتَ رسالة جدّتي عن شاطئ الإسكندريّة؟ هادي

يغمغم إلاّ أنّي أرجوه أن يحكي لي شيئًا عن ماريّا، فيسترخي وأسمع كلماته حنونة حين يقول القاهرة. القاهرة. القاهرة. آه يا جرجس أين أنت الآن، ماريا وجه حلو أبيض، مستدير، طيِّب، وقامة رشيقة، يلفّها ثوب أسود طويل ويصعد حتى الرقبة حيث قبّة البياض، كانت تقف في الصفّ الثاني دومًا مع طفل في العاشرة من عمره تقريبًا. وكنت أقف قريبًا منها، أختلس النظر إليها، شاردًا عن كلمات جرجس وهو يردِّد أبانا الذي في السموات. أقيس قامتها وبياض بشرتها الهادئة، تلاقت عيوننا أكثر من مرّة، كلّ أحد كنت أنتظرها، لم أقل لجرجس إنّني أحبّ صلاة الأحد، وأنا أعرف القاهرة الآن شبرًا شبرًا، جُلْتُ في أزقّتها، في حواريها، دخلت جوامعها وجالست رجال الدين المهفهفين بالأبيض ولكنّي كنت أبحث عن ماريّا التي اقتربتُ منها مرّة بعد أن وقفتُ قريبًا منها، وبعد القُدّاس عرّفتها بنفسي، فقالت أهلاً ثم أتتني بطقم جديد وقالت لأنّني غريب هنا يجب مساعدتي، وبعد ذلك رافقتها في صمت من الكنيسة بعد الصلاة، لم أَسرْ معها، إنّما تركت مسافة بيني وبينها، كانت تَحُثّ الخُطَى وتنظر إليّ مبتسمة، طفلها الذي ما زال مُعَلّقًا بيدها كان يطير في الهواء ويقفز فتنهره ألاّ يُفْسِدَ ثيابه النظيفة، وصلتْ إلى باب دار خشبي عتيق، وتركته وراءها مفتوحًا، ثم وقفت بالباب وقالت لي تفضّل، وأشارت إلى غرفة جانبيَّة دخلتها وتشمّمت رائحة النظافة، أبهجتني ألوان الأرائك المائلة إلى البرتقالي. في صدر الغرفة أريكة طويلة وفوقها على الحائط صورة للعذراء وأيقونة، الجدران بيضاء كلسيَّة والبساط الممدود على الأرض كأنَّه خارج للتوّ من المغسلة، تلتمع ألوانه وخيوطه، كلّ شيء يلتمع،

ويدا ماريّا التي دخلت تحمل صينيّة مفضّضة عليها فنجانا قهوة صبّتهما ورأيت عنقها وهي تميل على الصينيَّة مرحّبةً بكلمات مقتضبة وتتمعّن في وجهي المرتبك، قالت إنَّها تعيش مع ولدها بعدما توفّي زوجها منذ ثلاث سنوات، وأهل زوجها يقيمون في الدار الكبيرة المجاورة وإنّه ترك لها متجراً صغيراً تُؤَجّره وتصرف على ولدها ونفسها. سألتني عن الشام وأهلي، ارتبكتُ وأخبرتها أشياء كثيرة لا أدري إن كانت عن الشام أم مالطة، عن العنّابيّة أم روما، إلاّ أنّي كنتُ أروي لها الكثير من الطرائف. حين غادرتها نهضت لوداعي وقالت تستطيع زيارتي نهاراً، ومَدّتْ يدها التي أحببتُ الاحتفاظ بها بين أصابعي طويلاً، إلاّ أنّها سحبتها وأطرقت رأسها في الأرض غير أَنّي رأيتُ ابتسامتها. ماريّا. ماريّا. أصبحت أُرَدِّدُ اسمَهَا ويرتسم خيالها الهادئ أمامي. جرجس قال لي إن كنتُ سأغادر يستطيع تأميني مع قافلة ذاهبة إلى القدس، قلت له أنا سعيد هنا وشككتُ أنّه يعرف كلّ شيء عن سرّ سعادتي بعدما أخبرته أنّي اشتقتُ للعنّابيّة، لحجارتها، لغبارها، ولكلّ شيء، ضحك جرجس بطيبة وقال ليكن الربّ معك، وتركني كي أتناول فطوري ثم أذهب لمتابعة دروس اللاتينيَّة التي لم أعد أفهم الكثير من مبادئها وكان جرجس مُصِراً أن أتعلّمها لأنّ الكثير من الوثائق مكتوبة بهذه اللغة ويجب أن أقرأها بنفسي إن كنت أريد فهم تاريخ العنّابيّة والعالم، وكنت أَعِدُه بدراستها حتماً، وتكثيف جهودي، إلاّ أنّ الدرب إلى بيت ماريّا كان بهجتي، أَقْطِفُ ورداً من فناءِ الكنيسة وأُخْفيه تحت الجاكيت، أُرتّبه. ثم أنتظر الوصول إليها كلّ عصر، أَلِفَتْ زيارتي وقالت لي إن غِبْتُ تشتاقني، تفرح بالورود

وتبتسم، ثم تأتي بقهوتها، تحدّثني وأسمعها، تتساقط الكلمات من شفتيها كعسل ألتقطه، يغمرني هدوء داخلي وسلام كبير، أوّل المساء يجب أن أغادر وأترك ماريّا وحيدة مع ولدها لكنّني عدت إليها ليلاً.

ذات ليلٍ، لم أستطع فراقها، طفتُ الشوارع وفي غرفتي لم أستطع النوم، أخرجتُ الإنجيل ولم أستطع تركيز قراءتي، كانت تتقافز بين الأسطر، وجهها يرتسم مع وجه العذراء والمسيح. لبستُ ثيابي وخرجت إلى الشارع. كلّ شيء موحش، القاهرة نائمة، كانت حوالى العاشرة ليلاً، الصمت، ورائحة الحجر العتيق، وصلت إلى مفرق دارها وقلبي تصاعد بعنف وخوف، خِفْتُ أن ترفضني وتحرمني من لقائها، أن أُسَبِّبَ لها أيّة مشكلة مع ولدها، مع أهل زوجها أو مع سكّان الحيّ. كنت أتمنّى لو أطير، أُحَلّق فوق البيوت وأقرع نافذتها ثم أتسلّل إلى حضنها. وصلتُ إلى الباب وقرعته خفيفًا ثم انتظرت، قرعتُ مرّة أخرى وكنتُ أَتَلَفّتُ خائفًا، خجلاً، وسمعتُ وقع خطواتها على الأرض وصوتها يسأل عن الطارق، سمعتُ صوتي وهو يتنحنح، فَتَحَتِ الباب وكان الظلام يُغَلّفُ كلّ شيء. رأيت بريق عينيها، وأطرقت رأسي خجلاً، سمعتُ كلمة تفضّل تهمس بها همسًا، وقادتني من يدي بعدما أغلقت الباب الخارجي. في ظلام الغرفة احتضنتها وقبّلتها قبلة طويلة، على شفتيها، على خدّيها، على عنقها، وقبّلت يديها. أجلستني على الأريكة وقالت سأعود انتظرني. كنت أنتظر ربّتي، رأيت وجه العذراء على بصيص الضوء الخفيض الذي أشعلته ماريّا، فرسمتُ علامة الصليب وصلّيتُ لها وكأنّي رأيتها مبتسمة وقلت باركينا يا أمّنا. عادت ماريّا، فرشت الأرض، شَمَمْتُ رائحة طيِّبة حين

مَدّت الشرشفَ الأبيضَ ووضعت مخَدَّةً مُطَرّزَةً وقالت سأعود. خطفت قبلة منِّي، وقالت بعد أن ينام الولد. كلّ لحظة بقرن، وأحسب كم قرنًا انتظرتُ، تلهّفت في الظلام وانتابني الحنين إليها، كدت أفقدُ طاقتي على الانتظار، لملمتُ شَهَقَاتِهَا، عِطْرَهَا، ملامسها فوق الأرائك، رأيتُ الورد الذي حملته لها مركونًا على طاولة صغيرة، فرفطته وملأت كفّي بتويجاته. آه ما أصعب الانتظار، ما أطول تلك اللحظات!

كان وجه هادي يَشعِ، يكتسب نضارة لم ألحظها، ملامحه طفحت بشراً وضوءاً واكتسى صوته رقةً، كأنّي لا أعرفه، أو كأنّه قد وُلدَ من جديد، كأنّه ذاهبٌ الآن للقاء ماريّا. مرّة أخرى تناسى وجودي تمامًا وغاب في نشوة الانتظار الذي طال كما قال، ثم سَمِعَ أُكرةَ الباب تُفْتَحُ وماريّا تدخل بثوب أبيض شَفّاف، شعرها مفرود على كتفيها، وقفتْ على العتبة ونهضتُ عن الأريكة. الآن ملكتي، ربّتي تدخل، ويجب أن أُقَدّمَ لها فروض الولاء والطاعة، اجتزتُ الغرفة وفي العتبة قَبّلْتُ يديها فَشَمَمْتُ رائحةَ الورد، كانت رائحة عطرها تفوح منها، تلفّني وتطويني، تتركني فوق أرض الشام في تلك الجنائن، أو تُخرجني الآن من نوافير روما طفلاً اغتسل للتوّ بصرخة الحياة الأولى. حملتها بين ذراعيّ وأشارت إليّ ألاّ أُصْدرَ صوتًا، هززتُ برأسي ومدّدتها على الفراش، كلّ شيء خُلق من جديد، اللّه والأديان والبحار، الحدائق والمدن والروائح، قبّلتها من قدميها وتشمّمت رائحة النظافة، أنثى بأريجها تُشَكِّلُ رجلاً، جذبتني نحوها وغبتُ في رِقّتِها، ماريّا خلقتني من جديد. دَقّتِ الكنائسُ من جديد، قام يسوع وباركنا، رأيتُ وجهَ النبيّ غامضًا. ماريّا فتحت قلبي، نظّفته، قذفت بكلّ

الأسماك الميتة، والحيتان النافقة على الشاطئ، أحالت كياني إلى شتلة ورد. كنت أتمايل بين يديها وبودّي لو تتشكّل البراري مرّة أخرى كي نركض فيها حفاة، تجرح قدميها كي ألعقهما بلساني وأغسلهما بزيت الزيتون ثم أضمّدهما بأوراق الورد، حملتُ لها كلّ وردِ الكنيسة، عدتُ طِفْلاً من جديدٍ، يَخْرقُ القوانينَ ويتجاوز المحرّمات ويُعيد اكتشاف المدن باحثًا عن الأريج، يا لجسدها الرائع. نهداها الهادئان. جسمها الأبيض. ورائحة شعرها حين أدفن وجهي في أدغاله، كانت ماريّا كأنّها تصلّي أو تبتهل في الفجر. قلت لها أحبّك وسنتزوّج، أنتِ أرض عطشى وأنا شجر مُتَيَبّسٌ يا ماريَا. في ذلك الفجر صَلّيْتُ في جامع الأزهر وكانت روحي متناثرة، محلّقة فوق المآذن، عدت إلى غرفتي فإذا جرجس ينتظرني، دعاني إلى القهوة وقال لي بأنّي خرجت باكراً هذا الصباح، جرجس بلطفه يأسرك، قلتُ له لقد صلّيت الفجر في الأزهر فطبطب على كتفي ونهض ليتفقّد الكنيسة كعادته كلّ صباح، لم أشعر بنعاس، بقيتُ ساهراً منتظراً ماريّا والليل. ليل القاهرة التي أصبحت مدينتي، منحتها ماريّا لي هكذا فجأة، ما عدتُ أُحِسّ بغربتي ولا بضيق ولا بشوق. صارت ماريّا وطني، أسرني ذلك الباب الخشبي وهو يُفْتَحُ وتلك اليد البيضاء التي تمتدّ كي تُمْسِكَ أصابعي وتقودني إلى الغرفة، قلت لجرجس إنّي أحبّ ماريّا، فقال بأنّه يعرف ويُبارك هذا الحبّ، يا لجرجس، يا للوجه الطافح بالخير، كأنّه سار درب القدس مع المسيح وعاد مع الأنبياء بعد أن اجتاز كلّ البحار واحتمل الآلام، دربٌ مَشَاهُ وحده فبقي وحده حافظ الأسرار. قلت لماريّا إنّي مُسلم واسمي هادي العنّابي وليس ميخائيل وإنّي هنا عابر طريق قادته

الأقدار والمصادفات كي أكون مؤتمنًا على سرّ من أسرار العنّابيّة يجب أن يُحَمّلَني جرجس إيّاه، وأضفت بأنّني أحبّها وأحبّ أظافرها ورائحة شعرها ووَقْعَ الهواء على صفحة وجهها، قلت لها أنت يا ماريّا مدينتي، وسنتزوّج، بكتْ بحرقة واحتضنتني ولم تفه بكلمة، ودفنت وجهها في صدري، أمسكت وجهي بين يديها وقبّلتني ولم أسمع صوتها.

في اليوم التالي قال لي جرجس إنّ ماريا سافرت إلى الإسكندريّة وتركت لي شيئًا مغلّفًا، أعطاني إيّاه وصعد إلى غرفته. قال إنّه سيرتاح قليلاً وإنّه عليّ أن أحضّر نفسي لدرس اللّغة اللاتينيّة، لم أسمع الكلمات ولا أريد سماع تلك الحقيقة، صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي. كان وجهها مرسومًا على الحائط، فوق السرير والطاولة، فضضت المغلّف اللّيّن السميك، كان وجه المخدّة المطرّز، المخدّة نفسها التي امتزجت أنفاسنا عليها، قماش أبيض ناصع مطرز وعليه كلمة (ماريّا ـ القاهرة)، يا للقاهرة! ضعت في أزقّتها ليلاً، لم أعد أستطيع النوم. كلّ يوم أصل إلى ذلك الباب الخشبيّ وأبحث عن وجهها الحلو بين وجوه المصلّين، قلتُ لإمام الأزهر إنّي سأتزوّج ماريّا، ضحك وقال على بركة اللّه يا ولدي، العشق عبادة. كأنّه كان يعرف كلّ شيء فرأف بحالي وأحبّ مسايرتي، وجرجس قال لي فيما بعد إنّ ماريّا لم ترفض الزواج لأنّي مسلم بل لأنّها لا تستطيع ترك القاهرة وأنا لا أستطيع ترك العنّابيّة. كم كرهت الأمكنة! وأحببت ذلك المجلّد الذي أعطاني إيّاه جرجس وأخبرني أنّه نصوص لاتينيّة تحكي عن الشام والعنّابيّة وحلب وبيروت، وتسجّل الكثير ممّا لم تقله الكتب الرسميّة، وشرح لي أنّها أكبر أمانة الآن بين يديّ ويجب أن تصل. استأذنته في وداع ماريّا،

أعطاني عنوانها في الإسكندريّة ونقوداً، وقال إنَّه ينتظرني، من بحر إسكندريّة التقطت رسائل أمّ مسعود، وقلت لماريّا وهي تسير إلى جانبي على الشاطئ إنّنا يجب أن نتزوَّج وعليها أن ترحل معي. لم تتكلَّم ماريا، فقط لوّحت لي من رصيف الميناء والمركب يغادر، حملت المنديل الذي تركته لها، تشمَّمته وأدارت ظهرها لتغيب عنِّي وسط الزحام، كانت رسالة أمّ مسعود السادسة كما هو مدوَّن على صفحتها الأولى، قلت لها فيما بعد إنِّي لم ألتقط الرسائل الخمس ولكنّي كنت أحسّ بوجودها، قلت لها إنّ الأوراق بين يديّ الآن.. وأخبرتها عن ماريّا فضحكت وقالت كان يجب أن تأتي معك. لم أعرف ماذا جرى لهادي وهو يراني صامتًا بجانبه ألتقط حروفه وأُشَكِّلُهَا كلمات، فجأة عاد إليه طبعه الشرس وقال لي ضاع كلّ شيء، لقد ضاع كلّ شيء، وكلّ كتب العالم لن تسعفني، ثم نهض فجأة وقال ابتعد عنِّي الآن فقد مللتُ، وسمعته يردِّد: ضاع كلّ شيء. ويمضي، كانت ماريّا بجانبه امرأةً تُصَلّي للنجوم وتمحو خطواته، لم تسعفني الكلمات لأنادي عليه كيلا يتركني لحيرتي مرّة أخرى، غاب عنّي هادي وبقيت النجوم في السماء ويد ماريّا البيضاء تنهض كي تقطفها. أحسست بخواء رهيب وخوف من الضياع، من أن يتيه هادي عنِّي ويتركني أتخبَّط في الظلام باحثًا عن ذرّة ضوء واحدة في بريِّة مظلمة. بيوت غارقة في سباتها ومللها الأبدي أهالت التراب ذات يوم على صورة امرأة كانت بيد هادي وبعثرت أشياءه بعد أن قضم أعشاب البراري، وجال في البوادي المحيطة بالعنّابيّة باحثًا عن مركز الدائرة، لن تسعفني ذاكرتي كي أخطّ كلّ ما لا يقال، ولن تلهمني هذه البيوت الدرب إلى الحقيقة.

العنّابيّون ملوك التثاؤب والبعثرة، يبعثرون كلّ شيء، المفردات وتفاصيل حياتهم اليوميّة، وكأنّهم لا ينتظرون شيئًا سوى الموت الذي تربطه بهم علاقة خاصّة، حميمة، يستهزئون به ولا يحسبون له حسابًا وحين يأتي يقابلونه بالسخرية والضحك، كأنّي أرى الصباح، تباشيره وبرودته المنعشة. وكأنّ العبق الذي لفَّني به حديث هادي قد ضاع كما ضاع كلّ شيء، سرت متثاقلاً عبر البرِّيَّة الشرقيَّة، وتذكَّرتُ أنّ الملكَ المخلوعَ عنّابي أضاع أسراره وأبراج الممالك المشيّدة الآن، وأضاع نكهة الحكم وأَسَرَتْهُ قنافذه وألوان القرباط فترك كلّ شيء كي يستمتع بالتبغ والغرابيل. أيّ عبقٍ أبحث عنه، أيّة أرواح تهيم من حولي ولا أستطيع التقاط أسرار تجوالها الدائم في فضاءات روحي المغلقة، ولا سرّ تناسلها في أجساد العنّابيِّين! أيَّة غرف ستنفتح أمام خطواتي وأيَّة أقفال ستتحطَّم! في فراشي الممدود وسط الغرفة تقلَّبت وكدت أبكي. عَبَثٌ كلّ شيء. أريد أن أدع كلّ شيء وأقفز مع أبناء جيلي فوق السواقي، لنرقبَ نهود الصبايا ونبعثر كواديس العدس على الدروب، نُجَاهِرُ بدفء مؤخّرات الأغنام ولذّة اصطياد العصافير والفضائح.. أن أعود لأَلْكُمَ معلّم الرياضة بقبضتي ثم يحملونني إلى السجن وأصبح بطلاً لم يسكت لأنّ رجلاً قال عن أمّهاتنا إنّهنّ قحبات وإنّ الصراخ هو من علائم حبّ الوطن والحكومة، والسير كالمومياءات والببّغاوات في المناسبات التي لا أعرف من أين خُلقت هو شرف لم يُمْنح للأجيال الماضية. تقلَّبت في فراشي وكدت أبكي، وضعت المخدّة فوق رأسي وحاولت أن أسترخي، امتدّت يد إلى المخدّة نزعتها ومَسّدت على شعري وقالت لي: نم يا ولدي. رأيت العينين، كان وجه ماريّا وهي على بحر

إسكندرية تلتقط رسائل أمّ مسعود، وتدخل في ملكوت الصمت والبحث عن روائح هادي على خشب الباب، وفي الفراش النظيف، وفي الصفّ الثاني حين يصعد الأب جرجس كي يبدأ صلاته، ماريّا تمسّد على شعري وأرى ضحكتها، نم يا ولدي، وأنام. أنام، كأنّ دهوراً من النعاس قد تجمَّدت على جفوني وبدأت تتحلّل كجليد وترطّب جسدي الذي تَيَبّسَ وغاب. في الصباح توقظني زليخة، صوتها الحلو ووجهها المضيء، تقول لي الظهيرة قد اقتربت، أنهض ببطء وأسمع في أرض الحوش جلبة عائشة وهي تُفرغ الماء في البرميل الكبير، تقول لي ابن عمّي أحمد عندنا وقد وصل منذ قليل، تُشير بيدها إلى الغرفة العلويَّة التي تنبعث منها أصوات قهقهات مختلطة، نحيب أمّي التي قالت إنَّ أبا الهايم قد يكون في خطر، وقد يقتله القرباط إن تمادى في عشقه لنشمة وإنّ ابنة الكلب هي التي تغنَّجت عليه وأوقعته في حبائلها. دخلتُ الغرفة العلويّة فنهض ابن عمّي وقبّلني وقهقه ثم التفت نحو أمّي وقال في المساء سنتكلَّم في موضوع أبي الهايم وسيعيده إلى العنّابيّة وإن آذاه القرباط فسيبيدهم وطلب منّي مرافقته إلى غرفة جدّتي، أمّي دَعَتْ له بطول البقاء وكفكفت دموعها. تَلَكّأ ابن عمّي خلفي قليلاً وسمعت صوته يصرخ على جدّتي التي رفعت عينيها إليّ ورأيت ابتسامة متآمرة اختفت فور دخوله وانكبابه على يديها ليقبِّلهما. سحبتْ يدها، واستغربتُ هذا الفتور الذي تبديه لحضوره رغم أنَّه من أحفادها المقرّبين، ابن هلال الذي كانت تعتبره ابنها المفضّل، عمّي هلال الذي لا يعرف أحد حقيقةَ موته المبكّر. ابن عمّي أحرجته نظراتي المتسائلة وبانتْ أسنانه بضحكة صفراء وقال إنَّ الحجّة

غاضبة، ولكن لا يَهُمّ سيُرضيها وسيفرش لها الأرض ذهبًا وسَيُجَلّلُ جدّنا عنّاب بأفخر أنواع المرمر حتى يعود مزاره إلى سابق عهده الوَضّاء. جدّتي أشاحتْ بيدها وتقاطرت كلماتها هادئة أوّل الأمر ثم غاضبة وأنا ما عدتُ أسمع شيئًا كأنَّ صَمَمًا أصابني. رأيت كلّ الأشياء أمامي وما وجدت مفتاح ذلك القفل الرهيب الذي يُغَلّفُ مواقف جدّتي ويجعلها لغزًا كبيرًا لا أصل إليه ويعيدني إلى نقطة البحث الأولى فأعود لأرى المسرح مقفرًا تمامًا، والستائر مُسدلة، كلّ شيء أسود، وجوه المشاهدين ممسوحة، الكراسي مخلوعة والأمبراطوريّات مُنْهارة خلف الستارة، كأنّي قرأت أنّ جدّتي قالت له إنّه خرج عن طاعة العنّابيِّين وقد خانَ المواثيق، وإنّه غير مرغوب فيه وجرائمه لن تُغْتَفَر. عن أيّة جرائم تتكلّم وما علاقته بكلّ هذا؟ قالوا إنّه هَجَرَ العنّابيّة وهو في السابعة عشرة من عمره، متقزِّزًا من أسمال أهلها وضحكهم الدائم على كلّ المصائب، وإنّه تَنَكّرَ لأمّه وذكرى عمّي هلال. العنّابيّون تناسوا كلّ شيء كعادتهم ولم يأبهوا كثيرًا أن يكون قد أصبح رجلاً مهمًّا في العاصمة أو في أيّ مكان آخر، ما يهمّهم أنّه الآن عاد إلى العنّابيّة وسيرحل بعد أيّام قليلة، وفهموا أنّهم سيصوِّتون له في انتخابات البرلمان وأنّهم لن يذهبوا إلى المنطقة بل سَيُفْتَحُ في العنّابيّة مركز انتخابي. وفي السهرة كان المتصدِّر في غرفتنا الغربيّة، تحدّث بصوتٍ رخيم عن أخبار الانتصارات وعن تأييد الجماهير للحكومة وعن فساد الحكومات السابقة، الإقطاعيّة والرأسماليّة التي أرادت جعل البلاد خرابًا وركامًا تعبث فيها الغربان ويتسلّق على سلالمها الانتهازيّون، وشدّدَ كثيرًا على كلمة الانتهازيِّين التي كانت تجذب انتباه العنّابيِّين بوقعها الغريب على آذانهم. كانوا

يظنّونها رتبة حكوميّة بدؤوا يتداولونها مُتَمَنّينَ أن يصل أولادهم إليها. تكلّم ابن عمّي وأَيّدَهُ مُرافقه الناعم الذي كان يراقب من بعيد هذه المهزلة التي وضعه فيها معلّمه. كنت أراقبُ الأفواه التي تلوك الهواء والتبغ، وابن عمّي يتكلّم عن الحكومة والبرلمان ويقذف بالوعود المتتالية كنواة مشمش دون أن يرفّ له جفن أو يصفرّ لون جلده. إنّه رجل قوي، قلت لأحمد الجمل لعلّه يستطيع إعادة أبي الهايم إلى العنّابيّة فضحك وقال بأنّ الحقائق الضائعة هي الوحيدة الجديرة بالبحث والتصديق. ثم تذكّرت أنّ ابن عمّي يردّد مفردات معلّم الرياضة ذاتها الذي جمعنا ذات مرّة وقال لنا إنَّ من ليس مع الحكومة فهو ضدّ الوطن وضدّ الأمّة وضدّ نفسه، ونحن تساءلنا عن معنى هذا الكلام فقال لنا اخرسوا فخرسنا، ثم رأيناه وهو يزعق في وجه المدير الذي كان يُهَدّئه ويشير بيده أن يسمح له ليكمّل كلامه. لم نعرف مناسبة لهذا الكلام إلاّ حين صعد نجيب مصطفى إلى منصّة العلم ويد المعلّم ممسكة برقبته وهو يرتجف كعصفور مُقْبِل على الذبح. أشرنا إليه ما الأمر، إلاّ أنّه كان يرفع سبّابته أن اسكتوا فسكتنا وران صمت عميق، وصعد المعلّم مرّة أخرى وقال إنّه سيحلق شعر الخائن نجيب مصطفى ويكتفي بفصله أسبوعًا من المدرسة. وفي المرّة القادمة سيقوم بتسليمه للأجهزة الأمنيّة للتحقيق في انتمائه غير المشروع، ويعتبر هذا إنذارًا موجَّهًا للجميع. لم نعرف جريمة نجيب التي من أجلها تساقط شعره من رأسه وبدا لنا كالمجرمين الخارجين للتوّ من السجن إلاّ بعد أسبوع حين أسرّ لنا أنّه سخر من جماعة الأستاذ حين قال لهم إنَّ الأستاذ يشبه الخنزير وهو يتكلّم ويصرخ كموتور بالشعارات في الاجتماعات الصباحيّة، فكتبوا تقارير

تقول إنَّ نجيب خائن للوطن والحكومة وإنّه عميل لجهات معارضة. استدعاه الأستاذ للتحقيق الذي استمرّ ساعتين، زعق خلالها الأستاذ في وجه نجيب وقال إنّ كلّ سلالته خونة إلاّ أنّه تذكّر أنّ قريبًا له ضابطٌ في الجيش ويشغل منصبًا حسّاسًا فهدأ الأستاذ قليلاً، وبعدما تَدَخّل ورجا المدير كي يعفو عنه هذه المرّة هدأ الأستاذ وقال إنّه فتح له فيشًا، وسيبقى تحت المراقبة. ثم حذّرنا نجيب من جماعة الأستاذ التي تستأثر بكلّ شيء في المدرسة، بالجوائز وكرات القدم وجميع المناصب في جميع اللجان والتي ترفع تقارير عن الهواء وألوان ألبسة الطلاّب وشكل خطوطهم، وما يحبّونه ويكرهونه، وتصنّفهم ضمن قائمة أعداء موهومين أو حياديّين أو خمولين غير نشيطين. عالم غريب رأينا تباشيره حين عاد نجيب وصمت، لم يعد يحتكّ بنا، أو يذهب لاصطياد السمك في النهر، والركض حول أسوار مدارس البنات، أو الفرجة على النساء في البازار ولكز مؤخّراتهنّ. آخر الليل قالت لي زليخة إنّ عائشة نثرت محتويات الحقيبة الحمراء وأخرجت ثوبين مقطّفين بالورود، أعطتني واحداً واحتفظت بالثاني وفي قعر الحقيبة كانت صرّة ورقيّة صغيرة لم تفتحها عائشة أمامي إلاّ أنّي علمت أنّها ألبسة داخليّة مثيرة بأشكال عجيبة. لبستها عائشة مساء اليوم التالي وانتظرت عودة ابن عمّي ومُرافِقه من سهرة عمّتي التي ذبحت ديكين أبيضين وأتت لاصطحاب الضيوف من بيتنا وأصرّت على أمّي التي نهضت متثاقلة تحت إلحاح ابن عمّي ومُرافِقه الذي بدأ يألف لهجة العنّابيّة الغريبة عن لهجة العاصمة، وحين عادوا سمعت جلبتهم ورأيت عائشة تدخّن في فراشها. تابعت نومي وفيما بعد سمعتها تتسلّل خِلسةً وبهدوء إلى قبو

المؤونة ويلحق بها بعد دقائق شَبَحٌ قَدّرْتُ في الظلام أنّه المُرافق، كان الجميع نيامًا، وقالت عائشة بعد أن رحلوا في اليوم الثالث إنَّها تحبّه وإنَّهما سيتزوَّجان في الصيف المقبل بعد أن يشتري بيتًا في العاصمة، وإنّه يحبّها، وتكلَّمت عن يديه الناعمتين وهما تفكّان قفل السوتيان بحرفة ورقّة أبناء العواصم، ثم عن جسدها وهو يصطلي بنار الرغبة، وقالت لزليخة وهي تغمزها بأنّه قبّلها بشغف، ولكنّها لم تسمح له بالتمادي أكثر فلم تُعرِّ جزأها السفلي بينما تركت نهديها طليقين في سماء القبو وهي تشجِّعه بكلمات هامسة أن يكون حذراً فلا يصدر أيّ صوت وهي تعضّ على شفتيها. امرأة مشغولة بيدي رجل وأسرار عميقة لا يصل إليها أحد. وشَتْ لي زليخة أنّ عائشة بكت حين سافر، وأنّه ضغط على كفّها وهو يودِّعها. ابن عمّي لم يستطع إقناع جدّتي في اليوم التالي أن تفتح له الباب وقال بأنّها ما زالت غاضبة وسيقبّل قدميها هذه المرّة حتى ترضى. أمّي تعاطفت معه ومع رغباته الصادقة ووعدته أن تُكَلِّمَ جدّتي التي قالت لي في الصباح عليّ أن أنهض لمناداة عائشة التي شاهدتها تحمل الماء إلى غرفة جدّتي ثم سمعت طشيش الماء وكعادتها تمازحها وتغنّي لها فتضربها جدّتي وتبتسم. عائشة تلبس الجدّة وتقسم إنّها لم تر أصابع رجليها وإنّ غشاوة تصيبها حين تمعن النظر في ثنايا جسمها. أومأت لعائشة أن تُغلق الباب وراءها ولا تريد لأحدٍ أن يزعجها، وطلبت عائشة من ابن عمّي ألاّ يحاول فهي تعرف معنى كلماتها، لا تريد أن تكلِّم أحداً، هي الآن مع روح عنّاب وهذه الحالة تصيبها كثيراً هذه الأيّام، وابن عمّي سألها إن كان الفستان قد أعجبها فشكرته، وطلبت منه أن يحضر معه زوجته في المرّة القادمة وأن

يبني له منزلاً في العنّابيّة، فقال إنّه سيفعل ولا بدّ بعد الانتخابات. ابن عمّي سأل عنّي فقالت إنّي مدلّل أمّ مسعود وإنّها لا تنام إلاّ على يدي وإنّي الوريث الشرعي لكلّ الوصايا ومكتوب اسمي في السجلّ السرّيّ للورثة الحقيقيّين للعرش. ضحكت وهي تردّد كلمة العرش بسخرية وابن عمّي ازداد فضولاً فتركته ومضت كي تخبر أبي أنّ موعد حمّامه الأسبوعي غداً، فابتسم لها وقال إنّ القَرَاد قد غزا صواوين آذان البغال. ولاحظت عائشة شحوبه وضعفه فَرَجَتْهُ أن يخرج للشمس، وقالت لابن عمّي أن يحاول إقناعه بالذهاب إلى العاصمة، فصحّته ليست على ما يرام، لكنّ الوالد أشاح بيده وقال إنّه في الربيع المقبل سيبذر أرضه، ثم سكت.

أيّ وريثٍ أنا! وريث الخراب والكلمات الممحوّة، قلت لأبي إنّ الدرب طويل فهزّ رأسه كأنّه فهمني ولمحت نظرة رجل قويّ. لأوّل مرّة منذ خمس سنوات أرى أبي ينظر إليّ كرجل، سألته عن هادي فقال بأنّه ضاع وضَيّعَتْهُ العنّابيّة، ولم يلتفت إليّ بعد ذلك، عاد إلى بغاله وأغلق باب القبو تاركًا حيرتي وأسئلتي ترنّ فوق جدران ممالك منهارة، تفتّش عن مشروعيّة وعن سند، عن خرائط تاهت تحت أكوام تبن محروق، فغدت الذاكرة وكرًا للسحالي والثعابين ولمصران الخروف الذي جَدّدَتْ أمّي تعليقه وجدّدت ذهابها إلى الشيخ في القرية المجاورة مع خالتي، وعادت فسفحت أربع طاسات ماء على بوّابة القبو، محاولة إقناع أبي أن يشرب كأسًا من الشاي كانت قد غلت فيه ورقة كتبها الشيخ، وأخبرها أن تغلي الشاي حتى تذوب الورقة بأكملها، فذابت الحروف، ثم تفكّكت الورقة وأمّي تفاءلت بعد أن شرب أبي كأس الشاي وعاد إلى

القبو، فأخرجت من صرّة صغيرة مصران خروف معقودًا وعلّقته على بوّابة القبو دون أن يراه، وتمتمت مع خالتي التي كانت تنتظرها في الغرفة، ثم ذهبت إلى غرفة جدّتي وبكت ثم عادت إلى سيرتها القديمة، من أنَّ عينًا أصابته فأحالته هلامًا. الجميع لاحظ أنّ أبي قد بدأ يَهِنُ، وسمعته من جديد يسأل جدّتي إن كان موعد زرع الشواهد قد حان، مبديًا تَبَرّمَهُ من أنّ الوقت قد طال، وأمّي تراقب من نافذتها كلّ صباح المصران المعلّق على بوّابة القبو وتتفرّس في وجه أبي الذي طلب منها أن تُسَخّنَ لَهُ ماء ليستحمّ. أمّي أغلقت الباب غير مصدّقة أنّه نَطَقَ أوامره بلهجة واثقة، فقامت كامرأة تستعيد تاريخًا قد سُفِحَ كسطل ماء على بلاط نظيف، وقامت فلملمته قطرة. قطرة، وقعت في منتصف الغرفة، قرأت سورة الكرسي ونذرت كبشًا للأولياء إن عاد أبي إلى عِزِّه، أخبرته أنّ الماء قد سخن وأخرجت له ملابس بيضاء نظيفة معطّرة، وكانت عائشة وزليخة تَتَجَسّسَان على حركاتها المتلعثمة في ذلك المساء، أبي صعد الدرج وأغلق الباب وراءه وأمّي أغلقت النوافذ. عائشة غمزت لزليخة أنّ الأمور على ما يرام، وذهبت قفزًا لتخبر جدّتي أنّ أبي قد عاد شابًّا. ضحكت جدّتي متآمرةً مع عائشة، وقالت لي زليخة إنّ طرطشة الماء في العتبة كانت تُبْهِجُ عائشة كأنّها عروس في ليلة زفافها، وإنّ أمّي خرجت في الصباح امرأة مختلفة، يانعة، واثقة، خجلة من تعليقات عائشة المُسْرِفَة في إباحيّتها، وأتت خالتي ظهرًا ورأت أبي قد زاد نحوله فطمأنتها أمّي إلى أنّه استحمّ بالأمس ومدّدها على الفراش كما كان يفعل أيّام زمان، وأوغل فيها فتندّتْ أمّي، وعادت مرّة أخرى امرأة لا تجرؤ على مخالفته، وأنّها يجب أن تذهب إلى الشيخ وتأخذ له ديكًا

روميًّا آخر، وأنّ السحر قد انفكّ عن أبي والشيطان قد غادره. أبي عاد إلى القبو يفتّش عن القرَاد في صواوين آذان بغاله، إلاّ أنّه كرّر النوم في فراشها أكثر من مرّة والاستحمام بين يديها.

تفاءلتُ مع المتفائلين، وقلت لأحمد الجمل والدي قد عاد عريساً من جديد ويبدو أنّ عضواً جديداً انبثق في جسده بعد ضمور هذه السنوات، والأمّ مستبشرة خيراً وأصبحت أكثر مرحًا ورغبة بالحياة. ذهبت إلى الشيخ برفقة خالتي، وحملت له سلّة بيض وديكًا روميًّا كبيراً وقبّلت يده، وأخبرته عن نحوله الذي يزداد، فنصحها بأن تضع حجابًا أعطاها إيّاه تحت وسادته، فتفتح شهيّته للأكل والعمل وتعود صحّته من جديد. استمرّ الأمر أكثر من شهرين، وأمّي قبلت بالوضع الجديد وهي ليلة ينام معها كلّ فترة يثبت فيها أبي أنّه معافى ولم يُصَبْ بالخبل أو العته، وحاولت إقناعه بالذهاب إلى الطبيب مع ابن عمّي الذي عاد لزيارتنا بعد شهرين، مصطحبًا معه أوراقًا كثيرة أعطاها لابن عبيد الذي أصبح الناطق الرسمي باسمه، وأمره بتعليقها على جدران عفرين والقرى المجاورة بعد شهر من الآن، وأسماها بالحملة الانتخابيّة، تاركًا له مبلغًا من المال ليصرفه على تلك الحملة التي ستكون بإشراف مُرافقه حين يحين موعدها. ابن عبيد رمى تلك اللفافات الورقيّة في الإصطبل، وابتهج بالنقود فاشترى بندقيّة ومنظاراً وخمس غنمات وفروة للشتاء. أبي أشاح لأمّي بيده أن تسكت، فسكتت، وفشلت الجهود في إقناعه بالذهاب إلى العاصمة أو حتى إحضار طبيب له إلى العنّابيّة. في تلك الأيّام رأيت بريقًا لا يخبو في عينيه، لاحظت حزنه وهو جالس يحادث جدّتي، غاب الاهتزاز عن

كلماته وسمعت جدّتي تتحدّث مُطْرِقَةً رأسها في البساط المتشابك الألوان. أبي صعد إلى فراش أمّي للمرّة الأخيرة، يومها نهنهت أمّي حتى صلاة الفجر، ورجت أبي أن يتركها فقد تعبت، إلاّ أنّه لم يتركها إلاّ منهكةً ومبلّلة بالعرقِ والمنيّ وسوائلها، وبعد خمسة أيّام صعد إلى فراشه، وقال إنّه سيموت. بكت أمّي، وصعدت جدّتي إلى الغرفة، وأتى العنّابيّون إلى زيارته، فلم يعد يميّز بين أصواتهم، مازحهم واطمأنّ على مواسمهم، وفي أواخر الليل دخل أبي في غيبوبة، وسمعت صراخ أمّي وهي تنوح وتقطع خصلات شعرها الذي رأيته لأوّل مرّة طويلاً، مجدولاً، أسود. هُرعت أختاي من غرفتهما إلى أمّي التي انهارت على الدرج، وتعالى صوت بكائها، وانفجرت زليخة كطوفان، وسمعت صوتها يصرخ بأنّ أبي قد مات. جدّتي التي رافقت أمّي في تتبّع أنفاسه الأخيرة نهضت ونزلت إلى أرض الحوش، وخرجت إلى دروب العنّابيّة، اصطحبت معها ثلاثة عنّابيّين مع فؤوسهم ومعاولهم، وفي المقبرة أشارت إلى مكان قريبٍ من قبر عمّي هلال، قالت ازرعوا الشواهد هنا، بدأ الرجال بالترحّم على أبي. العنّابيّة كلّها هرعت إلى حوشنا، صعد الرجال إلى الغرفة حيث تمدّد أبي كأنّه شبح أو كومة عظام مكسوّة بجلد مهترئ، والنساء التففن حولنا وبدأن بنحيبٍ لا ينتهي، كأنّي كنت أنتظر هذه اللحظة أو أتوقّعها. لم أفاجأ ولكن حين رأيتُ وجهه الذابل على المخدّة بكيت وشعرت كم كان رحيل هذا الرجل خسارة، بكتْ العنّابيّة معنا، واهتمّ العنّابيّون بأمر الجثّة، أحضروا التابوت الوحيد من الغرفة التي تُسَمّى جامعًا، وقالوا إكرام الميت هو الإسراع بدفنه، لم ينتظروا أختي فاطمة حتى تأتي أو يذهب أحدٌ

لإعلامها، أو انتظار عمّي ليحضر مع عائلته من العاصمة. اتّفقوا على الإسراع بالدفن وجدّتي حالما انتهت من تحضير القبر، وافقتْ على ذلك، وفتحت صندوقها العتيق الذي أراه لأوّل مرّة، فأثارني بألوانه الصدفيّة، أخرجت كفناً وزجاجة عطر لم أتشمّمْ من قبل كعبق هذه الرائحة التي فاحت في أرض الحوش، أمرت الرجال بتجهيز الجثّة، وجلست على باب الحوش على كرسيّ واطئ قدّمته لها إحدى الصبايا. كلّ شيء كانت له رائحة مختلفة: الدموع، والثياب. الغبار الذي عجّ وراء الرجال الذين فوجئت بعددهم القليل، وكانوا كلّ رجال العنّابيّة. تهادى التابوت على أكفّهم، والنساء في الخلف يندبن ويقلن كلاماً كبيراً في صفاته، وهنّ ممسكات بأمّي. كنت ضائعاً، أسير تارة في المقدّمة وأخرى في الوسط قريباً من التابوت، أحاول أن أمسك بطرف التابوت، وتارة أبحث عن جدّتي التي وجدتها قرب الشاهدة تنتظر قدومه. جدّتي لم تبكِ، إنّما اكفهرّ وجهها، وحين أهالوا عليه التراب كانت تُرَدّدُ كلمات لم يسمعها أحد أو يفهم معناها، ثم حملتْ بكفّها قليلاً من التراب ونثرته على قبره، أمرت الرجال بتثبيت الشواهد وعادت وحيدة إلى غرفتها. الرجال عزّوا بعضهم بعضاً، ثم أمسكني أحمد، وسلمان وقف إلى جانبي كي أمدّ كفّي للرجال الذين تقاطروا للتعزية، ثم صرخ سلمان على البنات ألاّ يبكين كثيراً فَخَفتَ الصوت قليلاً، ورأيت أمّي جالسة على الأرض. في الليل أتى عمّي وأولاده وزوجته وأحمد هلال ابن عمّي مع مُرافِقه قبل أن ينفضّ مجلس العزاء، عمّي بكى، وامرأة عمّي بكت، وأولاده قبّلوني ثم قبّلوا يد أمّي وحكوا كثيراً من الكلمات بتأثُّر، وابن عمّي أصرّ أن نكرِّم المرحوم، جلس في

صدر الغرفة كعادته، وتكلّم عن معاني الموت فوافق الرجال، ثم دعا الجميع إلى مولد يقام على روحه الطاهرة مساء الغد، ابن عمّي تكلّم، وعمّي وافق ثم أمّي وافقت، وأنا تذكّرت جدّتي، هرعت إلى غرفتها. كان الباب مغلقًا والضوء خافتًا، كان الليل متأخّرًا وأصوات المعزّين ما زالت تتصاعد مع روائح تبغهم. فتحت جدّتي الباب وعادت إلى جلستها على قماشة سوداء متربِّعة، أشارت لي بالسكوت. جلست قريبًا منها، ورأيت جلدها يتقصّف من على جسدها النحيل ويخرج من تحته جلد جديد. لا أعرف هل رأيت حقيقة أم وهمًا، جلد جدّتي مُكَوّمٌ أمامها، متقصّفٌ. أتت بزجاجة وأدخلته فيها، أغلقت الزجاجة ولفّتها بقماشة سوداء، ودهنت جلدها الجديد برائحة عطرة. أخافتني بحيث لم أعد أستطيع النوم، حدَّقت في السقف ثم فيها، رأيتها منهمكة وهي تردِّد كلمات لم أستطع الوصول إلى معناها، ثم سمعت صوت ابن عمّي يستأذن بالسلام عليها، قالت له غدًا، الآن هي مشغولة. ثم أتى عمّي، فَصَرَفَتْهُ أيضًا، ولم تعد تجيب أيّ طارق، ثم أغلقت الباب بالمزلاج. في الصباح أتت فاطمة وعليّ، عليّ جلس مع الرجال وفاطمة تابعت بكاءها الذي بدأته حين وصولها، هدأ كلّ شيء، ذهب الجميع إلى غرفة جدّتي، قَبّلُوا يدها وبكوا. أحمد الجمل اصطحبني إلى كهفه وقال بأنّ الموت هو العلامة الوحيدة التي تليق بالعنّابيّة، وأبي كان يعرف بموته منذ خمس سنوات حين أخبره الطبيب أنّه مُصَاب بالسرطان، وأنّ الأمر قد يطول حتى خمس سنوات، استنفدها بكاملها في التأمُّل وتجميع دروع السلاحف وتطبيب البغال التي لم يتذكَّرها أحد حتى كادت أن تموت من العطش. قالت عائشة

التي أحضرت الماء إنّ البغال كانت تبكي وصَدّقَهَا الجميع، وقال لي أحمد تستطيع التدخين، فدخّنتُ وتمدَّدت على الأريكة، ثم رأيت ملامحه المَلُولَة وقلت له جدّتي خلعتْ جلدها، فضحك وقال كانت تعرف بأنّه سيموت وهي التي زرعتْ له الشواهد كي تنمو، زرعتها بجانب قبر أخيه هلال، وسألني ماذا سأفعل الآن، فأنا سيِّد المنزل كما قال ابن عمّي وعمّي. أمّي لم تأبه كثيراً لهذه التسمية فانشغلت بحديث دامع مع زوجة عمّي التي بدت أكثر نظافة وليونة في استعمال لهجتها العنّابيّة، فكانت تربط إيشاربها الذي يسحل عن رأسها، بعد أن قذفت بالغطاء المدقوق بالخرز وراحت تتحدَّث عن أحوالهم في المدينة، وأنّ أولادها يعملون مع أحمد هلال وهو يجزيهم العطاء، وهي لا تعرف ماذا يعملون سوى أنّها أعمال حرّة، وعمّي ناطور بناية. تابعت أمّي الغرق في الرؤى التي حاصرتها من أنّها الآن امرأة وحيدة، وأنا لا أستطيع أن أكون رجل هذا البيت، فهي لا تُعَوّلُ على طبعي الهادئ والحالم بأيّ شيء. كانت كلّما تذكّرت خالي أبا الهايم تُعَاوِدُ البكاء. سألت امرأة عمّي إن كان قد مَرّ عليهم في العاصمة، الأخرى. نفتْ وتابعت بأنّها سمعت قصّة رحيله وراء القرباطيّة وطمأنتها إلى عودته الأكيدة حين يسمع بموت أبي. الجميع أكل من الخروف الذي ذبحه ابن عمّي وطبخته امرأة عمّي وترحَّموا على أبي، وقالوا لابن عمّي الذي كان يأمر الجميع، مُرافقه وأولاد عمّي، بأنّ الانتخابات قد اقتربت والقرى الأخرى سَتُصّوتُ له. ابن عبيد تذكّر الملصقات وقال إنّها بخير. كانت الغرفة مضاءة باللوكس والجميع مستمتعون بكؤوس الشاي والقهوة المرّة وبأحاديث ابن عمّي الذي كان يذكر المرحوم بين حين وآخر

ويتابع الكلام عن مشروعاته، وكيف أنّ البداية كانت صعبة وأنّه صَبَرَ فأعطاه اللّه. لم يسأل أحد ماذا يعمل، وهو لم يتكلّم. في اليوم الثالث بدأ أولاد عمّي يزورون العنّابيّين ويطمئنّون على أحوالهم وامرأة عمّي تُبَالِغُ في نظافتها وفي قرفها وابتعادها عن لهجة العنّابيّة، وذهب أولاد عمّي مع المُرافِق لقطف ما تبقّى من تين متأخّر مستمتعين بمنظر الحقول، وهم يستعرضون السيّارةَ اللامعةَ وينظرون بخيلاء إلى أنفسهم وهم ينزلون من الباب ثم يعيدون إغلاقه بقوّة، مستمتعين بنظرات العنّابيّين البليدة المراقبة. عمّي جالس جدّتي كثيراً، حكى لها أنّ هواء العاصمة ثقيل، والازدحام شديد، وأنّه يريد العودة إلى العنّابيّة إلاّ أنّ زوجته لا توافق. عمّي آخر السلالة الأكثر طيبة وضعفًا ممّا جعل منه لعبة بيد زوجته التي كانت لا تتوانى عن الجلوس في مجالس الرجال ولفّ التبغ معهم ومشاركتهم الرأي في كلّ شؤونهم الزراعيّة والتجاريّة والعائليّة، وكانت لا تخاف إلاّ من جدّتي، إذا أخطأتْ كانت تستدعيها وتُغلق الباب وراءهما ولا يعلم أحد ما الذي يجعل منها امرأة تعترف بأخطائها وتعاود سيرتها. أخواتي هَدَأْنَ قليلاً واعتصمن في غرفتهنّ بعد موت أبي. عائشة منكسرة وكأنّها ورثت البغال ودروع السلاحف وكلّ شؤون أبي وبدت كأنّ تفاهمًا خفيًّا كان قائمًا بينهما، والآن ذاب حبل المودّة مع الكائنات الأخرى. وقالت لي زليخة إنّ فاطمة وعائشة تحدّثتا عن جميع الشؤون وضحكتا في بعض الأوقات ممّا جعل زليخة تنسحب من الجلسة وتعتبر الضحك، حتى لو كان ابتسامًا في اليوم الثالث، فيه امتهان لروح أبي التي كانت زليخة تحاول ليلاً التقاطها حين تزورها، وأكّدت لي أنّ أبي سيذهب إلى الجنّة فهو لم يُؤْذِ أحداً. بدت امرأة

مهمومة، بالغت في حزنها وأقسمت إنّها لن تخلع ثوبها الأسود إلاّ بعد سنة، وبانت لي ملامح طفولة في وجهها وهي تقسم وتغرق في بكاء صاف، كانت الدمعات تتدحرج على خدّيها وتبلّل بشرتها فتبدو لي أجمل، في الصباح كانت عائلة عمّي قد تجهّزت للرحيل، عمّي قبّلني وبكى، وامرأة عمّي قبّلت أمّي، وأخذت وعداً منها أن تأتي لزيارتهم. أولاد عمّي افتعلوا الرجولة وقبّلوني، أخذوني بعيداً عن العائلة وقالوا كلاماً عن الموت والجنّة، والعمل الصالح، وشدُّوا على يدي مرّة أخرى وركبوا في السيّارة اللامعة التي ازدحمت بهم، والمُرافِق أشار لنا مودّعاً مع ابن عمّي الذي صرخ عليّ وطالبني أن أدير بالي على أهلي فأنا رجل الدار. لا أعرف ما الذي انتابني من مشاعر، وأنا أقول كالرجال نعم، نعم. نسيت أنّي منذور كي أُلملم الحروف الضائعة وأرمّم الخراب، فتوهَّمت للحظات أنّي فعلاً سيِّد المنزل والمسؤول عن نساء الحوش، ولكوني ذكراً يجب أن أفتخر بذكورتي وأُهَيْمِنَ بصوت غليظ ويد ثقيلة. السيّارة أثارت الغبار وراءها ولاحَظْت امرأة عمّي، وهي تغلق الباب، كم هي فخورة بأنّها تستمتع بنعمة المخمل، وأنّها تسافر دون أن تسمع زعيق سائق السيّارة الوحيدة في العنّابيّة التي تذهب صباحاً، ولا يعرف أحد متى ستصل إلى المدينة وتعود مساءً، بعد أن يكون وجه السائق حمّود قد تلطّخ بالشحوم والزيوت والكفر بهذه الماكينة الجربانة. العنّابيّون عادوا إلى عاداتهم في الثرثرة وتدخين التبغ. سرت إلى المقبرة، ووقفتُ قليلاً عند قبر أبي وهمستُ له بأنّه جدير بالحياة فلماذا رحل، وكأنّي سمعت ضحكته الهازئة وأنا أدخل كهف أحمد الذي بادرني فوراً أنّه سهر بالأمس مع أبي، وأنّه راضٍ عن تدويني للحكاية، وأضاف

بأنّ وجه اللهّ كان في مخيِّلته ولكنّه ضاع، وهو يحاول الإمساك به لكنّه يفلت دومًا ويضيع، وقال لي انظر. كانت الألوان على اللوحة منثورة، برتقالي وأزرق، وفي الإطار العُلْوِي لون أحمر مُعَالَجٌ بالأخضر الكاشف، كلّ شيء ضائع على اللوحة، وفي ذهن أحمد الجمل الذي بدا لي كأنّه قد هرم خلال أشهر قليلة، قال لي بأنّ الموت هو الحقيقة الوحيدة. قلت له الحقيقة التي لا تُدَوّنُ. تابع وهو ينفث دخان سيجارته بطريقته المعهودة بأنّ الموت لا يحتاج لمن يدوّنه، وأنّه سيهجر العنّابيّة قبل أن يَتَكلّسَ، والخراب سيشمل العنّابيّة أيضًا، لن تبقى مساحة مفتوحة للمطر والقرباط والرذالات المحبّبة، وسيستمع إلى صوته الداخلي أخيراً، يحمل كلّ شيء، رائحته وكتبه القليلة ولوحاته، ويهجر العنّابيّة إلى الأبد. سألني عن هادي وأحواله فأخبرته بأنّ كلّ شيء كما كان، الحكاية لا تتقدَّم، كلّ شيء ضائع، الخرائط والمفردات وأقلام الحبر والصفحات ولا أعرف من أين أبدأ التدوين أو ماذا سأدوّن. هذا السكون، اللامبالاة، العجز، القوة، الحبّ، الأجساد وهي تستمني رغباتها وتبحث عن موطئ قدمٍ لها، طَمأنني بأنّي سأصل إلى بداية التدوين، وهو لا بدّ سيساهم في تلوين المشهد. أحمد عاد إلى تدخينه وقال بأنّ كلّ المتع قد فقدت بهجتها، فطّوم أصبحت مملّة.. تحدّي الأب، البحث عن المعرفة. أحمد يُحدّق في السقف مستلقيًا على الأريكة يدخِّن، وأنا جالس قبالته، أعرف أنّ كلّ شيء عابر وزائل، حتى هذه المتعة الوحيدة، الجلوس ورؤية المشهد مُلَوّنًا أمام عينيك. سأبقى وحيداً، سيدعوني الرحيل ولا أعرف إن كنت سأجرؤ على عبور درب الغياب وترك كلّ شيء وإعادة المفاتيح لأصحابها والانسحاب من

فصول لا تُكتب. الريح تمحو كلّ شيء، وأنا كأنّي طائر فوق الحقائق، فوق الرامات، فوق البيادر، فوق حموضة آباط العنّابيّات وهُنّ عائدات من الحصاد، فوق تاريخ موهوم تكتبه جدّتي ولا تستطيع الإخبار عنه، تتركه بين يدي هادي العنّابي والملك المخلوع الراحل دوماً مع القرباط لا يستطيع العودة إلى ملكه، ولا يستطيع الإفصاح عمّا لديه. ضاع كلّ شيء..، هكذا قال لي هادي العنّابي وهو يريني أيّة حبال ليفٍ يجب صعودها كي أرى المنارة حيث يجتمع أبي الآن مع أصدقائه القدامى ويتسامرون، وعنّاب كطفل صغير فرح به، يصبّ له الشاي ويدعوه لتأمّل أكفانه الجاهزة للدود. ما زالت رائحة عطور أمّ مسعود تفوح منها. قال لي هادي إنّها حبال ليف منها تستطيع الوصول إلى السماء، حيث المنارة. هناك يتربّع عنّاب ومن حوله النساء قد عدن صبايا، الرجال وقد عادوا شبّانًا يدقّون الأرض بأقدامهم، هنا تشعر بتفاهة الحياة، والبحث عن مفردات لِتُدَوّنَ ما لا يُقال.

أنا وهادي نقطع البرّيّة الشرقيّة باتّجاه التخوم، تتراءى لنا شجرة الزعرور متمايلة كأنّها ترحّب بقدومنا. شجرة وحيدة في برّيّة فسيحة.. سألت هادي: لماذا لا تسلّمني ما أعطاك إيّاه جرجس، ضحك وأجابني بدأتَ تخطئ، أيّة أوراق ووثائق؟ ألم أقل لك إنّ الحروف الضائعة هي جوهر الحكاية؟ قلت له هل يعرف بأنّ أبي قد مات؟ قال منذ أزمان بعيدة كان عنّاب ينتظره، وكلّ ليلة يتفقّد الجالسين ويسأل عنه. شدّ على يدي ألاّ أقلق عليه فقد وصل إلى الحقيقة الكبرى وسيكون سعيداً. وقبل أن يتركني همس بأذني بأنّ أبي كان منذوراً لحراسة الصفحات الممحوّة لكنّه تركها وأصبح تاجر فحم. أبديت رغبتي في

الذهاب بعيداً عن هذه الأرض للتخلُّص من الكوابيس التي تنتابني، أذهب مع سلمان إلى تركيا، نقطع الحدود سويًّا ونُتاجر بكلّ شيء، وهناك نضرب كؤوسنا بعضها ببعض ونشرب نخب نساء لم ير التاريخ أجمل من صدورهنّ وغنجهنّ كما يخبرني سلمان، أو أنّي سأتابع تلوين المشهد مع أحمد الجمل. لا أريد أن أبقى أَسيرَ وَهْمٍ. هادي العنّابي استرخى قليلاً لرياح خفيفة باردة وردّد إن عرفت الجهات لن تستطيع ترك المركز، أنت متورِّط أكثر ممّا يجب، وقال لي إن استطعنا أن نرسم ونحدِّد مكان الكنز فإنّي سأرى ياقوتًا وزمرّدًا لن تشهد عينا كائن بشري مثل جماله، وسأحلّ كلّ الألغاز التي يتجمّع العنّابيّون في الساحة ويفكِّرون بها وهم يدخِّنون، وسأستطيع استدعاء كلّ العنّابيّين الذين ترسل لهم أمّ مسعود هذه الزجاجات عبر البحر، سيأتون جميعًا، كما سأستطيع الجلوس في المنارة دون أن أموت. قال لي مشدِّدًا على كلماته، عندها ستصعد على حِبَالِ اللّيف، وهناك ستضطجع وتتأمَّل المشهد، ستضاجع عنّابيّةً عاشتْ أيّام البابليّين ودخلت بابل، ستروي لك عن الحدائق المعلّقة وعربات الملوك المذهّبة وتخلع ثيابها بين يديك كي تضطجعا على العشب الأخضر، أيّة جنّة يا هادي؟ أيّة عنّابيّات دخلن بابل وروّحن عن أنفسهنّ بشرب الخمر في حدائقها المعلّقة؟ انظر إنّني وحيدٌ، وسأبقى وحيداً، أبحث عن مفردات ضائعة بين ركام آلاف السنين. قادتني قدماي إلى قبر أبي، قبل أن أصل تخوم المقبرة رأيتُ شَبَحًا أعرفه، واقفًا قرب الشواهد. اقتربتُ، تمنَّيتُ لو أستطيع الطيران أو الركض كي أعانقه، أُمْسِكُ به من أذيال ثوبه وأسأله ألاّ يرحل. كأنّه وجه أبي الهايم، قرب الشواهد. مشهدٌ نديّ في ليلٍ متأخّرٍ. اقتربتُ

لكنّ الشبح كان يبتعد.. نعم.. إنّه خالي، كدتُ أصرخ فأُصِبْتُ بالخرسِ، لمعت عيناي في الظلام، كلّما اقتربتُ كان يبتعد، وصلت إلى الشاهدة، وسمعتُ قهقهةَ أبي وانسحابه من داخل الكفن، كدت أسأله، رأيت آثار خطواته قرب الشاهدة وتشمّمتُ رائحته في الفضاء، رائحته التي أعرفها أكثرَ من أيّة رائحةٍ أخرى، وشَكْلَ خطواته على الأرض. أيّ ثباتٍ وأيّةُ قوّةٍ! جلستُ قرب الشاهدة وبدأت أنتحب، كلّ شيء يفرّ من يدي، ها أنذا أصعد حِبَالَ اللّيفِ لكنّها تنقطع ويغمرني الزبد، أعود وأقف، أسأل عن أسرار المشهد، وأُرَكّبُ كلّ الحروفِ الناقصة فأحمل إلى النقصان، والشكّ. كأنّ أبي يهمس ألاّ أتكلّم، فَسَكَتّ ومررت على القبور. كلّ الشواهد نديّة، والصباح نديّ، نديّ. مطرٌ أنعشني، أَيْقَظَ يباسي، وبلّلني، وعلى باب الحوش الواسع كنت أقطر وأرتوي. العنّابيّة تغتسل والتراب يخلع يَبَاسَه، وجدّتي فتحت الباب وكنت أسمع الشجار بينها وبينه.. ثم رأيتها جالسة قرب العتبة، وبيدها الزجاجة السوداء وهي تناولها لفاطمة كي ترميها في بحر بيروت فور وصولها، وألاّ يعلم أحد بأمرها، فاطمة هزّت برأسها، وقَبّلتْ رأسها ويدها، تركت لها جبينها كي تُقَبّلَهُ وتَدُسّ في يدها زجاجة عطر أو سائلاً لا أعرف مفعوله، ثم خرجت فاطمة، بلّلها مطر خفيف، كانت أمّي تبكي وعليّ يُهَدّئُهَا، ومن خلفها زليخة وعائشة التي كانت آخر من احتضن فاطمة وبكى. بكت بحرقة فبكى الجميع، وقالت فاطمة إنّها ستعود أواخر الشهر المقبل وتغامزت مع عائشة من بين الدموع، وكانت السيّارة الوحيدة بألوانها المُغْبَرّة وكراسيّها الخشبيّة بانتظار فاطمة وعليّ، أمّي رافقتهما إلى السيّارة موصية السائق الذي لا يحتاج أحد أن يوصيه، ثم دَعَتْ لهما بالسلامة وتابعتْ طريقها إلى المقبرة.

الدفتر الثالث

أقنعة الشيء

أقمار طافحة بالغبار، العنّابيّة تُعاود كسلها وتطفح بالغبار، نوافذها غبار، أبوابها غبار، خطوات أهلها ووجوه المتمدّدين في المقبرة الوحيدة غبار. قلت لهادي أريد مجالسة الموتى، فقال لا تأبه بهذه الترّهات، فحديث الموتى مملّ. قلت له لو أنّك أَسّسْتَ ذرّيّتك بعيداً عن هذا الغبار لكان لك قبر على الأقلّ يزوره أحفادك ويضعون أعواد الآس على ترابه الندي. أشار بيده أن أسكت وأخبرني أنّه محكوم عليه بألاّ يؤسّس ذريّة. كان يجب أن يموت تاركًا وراءه أشياء تبعثرت في الإصطبلات وبين عبث العنّابيّين، ثم أردف أنّه شاهد عنّاب مرّة، وعاتبه لماذا اختار هذه الأرض كي يُقيم سلالته عليها. عنّاب قال هذه الأرض طيِّبة، وربّت على كتف هادي الذي سألني هل تبحث عن اليقين؟ لا أعرف عمّاذا أبحث، أريد انتهاء أزمنة التدوين كي أرى الصورة واضحة. قال لي لن تنتهي من التدوين، ستبقى أصابعك ملوّثة بالحبر والألوان والحقائق الضائعة، تركني وسار وحيداً وقال لا تلحق بي الآن. كلّ الأشياء كانت تبدو لي عبثًا وغباراً وكلّ ما تقدّم كان يرتدي قناعًا، سأرمي بهذه الأوراق وأنهي هذه المهزلة، يجب إزالة الأقنعة. وقفت قرب قبر أبي ورأيت أغصان الآس التي أحضرتها أمّي وخالتي من الجبل القريب مرميّة بخضرتها الفاتنة على التراب المبلّل بالماء، كانت أمّي تعتقد أنّه عَطِشَ فحملتْ له الماءَ وسكبته على التراب وعادت بصحبة

خـالـتي . كلّ يوم كـانت تُنَدّي قَـبْـرَهُ وتُجَـرْجِـرُ ثوبـهـا الأسـود الـطويل خلفهـا، وقـالت لخالتي إنّه منذ خـمس سنوات يعرف أنّه سيـموت ولم يقل لأحد . خـالتي هَدّأتْ من خاطرها وطلبت منهـا أن تنسى كلّ شيء فـالموت حقّ. درب مـشـاه من قبـلنا عنّاب وجـمـيع الأوليـاء والصـالحين وذهبت برفقتهـا إلى الشيخ القـريب من العنّابيّـة، حملتْ له ديكًا روميًّا وقليـلاً من البـرغل، وطلبـت منه أن يقـرأ لروح أبي مـولداً. خـالـتي لم تُفارق أمّي طوال هذه المصيبة كمـا أسمتها، كـانت تنام معها في الغرفة نفسـهـا، وفي الليلِ أسـمع نشـيـجـهـمـا اليومي، ثم أسـمع كلمـاتهـمـا المتقطّعة، وهمـا تُكَفْكِفَان دموعـهـمـا وتغطّان في نوم عـميق. عـائشـة قالت لزليـخـة إنّ الثوب الأسـود يعـذّب أبي في قـبـره، ويجب أن تخلعه بعد الأربعين لـكنّ زليخة لم تأبه وأبدت تحدِّيًا كأنّهـا تعلن استقـلاليّـتهـا عن الجـمـيع . أصـبـحـت تحـمل صـحـون الطعام لجـدّتي وتُطيـل المكوث عندها، تنـظّفـهـا وتحـمي عـزلتـهـا التي ازدادت، فتـعـتـذر نـيابة عنهـا عن استـقبال العنّابيّين كما أوصـتهـا . جـدّتي تحبّ زليخة كـأنّهـمـا متواطئتان على سرٍّ ما، وحان وقتُ افتضاحـه، فلم تمانع أن تنام في غرفتها قريبة من قدمـيهـا في الكثيـر من الأحيـان، تاركةً عـائشة وحـيدةً في غـرفتـهـا تسـير عـاريةً. لم يَطُلِ الأمرُ طويـلاً حتى عـادت عـائشـة لنشـاطِهـا وحـيـويّـتـهـا، فمـازحـت الجـميع وقـالت بلهجة يائسـة إنّ البغلين قد هزلا كـثيراً وتقـرّحا ولا أمل بشفـائهـمـا، قـالت أمّي إنّهـا ستطلق سـراحـهـمـا، لكنّ عـائشـة احتجّت وتابعت إنّهما صاحبا أبي في أواخر أيّامه، أمّي قالت: « دعيهم يموتون في الفـلا أحسـن ما تخنقنا روائـحـهم » وفي الصـبـاح فـتـحـت باب الإصطبل واقتادت البغلين من رسنيهـمـا، سارت بهـمـا إلى ساحة العنّابيّة،

وهناك فكّت الأرسان وضربتهما كي يعدوَا بعيداً، لأنّ القروح والروائح المنتنة عادت إليهما. لم يتشجّع أحد من العنّابيّين على إيوائهما، كلّ عناية أبي لم تأتِ بنتيجة. زليخة ظلّت تسقيهما كلّما اقتربا من البئر وتمسح على رقبتهما.. البغلان جالا بأبصارهما في العنّابيّين وتابعا مسيرهما ببطء باتّجاه البراري ثم عادا واستوطنا بين القبور، حيث يقضيان الليل قرب قبر أبي، أمّا النهار فأغلبه قرب باب حوشنا مثيرين غضب أمّي وهي تلحق بهما بعصا تضربهما فلا يتحرّكان من مكانهما. تنبّأت عائشة أنّهما لن يغادرا هذا الحوش حتى يموتا. ازداد المشهد قتامة، وأمّي تمارس مزاجًا متناقضًا. مرّة تهدأ وتتروّى في الكلام وتعود إلى عادتها في الاهتمام بشؤوننا وتتقبّل مزاح عائشة الدائم معها، ومرّة تثور لأتفه الكلمات وتندب حظّها ووحدتها وترمّلها المبكّر وتذهب إلى غرفة جدّتي، تجلس على العتبة وتبكي بحرقة. جدّتي تُهَدّئُهَا وتدعو لها كي تعود إلى صفائها. أمّي تتذكّر أبا الهايم كثيراً وتعتب عليه لأنّه تركها ولم يأتِ ليقوم بواجب العزاء، تشتم القرباط ونَشْمَة وحَظّهَا وتَنْظُرْ إليّ ككائن غير موجود، تتعثّر بي في أرض الحوش، مرّة تُبْدي رقّةً وتدعوني لإكمال دراستي، وتبدي استعدادها لإرسالي إلى الجامعة، ومرّة تلكزني لأبتعد عن طريقها وتقول لي لن تصبح رجلاً. تقترح على جدّتي تزويجي فتضحك بهدوئها وتقول لأمّي: دعيه فهو ما زال صغيراً، تضيف أمّي ولن يكبر. أخبرتني عائشة إن أردت الزواج فتستطيع أن تخطب لي أيّة عروس أرغبها. ضحكت ونحن نحتسي قهوتنا على قرص الدرج. أختي تدخّن كعادتها وتروي لي أنّ الزواج والعيش في العاصمة حلو، وأنّها لن تقضي عمرها في هذه

الخرائب.. وبين هؤلاء المجانين المتخلّفين. لأوّل مرّة أسمع كلمة متخلّفين منها وتساءلت عن مصدرها، أخبرتني زليخة فيما بعد أنّ المُرافِق يُحَدّثُ عائشة دومًا عن رُقِيّ المدينة وهو يكرهنا.. أي يكره العنّابيّين ويقول إنّهم بَكَمْ ويصفهم بالتخلّف والقذارة ويستغرب انتماء معلّمه إلى هذه الأرض التي لا تُوحي إلاّ بالموت، وقد أتى بكريم لعائشة كي تغدو أصابعها ناعمة. عائشة تعبد جسدها، لا تترك مَسَمًّا فيه دون أن تكرّمه، تستحمّ كلّ يوم، تبتلّ بالماء فتنتعش، تفرد شعرها الأسود الطويل وتسكب طاسة البيلون الذائب، وتهتمّ بأمر خصلاتها الزائدة، دومًا أراه ناعمًا، لامعًا، معطّرًا. ومن فتحة ثوبها المحبوك دومًا على جسدها تظهر التفاصيل والثنيّات التي تبالغ بإظهارها حين تمشي، فتنتصب وتتقولب في النظافة. تأتي بنات جيلها إلى غرفتها فتعلّمهنّ أسرار العطور والكريمات التي تليّن مسامّاتها وتُطَرّي جلدها كما تقول - وتقول لي زليخة بأنّ عائشة كلّ يوم تنظر إلى جسدها الملفوف بالمنشفة أمام المرآة الكبيرة، تلاحظ الرقبة، العينين، الحاجبين اللذين تنتفهما بعناية وأناة وقد دلّت البنات على كيفيّة تخطيطهما كي يغدوا أكثر جمالاً وأناقة، وهي بدورها تعلّمت من فاطمة التي تحدّثها دومًا عن أدقّ الأسرار. لا تترك فخذيها للترهّل، تأتي بنباتات تُوصي عليها، تغليها قليلاً وبعد أن تبرد تمسح بيدها كلّ أنحاء جسمها الذي يمارس الغواية التي تريد حين تمرّ أمام أنظار الرجال، والعازبين الذين يخافون سلاطة لسانها وجرأتها حين يحاولون التغزّل بطريقتهم العنّابيّة الفجّة، فلا ترحمهم، وتطرب للتشبيه الغريب فتضحك وأحيانًا تغمز لصاحبه الذي يعرف أنّها صعبة المنال فيكتفي بتلك الغمزة ولا يتجرّأ على أكثر

من ذلك. عائشة عادت إلى عاداتها في الدوران طويلاً بحثًا عن أشياء لا تعرفها في أرض الحوش وسماع العنّابيّات وهن يُحَدِّثْنَهَا عن رغباتهنّ التي تتكشّف صريحة. حين تغلق باب الغرفة تخرج دفاتر ملوّنة من صندوقها، وتشرح للصبايا ما ليس بحاجة إلى أيّ شرح.

العنّابيّات في هذه الغرفة يخرجن عن أطوارهنّ فيتحدّثن بكلّ شيء، ويُلْزِمن عائشة لتنهض قليلاً كاشفةً عمّا تملك من أسرار. عائشة لا تُفصح عن كلّ أشيائها دفعة واحدة، تختار وتنتقي من تصاحب، ولكلّ سرّ بير كما تقول دومًا. تدور في أرجاء الغرفة، تعود نازلة الدرج إلى غرفة جدّتي، ترى زليخة التي ما عادت تتردّد على الغرفة كثيراً كأنّها أعلنت العصيان على عالمها فجعلها موت أبي فتاة مختلفة ما عادت تعرفها أو تعرف كيف يمكن التفاهم معها. جدّتي قبلت تحوّلات زليخة كأمر مفروغ منه لا يحتاج إلى أيّ تبرير أو استغراب، وبدأت زليخة تستمتع بهذه الصحبة، ترى جدّتي في كلّ حالاتها، بدأت تهتمّ بكلّ شؤونها منفردة، باستمتاع شديد وقدسيّة ترتّب أثوابها، وتنهض كي تسخّن الماء لتستحمّ، تخلع عنها ملابسها وترى جلدها الذي تساقط ونما بدلاً عنه جلد جديد، تلمسه زليخة بيدها بعذوبة، وتُباركها جدّتي التي ما زالت تتآمر مع عائشة وتبتسم لمزاحها الذي لم تكفّ عنه. قالت بأنّ الموت ليس نهاية الحياة، وأنّ أبي قد أكل عمره وليس معقولاً أن تحزن عليه طوال العمر، والدموع لا تُعيده. ولو كانت تُعيده لملأتْ سُدُودَ الأرض وسَقَتْ حقول العالم بدموعها كي يعود. جدّتي وافقت على كلامها، وزليخة انسحبت من الجلسة لإحساسها أنّ الكلام مُوَجّهٌ لها وهي لا تريد أن ينتهي الأمر بهذه البساطة. حاولت أن

تعـيـد زلـيخـة للنوم في غـرفـتهـا على الأقلّ واصطـدمت بجـدّيّـتهـا في الابتـعاد والإيغال في عالم جـدّتي، وتأكّدت عـائشة أنّ أُختهـا الصغرى قد كبرتْ، فتركتها لشأنها.

في المسـاء أتى سلمـان وبيده صـرّة وقال لأمّي وخالتي إنّ أبا الهـايم يسلّم عليهمـا كثيراً، ويطمئنهـما عنه ويبعث لهما بهذه الهدايا، وإنّه حزن كثيراً على أبي وهو لا يستطيع العودة حاليًّا ولكنّ أَمْرَ غيابه لن يطول. الاثنتـان رشقتـا سلمان بسيل من الأسئلة المفاجئة وكأنّهـما قد استيـقظتا من نوم طويل. فـقال سـلمان: تمهّلوا حتى أستريح. واستراح سلمـان فتحلّقنـا حوله جميعًـا، وهو يروي لنا أنّه شاهد خالي في مكان ما لم يسـمّه وأنّـه بخيـر ويسلّم على الجميـع وخاصّة عليّ، وأوصاه أن يقـول لي إنّي الآن رجل البـيت ويعـتـمـد كـثيراً عليّ في تسـيير شؤون العائلة. أمّي كأنّها لم تصدّق وخالتي سُرّت وبدأت بدعواتها ليعود إلى العنّابيّة ويتزوّج كي ينجب أطفـالاً ويفـتح منزله مـرّة أخـرى. سلمـان ضحك ومـازح أمّه أنّ خالي سيـتزوّج نشـمـة ويـعـود بهـا إلى العنّابيّة، واتّقى ضرباتهـا، أُمّي فتحت الصرّة ووجـدت قطعتي قماش مـخمل. قال سلمان: واحدة لأمّي والأخرى لخالتي، وفستانان لعائشة وزليخة ودفاتر ملوّنـة وأقلام لي وبنطلون جـديد قـال لي سلمـان إنّه من أغلى الأنواع، وغـمزني بأنّ هناك أمانة لجدّتي يـجب أن تصل فوراً، واستـأذن سلمـان وسط صـراخ أمّي وخـالتي وعـائشـة كي يجلس ويحـدّثـهم عن أحـواله وأين شاهده، ولكنّ سلمـان حسم برِقّة الموقف وهو على العتبة: قلت لكم كلّ شيء ولا تسـألوا كثيراً، المهـمّ أنّه بخير. لحقتُ بسلمـان الذي توجّه إلى غرفة جدّتي، قَبّلَ يدها وقبّلت رأسه وأجلستـه بجانبـها،

وأخرج من جيبه مُكعّبًا مغلفًا بورق ملوّن، جدّتي ابتسمت ولم تَفُهْ بكلمة، كأنّها تعرف كلّ شيء، هَزّتْ برأسها وسألته عن أحواله وأوصته ألاّ يضرب زوجته وألاّ يتزوّج تلك التركيّة التي تسمع عنها. سلمان بدا خجولاً مرتبكًا، وَعَدَها خيراً وبدأ يشكو لها غباء زوجته ويداري كي لا يفصح عن الأسباب التي تجعل منها غبيّة.

سرت مع سلمان، استنشقنا هواء العنّابيّة، قطعنا الساحة متّجهين إلى الحقول المغلّفة بغبش المساء حيث كلّ شيء ممتدّ أمام الأنظار. أخرج علبة تبغه وأشعل سيجارة له وقدّم لي واحدة فاعتذرت، حدّثني عن أحوال خالي الصعبة، فهو ما زال هائماً بنشمة، لا تفارقه صورتها ليلاً ونهاراً، يبحث عنها في كلّ الأماكن، يقولون له ذهبت إلى الشمال فيلحق بها، لا يجد سوى آثار الليلة التي أحيتها، ولم يبقَ شيء سوى صورها معلّقة على جدران كئيبة، وسلمان التقاه في تركيا، حيث تسلّل خالي عبر الحدود حين أكّدوا له وجودها هناك وأنّها مدعوّة لإحياء حفلة ابن أحد رؤساء العشائر. وقال لي سلمان إنّ خالي انتظره لمدّة ثلاثة أيّام في البنسيون الذي يبيت فيه في ماردين، وأخبرته صاحبة البنسيون بموعد قدومي القريب. كان خالي مفلساً، تائه النظرات، شبحًا يسير على قدميه، بدت المفاجأة مُذهلة حين وجده جالسًا في صالون البنسيون على كرسيّ من القشّ وأمامه كأسٌ من الشاي. فتح ذراعيه وعانقه، قَبّلَهُ ولمعتْ عيناه وهو يطبطب على مؤخّرة صاحبة البنسيون ممازحًا شيخوختها كعادته. تجاهل سلمان الأمر وكأنّه لم ير خالي، أشار عليه بالاستحمام، وأعطاه ثيابًا نظيفة، ثم اصطحبه في شوارع ماردين، جلسا في مطعم، وتحادثا كرجال حكمتهم الأقدار،

أخبره بموت أبي، لم يفاجأ لكنّه اغتمّ وتمتم: كان رجلاً طيِّبًا. وبقيا طوال الليل يتحادثان، سلمان تفرّغ لخالي وفي اليوم الثالث دعاه إلى نادي ماردين الليلي وسَكِرَا، طلب له فتاة كي تجالسه لكنّ خالي أشاح بيده وقال سأجد نشمة أوّلاً. هائمٌ في البراري في الحواري، في المدن وبين مضارب العشائر، أخبروه في تركيا أنّ نشمة لم تبقَ سوى يومين بعد أن أدركت أنّ وجودها سيسبّب مشكلة بين رجال القبائل الذين أحبّوا الاستئثار بها لأنفسهم وفرض سلطتهم للوصول إليها، فاستأذنت صاحب الحفل كي تغادر، وكان رجلاً مسنًّا ووقوراً فأذن لها بالرحيل وأعطاها أجرها كاملاً مستعيضًا عنها بمغنّية تركيّة تجوب القرى وتغنّي في الأعراس. خالي الآن ضائعٌ بين الحدود، في عينيه ذلك الألق القديم الذي كنت أراه يشتعل في ترفّعه عن الأشياء. قلت لسلمان هل أستطيع رؤيته؟ قال لي لن تستطيع إمساكه، سيعود إلى العاصمة ويلتقي بالملك المخلوع، الذي كان خالي يقول عنه إنّه عنّابي وسنعيد له الملك ذات يوم. الطريق طويل وأبو الهايم دون زوّادة، كأنّ النجوم تحرسه. في الليل لم أستطع النوم. دخلت أرض الحوش وسمعتُ أمّي وخالتي تتحدّثان بلهجة الواثق أنّ خالي سيعود وسيتزوّج عنّابيّة. رأيت عائشة جالسة على قرص الدرج تدخّن رغم البرد الذي بدأ ينذر بشتاء قاسٍ سيأتي مبكرًا. قالت لي خالي لا ينتقي مثل هذه الأشياء التي أتى بها سلمان وأنّ سلمان هو الذي اشتراها، أجبتها لا أظنّ بل خالي هو الذي حَمّلَ سلمان هذه الهدايا. كانت دفاتري ما تزال مرميّة في غرفة أمّي، لم يقل لي سلمان إنّه أعطاه نقوداً واتّفق معه على موعد للقاء قد يكون قريبًا من العنّابيّة فينساب من بين يديّ كالماء ولا أراه. اشتقت

له، كأنّ قرناً من الغياب قد طال واستقام بيننا جدار من الوهم والسراب الذي يركض خلفه خالي ولن يصل إليه. لن يُمْسك بأثواب الموسلين بين يديه ويتحسّسَ نعومتها، ولن يرتاح في حضن نشمة أخيراً، سيبقى أسير الخطوات الممحوّة والصور المعلّقة على جدران مغبرّة، قال لي هادي إنّ العاشق لا يُمسِكُ إلاّ بالسراب، أجبته أريد أن أصبح ظلاًّ لخالي، فضحك ورأيت أسنانه لأوّل مرّة لامعة، متماسكة، مصفوفة بعناية شديدة. لم يمهلني كثيراً كي أفكّر في معنى ضحكته، وكأنّه يقول لي إنّي سأبقى أسيراً لهذه الجدران المغبرّة ولهذه البراري الصامتة، لهذه الخرافات التي يقذفها العنّابيّون من أفواههم كحقائق لا تقبل أيّ جدل، ومسلّمات ليست بحاجة إلى مراجعة أو نقاش، حول درب الغياب وجَدّهِمْ عنّاب وعذاب الأوّلين وصفاء سلالتهم وغربتهم عن العالم الذي لا يعترف أنّهم أصله.. في مللهم، في ثباتهم، تتكشّف الأشياء والحقائق الواهمة عن تاريخ ضائع وعن صفحات بيض اختفت الحروف منها فأربكت متتبّعي الأثر وضلّلت كلّ الباحثين عن الخيوط الأولى، عن الحروف ومعاني الكلمات، قلت لهادي، ليست المشكلة في رسم الخريطة بل في تحديد النقطة المصيريّة التي سوف تكشف لنا عن حقيقة الكنز والمدوّنات التي ضاعت، بعدما بعثرها العنّابيّون في لهوهم، وفي عدم اكتراثهم بكلّ ما سيقال وما قيل عن أنّ تاريخهم هو حفنة من الوهم ذرّتها الريح مرّة فتغلغلت في مسامّاتهم وسكنت تحت جلودهم. هادي لم يعد يكترث كثيراً لما أقول وبدأ الملل يتسرَّب إليه وكأنّه ما زال ذلك الجالس على كرسيّ يراقب البشر يمرّون أمامه ويستغربون إصراره على ذقنه الحليقة ووجهه النضر، وتأكيده أنّ الحديد

يطفو فوق سطح الماء محمّلاً بالبشر والسمسم والقطن، وقراءته الدائمة في تلك الدفاتر السود التي يفتحها، يشير بقلم يحمله في جيبه دومًا إلى كلمات وجمل يضع تحتها خطوطًا ويعيده إلى جيبه. تمزّقت دفاتره وبدأ يأكل أعشاب البراري متحدّثًا عن دروب قافلة ضلّت وطُمرت تحت التراب. هادي العنّابي ملامح ضائعة، متساقطة، عليّ جمعها وإعادة النضارة إليها. يقول لي أحمد الجمل إنّ الألوان التي تضيع هي الجديرة بالبحث. أقول له ارسم لي بورتريه لهادي فيؤكّد أنّه سيفعل، ولكنّه مشغول الآن برسم وجه اللّه الذي تفيض الألوان على حافّة لوحته، فيقول لي انظر، وأرى أمامي ذلك البياض، يشرح لي أنّ الأزرق المتداخل مع البرتقالي لون عصيّ ويتعبه، لكنّ الملامح لا تظهر، تعود للغياب مرّة أخرى، وأنّ اللّه يفلت من بين يديه كلّما اقترب من الملامح الرئيسيّة. أسترخي على الأريكة الوحيدة، وتنتابني رغبة الراحة فأتمدّد، ولا أعود أسمع صوت أحمد، يتركني لصمتي ويعود إلى ألوانه، أو يجول في الكهف، ثم يحدّثني عن فطّوم، ورائحة الأنثى في هذا الجحيم المسمّى بالعنّابيّة. فهمت أنّه ملّ منها، لكنّه إن غاب عنها سيشتاقها ولا يعرف لماذا تقوده قدماه إلى ذلك الفراش، وإلى جسد مترهّل لكنّه لذيذ ودافئ. وسمعته يخبرني بأنّ أوان رحيله قد حان، سيذهب إلى العاصمة، نقوده بدأت تنفد، والألوان لن تكفيه كثيرًا، سيبتعد عن هذه المرارة التي يُحِسّها في حلقه كلّ صباح، وبهذه العيون التي تتعلّق به حين تراه خارجًا من كهفه فتتأمّله باستغراب وتستعيد من مفرداته الجاهزة للردّ على أيّة أسئلة لا تعجبه، خاصّة الأسئلة التي تستفسر عن أبيه الذي هجر منزله وتشرد على البيادر وفي الحقول، زائغ

النظرات، قذر الثياب ولا يستطيع النوم. تحاشاه أحمد تمامًا وامتنع عن ذكره تمامًا كأنّه لا يعنيه، وإن كنت أحسّ بداخلي بأنّه لم يسامحه، ولا يكفيه كلّ هذا الجنون والازدراء. إذا ترك أحمد هذه الأرض، فماذا سيتبقّى لي في هذه البراري التي يطنّ فيها الذباب وتسرحُ في أرجائها الأرواح الهائمة، أفكّر وأنا مستلقٍ كأنّ خدراً أصابني وأنا أتذكّر أنّ العنّابيّة غبار.. وغبار.. ولا شيء إلاّ الغبار. يجب إنهاء التدوين أو التخلّي عنه لمن سيأتي ويكون أكثر احتمالاً وأنطلق معه، نجوب المدن ونبحث هناك عن مفردات أكثر جمالاً، ومشهداً أكثر حيويّة كي نُلَوّنَهُ، أسمع صوت ضربات ريشة أحمد على اللوحة البيضاء المعلّقة على المرسم، وكلماته المتقطّعة عن حقائق لا وجود لها، أو لا تهمّني. يعاودني الصَمَم، أرى حركات يديه، ولا أسمع شيئًا، أدخل أرض الحوش من الباب الواسع فأرى البغلين واقفين كأنّهما يستجديان أمكنتهما. أرى أشكالاً بشريّة تتحرَّك وتمارس دقائقها. ترعبني حالة الصَمَم التي تعاودني بين حين وآخر حين أكون جالسًا مع جدّتي كثيراً ما تنتابني كأنّه عليّ اكتشاف كلّ شيء بنفسي، أو تعلّم قراءة الشفاه والمخفي من اللغة التي لا تظهر. أرى طيف عائشة، ثم تصبح الرؤية واضحة، تكلّمني فلا أسمعها، تدور في أرجاء الحوش وأمّي تكلّمها من شبّاك غرفتها، أودّ أن أقول لعائشة كلّ شيء، أخبرها عن المدوّنات المفقودة وجولاتي مع هادي العنّابي في تحديد الأمكنة الضائعة، وعن الكنز الذي يحوي على عقود من ذهبٍ وعقيقٍ تزيّن عنقًا جميلاً كعنقها، قد تدلّني على إشارات تعرفها وتشاركني السرّ الذي من أجله أصبحت مُدَوّنَ الحكاية، وأنا غارق في الصَمَم تارة، وفي الغباوة تارة

أخرى، ودائماً الحيرة تتلبّس ثيابي، فلا أستطيع المكوث طويلاً عند أيّة حقائق تأتيني من روايات العنّابيّين، فأعتبرها دوماً بحاجة إلى مراجعة وإهمال فيما بعد، علّ عائشة تصل إلى مفاتيح الأبواب المقفلة وتزيح الرتاج، تدخلني عالمها السحري وتُعَلّمُني أسرار المرأة التي أتقنتها دون أن تضيع كثيراً في الأوهام والأخلاقيّات المتناقضة، فغدت كأنّها عارفةٌ بكلّ شيء وستفصح عن سيرتها حين يبلّلها الماء وتخرج عارية تماماً ثم تبدأ بكتابة تاريخ جسدها الشهي، وتقول هذا قانون الكون فَدَوِّنْهُ.
أسيرُ بتباطؤ إلى غرفة جدّتي، الخطوات نفسها، جدّتي محدِّقة في البساط وزليخة ترتّب أشياءها وتشغل نفسها برائحة المكان. أجلس على العتبة وأتذكَّر أنّ أبي جالسٌ هناك ويسألها عن موعد زرع الشواهد، وددتُ أن أسألها أما نبتت شواهد أبي وأثمرت...؟ التفتت زليخة إليّ وقالت لي سأجهِّز الشاي، عاد السمع إليّ فهدأت قليلاً، رفعت جدّتي نظرها إليّ ورأيتها متعبة كما لم تكن من قبل، تغضّنات وجهها قد ازدادت، طيف ابتسامتها أكثر حزناً. بحثت عن المفردات المناسبة كي أسألها، أُعَبّرَ لها عن إحساسي بجثمان التدوين الثقيل، تخبرني أنّ الشتاء سيأتي قارساً أكثر من المعتاد، أبحث في أرجاء الغرفة الواسعة عن روح ضالّة، عن خطوات أناس تناستهم الأمكنة، ووجوه ضاعت في الزحمة، أبحث عن الصندوق الذي بقي لغزاً، فاجأني حين أخرجت منه كفناً مُعَدّاً لأبي فأحال كلّ فرضيّاتي إلى سراب وأعادني إلى نقطة البحث الأولى، كأنّي أرى الدفاتر السود مركونة في قعر ذلك الصندوق الذي لم أعرف بوجوده من قبل. زليخة بيديها الطيّبتين قَدّمَتْ لي الشاي وكان ثوبها الأسود يزيد من عمرها فيجعلها امرأة جديرة بالحزن والتروّي أثناء الحديث.

دومًا عيني الأخرى التي تدخل الأماكن المحرّمة تخبرني عن ألوان صخبها وعنفوانها. زليخة كبرت فجأة، موت أبي أحالها إلى أنثى وأورثها مملكة أمّ مسعود التي بدت كأنّها من صلب نسيجها، كأنّها وُجِدَتْ معها هنا ومنذ أزمان بعيدة لا تطالها ذاكرتي، ولا تفصح عنها حروفي الضائعة. روحي هدأت وأنا أغادر الغرفة صاعداً إلى غرفة عائشة التي كانت منهمكة في شغل أكمام كنزة صوف. الأسياخ بين يديها وهي تتناوب النسج بمهارة، انتبهت إليّ فدعتني للجلوس، وهمست لي بأنّها ستصنع كنزة لي فالبرد قادم..

لحظاتُ عائشة مختلفة مثقلة بالانتظار. تحوك لحظات حياتها القادمة، بسرّيّة تامّة، لا تأبه للآخرين ولا تستمع لوجهات نظرهم، تعتبر أن مصيرها يَخُصّها وحدها، وبعد رحيل أبي أصبحت أكثر حرّيّة، بعد ذهاب الذي تشعر بودّ واحترام كبير له، رغم ضعفه ودروع سلاحفه وبغاله التي تَقَيّحَتْ، كانت تقرأ قوّته حين تنظر في عينيه، وتتمهّل في عودته أبًا كبيرًا، حاميًا للدار والحوش والسلالة. كانت قادرة على مدّ جسور التفاهم العميق معه وكأنّها تشاركه المصير. انتظرت أن يوقفها عند حدّها في رفض من تقدّم لخطبتها وإعلانه أنّ العريس المتقدِّم لخطبتها عنّابي وهو أَحَقّ من يتزوّجها. لم ينهض من ضعفه، تركها تتسلّل في الليل إلى حضن المُرافِق الذي تمهّل قبل أن يُمَرّغَ وجهه في صدرها ويلتقط حلمتها العارية بين شفتيه ثم ينزلق بشفتيه على كامل جسمها الأسمر، المتين، الراغب، الفوّاح. تشكّتْ من أهلي الذين بالغوا في الحزن على أبي، وافقتها، عادت لأسياخ الصوف وصمتت. كنت قريبًا من النافذة، أراقب حلول المساء،

الصمتُ يهيمن على أرض الحوش، كأنّ كلّ شيء انتهى، خالتي لم تفارقنا، كأنّها تراجع مع أمّي سيرتهما، تسترجعان التفاصيل القديمة، ومن غبش الماضي تنهض الوجوه البعيدة. خالتي بإيمانها الشديد بالقدر تُهَدّئُ أمّي حين تثور أو يعود إليها الإحساس بالخسارة واليأس، تقرأ لها آية الكرسيّ والفاتحة وتحثّ أمّي على الإكثار من الصلاة. أمّي لم تكن تكترث كثيراً لهذه القَدَرِيّات، مقتنعةً أنّها مُعَدّة كي تؤدّي دور سيّدة هذا الحوش الكبير. خذلها أبي برحيله المبكّر وتركها وحيدة تلوك الصمت ولا تستطيع استجماع طاقتها على ترتيب الأنفاس والتفنّن بإعطاء الأوامر لأخواتي البنات أو تزويجهنّ كما ترغب. انكسرت دفعة واحدة وأصبحت غير مكترثة لشيء ومصيرها الذي وصل إلى خواتمه لم يكن في الحسبان. العنّابيّة صامتة، عائشة صامتة، وأنا صامت، الليل صامت والحجارة، المزاريب، وباب الحوش والفسحة، الإصطبلات دون زفير البغال وبَوْلِها وبعيداً عن روائح التبن.

كلّ شيء صامت ويُوحي بالموت، لم أرغب بالخروج أو الحديث مع أحد، فتابعت التحديق والتدخين مع عائشة، فرشت لي جانب النافذة وطلبت منّي أن أراقب القمر، رأيت في ذبول الضوء كتفيها العاريتين وركبتيها السمراوين، وبان لي صدرها المكشوف وشعرها النظيف، غابت تحت اللحاف، غالبتْ النوم، وسمعتها تتقلّب، استرخيتُ في فراشي وتركت النافذة مفتوحة علّها تأتيني بالهواء فأنام. عائشة تحلم بمدن واسعة، بأضواء كثيرة تتيه في ألوانها وتضيع في زحامها، بسرير نظيف وغرف نظيفة، بأناس نظيفين ومحلاّت تبيع كلّ شيء.

في الصباح كانت الجلبة والضجّة قد تناهتا إلى سمعي، ابن عمّي ومُرافِقه عادا. سمعت صوته الغليظ يُمازح أمّي وعائشة تقهقه في أرض الحوش، رأيته وأنا أستطلع من النافذة ما يجري وغبش النوم في عينيّ، أحسست أنّي نمت دهراً، الشمس تحجبها الغيوم المنذرة بمطر غزير، والهواء بارد. المُرافِق سلّمَ عَلَيّ وهو في طريقه إلى غرفتي التي أصبحت غرفتهما حين يأتيان إلى العنّابيّة، في يده حقيبتان صغيرتان، وصندوق كرتوني مُغَلّف بعناية. قال لي ابن عمّي إنّه من لوازم الحملة الانتخابيّة التي يجب أن أساعده فيها وأنّه يعتمد عليّ، قالها وهو يزمّ شفتيه، لا أعرف بماذا سيعتمد عليّ، وأنّ الانتخابات بعد أسبوعين وأنّه اجتاز المرحلة الأولى بنجاح. أخذ موافقة السلطات على ترشيحه وبقي أن يضمن أصوات أهله العنّابيّين وجيرانهم في القرى المجاورة، وأنّه مرشّح العمّال والفلاّحين، وسيدافع عن مصالحهم في البرلمان. أمّي كانت تهزّ رأسها وتقول إن شاء اللّه دون أن تفقه أو تسأله عن معنى البرلمان وهل هو رتبة عسكريّة كمدير المنطقة أم ماذا. كانت تبتهج لحماسه وأصبحت الآن لا تكترث كثيراً لما يجري بينه وبين جدّتي، وتقول إنّ غضب جدّة على حفيدها سرعان ما سيزول حين يغدو شخصاً مهمًّا يدعم العنّابيّة. عائشة لم تُخْف سرورها بالمُرافِق، فجلست بجانبه على الدرج يشربان القهوة ويدخّنان، رأيتُ أصابع المُرافِق تقرص فخذها وهي تضحك، مهدّدة بأصابعها أنّها سَتُميتَهُ، حين لاحظتْ وجودي هدأتْ وقالت إنّ قهوتي جاهزة. كأنّ أبي قد مات منذ سنوات بعيدة. لا شيء يذكّر بذلك الجثمان المحمول على خشبتين وباب سوى ثياب زليخة السوداء وتجهّمها الذي صَدَمَ المُرافِق حين سَلّمَ عليها وَرَدّتْ باقتضابٍ شديدٍ.

السماء بدأت تمطر، رائحة الأرض فاحت في المكان، من النافذة تشمّمتها، كأنّي منذ أزمان لم تنعشني رائحة، تغيَّر شيء ما بداخلي. أحسست بانتعاش، وأنا أرى الأحجار تلتمع، تغتسل، تتشرّب والأرض تمسح جفافها وتعلن حقَبها، المطر كأنّه سيِّد كلّ شيء. العنّابيّون ذهبوا في هدأة المطر، قالوا كلاماً كثيراً لابن عمّي، كلاماً غير مترابط ومازحوا أمّي قليلاً، ثم هرعوا إلى بيوتهم. كنت أرى نشاطهم وهم يغادرون بعد أن رأيتهم مسترخين بملل وثبات يدخّنون، ويوافقون ابن عمّي على كلّ شيء. عائشة أبدت رغبتها بالنوم قرب النافذة، المطر عاد للهطول خفيفاً، ناعماً. جدّتي لم تنم، فتحت الباب وجلستْ قرب العتبة كأنّها تحادث المطر أو تستمع منه إلى الأسرار.. كانت تبتهج حين يزداد غزارة، لا أعرف إن كنت نمت أم أنّ شيئًا ما وَسْوَسَ في صدري. عائشة رفعتْ اللّحَافَ عن وجهي ورأتْ عينيّ المغمضتين، ثم تسلّلت بخفّة على الدرج. المطر توقّف ثم عاد ثم توقّف ليعود شديداً، غزيراً، عائشة تبلّلت على الدرج وارتوت مسامّاتها، كنتُ أرى بهجة عينيها وهي تدخل باب القبو، ثم ظلّ المُرافق يتبعها، جلستْ على النافذة، ساعة أم ساعتان أم أنّ العمر كلّه قد مضى؟ سمعت كأنّ باب القبو يفتح بهدوء، خرج المُرافق وصعد إلى غرفته، ثم عائشة، رأيتها تدخل الغرفة متسلِّلة وكان وجهها يانعًا، وهي مبلّلة، خلعت ثيابها وغطّت في نوم عميق، وفي اليوم التالي رأيتُها في الظلام تلفّ يديها حول عنق المُرافق وتقبّله في شفتيه وتوغل فيه، عارية إلاّ من سروالها الضيّق الذي يُبرز مفاتنها، امرأة تستعجل اللّذّة، المُرافق يهمس لها اهدئي قليلاً، تهدأ، وتتمدَّد على حصيرة بالية، تفرش ثوبها وتتمدّد. المُرافق عارٍ، تلامس

جسده وتكتم تأوّهاتها. يقول لها إنّه يحبّها، وهي تقول إنّها تحبّه وتنتظر أن يخطبها، رائحة النوم تتصاعد من ثياب الجميع، وحدها الرغبة والنظافة تَشعّ من عائشة التي أصبحت مشاعرها تجاه المُرافِق مفضوحة لاحظها الجميع. ابن عمّي زار عفرين والقرى المجاورة، تحادث مع مدير المنطقة وموظّفي الحكومة ومن يهمّهم الأمر، وعاد مسروراً. قال كلّ شيء سيكون على ما يرام، أصبح سيِّد منزلنا دون أن أدري لماذا وكيف. كان يقوم بدوره كسيّد، يتفاهم مع أمّي حول أفضليّة تأجير الأرض ومستقبل عائشة وزليخة. قال سنزوّجهما. أمّي في زحمة الزيارة عادت إلى طبيعتها وإن بدت كأنّها قد هرمت وحركتها أصبحت بطيئة وما زالت ملامح الحزن تظهر على وجهها، حين تعود من المقبرة كلّ يوم، تجلس على الدرج وتبكي، وإن كانت نوبات البكاء لا تدوم طويلاً، تنتهي بالترحّم على أبي وتمسح بباطن ثوبها دموعها ثم تنهض آمرةً عائشة أن تذهب وتأتي بالماء من البئر، متناسية زليخة التي ما عادت تخرج كثيراً خارج الحوش. ابن عمّي قال إنّه سيأخذ أمّي معه إلى العاصمة لتزور بيت عمّي، وإنّهم سيعودون جميعًا قبل الانتخابات بثلاثة أيّام. أمّي لم تُبْدِ رأيًا، وتحمَّست عائشة وقالت نذهب جميعًا، وأقنعت أمّي أنّه يلزمنا الكثير من الأشياء قبل أن يدخل الشتاء. أمّي لم توافق ولم ترفض وبعد يومين قالت خالتي يجب أن تذهبوا، وأوصتني أن أبحث عن أبي الهايم، وجدت نفسي متحمِّسًا للذهاب إلى العاصمة، وقلت لأمّي علينا أن نذهب، فوافقت ممنّية نفسها برؤية خالي. وتحت إلحاح عائشة، استأذنت جدّتي التي شَجّعَتْها على زيارة بيت عمّي، وقرّر الجميع موعد السفر في الصباح. العنّابيّة موحلة، المطر

استمرّ بالهطول متقطّعًا وخفيفًا، ثم غزيرًا، ينقطع فجأة ويعود. ثلاثة أيّام لم تعد الشمس إلاّ من وراء الغيوم التي استمرّ عبورها في سماء العنّابيّة، أوصاني أحمد الجمل أن أستمتع بوقتي في العاصمة وأعطاني نقودًا كي آتيه بألوان، ألوان قليلة تكفي هذه اللوحة، وأشار بيده إلى لوحة وجه اللّه، التي كلّما ازدادت ألوانها ازدادت طلاسمها وعادت إلى بياضها الأوّل، إلى عمائها، أحمد عاد إلى الأريكة، وقال لي إنّ اللغة الفرنسيّة بحاجة لمن يتحدّث معه كي يتقنها، الكتاب على الطاولة مُغَبرّ، يُوحي برجل ترك وراءه كلّ شيء ومضى، قال إنّه سيهاجر ولا بدّ إن لم يكن في هذا الشتاء فبعده، ولن يستطيع الاحتمال أكثر في هذا المكان الغريب. أصبح المكان غريبًا وغدا أحمد أكبر، صامتًا كأنّ حبال الكلام قد تقطّعت أو اكتشف اللاجدوى من تكرار الأمنيات والأحلام وانتظار من سيغيب من العنّابيِّين أو من سيرجع منهم كي يتحدّث عن أشياء غريبة، كعودة ابن عمّي الذي سيصعد أدراج البرلمان عبر العنّابيّة وأصوات العنّابيّين رغم أنّه حين تركها بصق على حجارتها وأقسم أمام ذاته إنّه لن يعود إليها مطلقًا. ويذكر معاصروه أنّه حقيقةً لم يعد إليها حتى يوم وفاة أمّه، لم يأتِ إلاّ بعد الدفن بعشرة أيّام، ولم يتأخّر في المبيت أكثر من ليلة، تلقّى خلالها التعازي الذابلة من أفواه العنّابيّين وعاد مرّة أخرى إلى أعماله في العاصمة التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا، والعنّابيّون بطبعهم لا يكترثون للكلام كثيرًا، نادرًا ما تَحَمّسُوا لشيء، يعتبرون هذه الساحة الترابيّة التي يستريحون تحت ظلال جدرانها في الظهيرات ويستمتعون بنسائم العصر الباردة في فضائها هي كلّ العالم. حزنهم لا يطول وفرحهم لا يكتمل، كأنّه لا يوجد ما يستحقّ أن

يقـاتلوا من أجله أو يـعيـشـوه حتـى الثـمـالة، ومع الزمن تولّدت لديهم قناعـات أنّ كـلّ الراحلين سيـعـودون إلى هذا التـراب الذي بصـقـوا عليـه ويُكْثِرُون الكلام عن الشـوق وعظمـة التراب الذي سار عليـه عنّاب ذات يوم. قـال لي أحـمـد الجـمل إنّـه لن يعـود إن خـرج من العـنّابيّـة، هذه الخـرائب موتٌ مـؤجَّلٌ، بطيء، تجعل من الإنـسـان سـحْليّـة تبـحث عن دفء جحرها وملامسة التراب لجسـمها، تلامسه وتمضي، لا ترفع رأسها ولا تحفـر في العمق. تراءت لي العنّابيّة بعـد المطر الخفيف مـختلفة، أكثر حنانًا وأقلّ قسوة، الريح الخـفيـفة الباردة المُنْـذِرَة ببشائـرِ الشتاء تجعلُ من التـدخين متـعة. كـان هادي واقـفًا قـرب المقبـرة، قـال لي تأخّـرت، رأيت وجـهـه نضـراً، وخطواته واسـعـة، وأضـاف أنّ العـواصم لا تُفْـصِحُ عن جـوهرها فـابحث عن العـمق، أخبـرته أنّ زيارتي قـصيـرة لن تسـمح لي بالتشـرُّد في الأزقّة واكـتشـاف ما لا يُرى، أريد الوصول إلى نهـاية هذه المهـزلة. أين الحكاية يا هادي ومـا عـلاقة ابن عـمّي الذي سيـصبح نائبًا؟ لأوّل مـرّة نائب عنّابي، ضـحك هادي وقـال لي إنّ الكـثيـر من العـنّابيّين سبقوه إلى مواقع السلطة، حتى وإن كانت جلودهم نسيت رائحة التبن. وكثير من العنّابيّين تلاقوا في مواقع مختلفة، متعارضة، فكانوا الجلاّدين والضـحايا بآن واحـد، الحـاكـم والمحكـوم. البـرّيّةُ الشـرقيّة امـتـدادٌ شـاسعٌ، مُحَيِّرٌ، أرغبُ أن أركضَ حتى أصلَ إلى نهـاياتها، هناك أضع حجرًا تحت رأسي وأنام، أو أجـد حـبـال الليف الموصلـة إلى تلك الموائد التـي يجلس حولها عنّاب ومن حوله صحبه. لم أعد أرغب بمجاراة هادي، كلّ شيء أمامي، الوثائق الضـائعة لا أحتـاج إليهـا، التـاريخ يُكتب هكـذا من فـراغ ثم يبـدأ رسم الحـدود، كلّ التاريخ كُتب من فـراغ، هم كـتبـوا تاريخـهم

ونحن يجب أن نكتب تاريخنا، لكن بأيّة لغة وكيف؟ وأحمد الجمل بأيّة ألوان سيخطّ الدروب والسماء والبيوت وأرواح البشر، شكل شواهدهم وعبق أنفاسهم حين يعشقون. كيف ستبدو عائشة في الحكاية؟ كيف ستدلّي قدميها هازئة بملل العنّابيّة، واللحظات المنفلتة سهواً؟ كيف ستمدّ لسانها لحجارة العنّابيّة وتخطو على درب الغياب؟ وهناك في مكان ما ستخلع روائح جلدها، وتبقى العنّابيّة كأيقونة تحفظها في أعماقها وترشّ على جسدها ما تشاء من العطور التي يحبّها رجل يأتي إليها فتهفهف باتّجاهه كحمامة. كيف يبدو جسدها المتشقّق من طول الانتظار، من الجفاف، من الخوف، من الأخلاق التي لا تعرف متى ترفع سيوفها لتقتصّ من مسامّاتها وشفتيها العذبتين بامتلائهما؟ أيّ تاريخ هذا الذي يتسرَّب من شقوق سروالها ويمضي تاركًا كلّ شيء للعَمَاء؟ أيّة أنفاسٍ عذبة يتركها شهيق المرأة على رقبة الرجل؟ كأنّي بدأتُ أخاف من انهيار كلّ شيء وضلالي، يُضَيِّعُني الضجر فأنتظر زرع الشواهد وأحفظ كلّ تفاصيل اليوم العنّابي. العنّابيّة التي لا تطيل السهر في الشتاء ذابلةٌ فوانيسها، أرى جدرانها ترشح سأماً وضجراً أحال عائشة إلى كتلة أحاسيس حاقدة على هذا الخواء الذي انتظرت انهياره طويلاً فاختارت الماء صديقًا حين يسيل على جسدها، يتغلغل في مسامّاتها، ينحدر من بين نهديها الأسمرين، الصلبين، كأنّ تلك الأصابع التي تعرف سحر لذّتها قد بدأت بتطهيرها. أمّي قالت إنّها لن تسافر، فاجأتني رغم أنّي لم أكترث كثيراً حين أكّدت أنّي سأسافر مع عائشة لتشتري أغراضًا وتزور بيت عمّها أيّامًا قليلة وتعود. لم أناقشها، نظرتُ إلى عيني عائشة، ورأيت البريق نفسه الذي لا

يخبو. كلّ يوم أحبّها أكثر، أحبّ هذه القوّة والحيويّة التي يُضْفِيها حديثها حين تبدأ بالتعليق على حديث عنّابي لا يُصدّق، أو حين تريد أن تثير أحداً فتوقظ الرغبات النائمة. في الليل قالت لي عائشة إنّها فرحة، سترى العاصمة وتتجوّل في شوارعها. في الصباح استيقظتُ مبكّرًا على جلبتها وكانت ترتدي فستانًا جديداً ملوّنًا بأزهار حمراء منمنمة، محتشمًا وطويلاً، وفوقه جاكيت من الصوف الأسود وتفوح منها رائحة عطر أعرفه. أمّي همست لها بكلمات كنتُ أُقَدّرُ فَحْوَاهَا، مجموعة من الوصايا لا بدّ منها. خرجنا من العنّابيّة، انتبهت إلى غبش الصباح، البرّيّة الشرقيّة ضباب، كلّ شيء ضباب، نظرتُ إلى عائشة كانت عاشقة.. هادئة.. متوازنة.. خائفة من شيء ما، فقدت جرأتها في الحديث والتعليق اللاذع الذي لا يفارقها. استرخت وانشغلت بالتأمّل، وكأنّها تسترجع حساباتها، بوّابة العاصمة كانت مفتوحة على حديقة كبيرة انتصبت وسطها لوحة معدنيّة وسم عليها جنود وعمّال وفلاّحون. لا أعرف إنْ كنتُ نمتُ خلال الساعات الأربع، أمّ أنّي كنت ذاهبًا في غيبوبة من الأحلام، عائشة قالت إنّي نمت وكنت أشخر ولم أنزل معهم عندما استراحوا في كافتيريا على الطريق وتناولوا العصير. كانت عائشة مندهشة تُحَدِّقُ في كلّ شيء، الأبنية العالية، النسوة اللواتي يسرن على الرصيف فرادى وجماعات، متأبِّطات أذرع الرجال أو وحيدات، تتابع بنظراتها مداخل المدينة. كانت الجدران قد بدأت تغصّ بصور المرشّحين لمجلس النوّاب، واللافتات المؤيِّدة لمرشّحي الحكومة تشرح أهدافهم. كان كلّ شيء يُثْقِلُ عليّ، صور رجال معلّقة على الجدران، طلب ابن عمّي من مرافقه أن يُنْزِلَهُ في مكانٍ لم أتبيّن اسمه،

ويتابع بنا إلى بيت عمّي، الذين فرحوا بنا. أتت امرأة عمّي وقَبّلَتْنا، ثم أثنت على جمال عائشة ونظافتها، ثم قادتنا إلى غرفة الضيوف كما كانت تُسَمّيها، وأخذت عائشة من يدها إلى غرفة أخرى، وطلبت منّي أن آخذ راحتي في هذه الغرفة المفروشة بستّ كنبات قديمة ومهترئة قليلاً، وعلى الحائط رأيت صورة لعمّي، يبدو فيها بعمرٍ لا يتجاوز الثلاثين سنة. التفّ أولاد عمّي من حولي وقالوا لي احكِ لنا عن العنّابيّة، وسألوني إن كان أبي هو الذي توفّي الشهر الماضي. المُرافِق أبدى استعجاله وقال إنّه سيأتي مساء لاصطحابنا في مشوار، عائشة كأنّ المكان غَيّرَها، بدت خجولة، وهي توافق وتقول بخفر لا تتأخّر، كلّ شيء كان مملاًّ منذ اللحظات الأولى عكس ما توقّعت من أنّي سأجد شيئًا جديداً، الشوارع المزدحمة كانت تُضَيِّعُني وتجعلني أحسّ أنِّي سأتبخّر في كلّ لحظة، وأنّ نُقَاطَ العَلام التي نبحث عنها والخرائط التي أُعيد رسمها مع هادي العنّابي ما هي إلاّ مهزلة أمام هذا الطوفان الهائل من الضغط الذي أحسسته. صور المرشّحين كانت كلّها تنظر إليّ واللافتات المحيّية للحكومة كانت من الكثرة بحيث إنّي شعرت كأنّ معلّم الرياضة سَيُمْسِكُ بأذني الآن ويُخْرِجُني إلى السبّورة ويركلني بقدمه أمام كلّ التلاميذ، ويقول لي هل رأيت كم أنت خائن وكلب، ويأمر التلاميذ أن يبصقوا عليّ ويرجموني بأحذيتهم. التلاميذ سيتردَّدون قبل أن يبصقوا عليّ، وفي الخارج سيعتذرون منّي ويتضامنون معي. عائشة تفاهمت بسرعة مع امرأة عمّي التي تحاول دومًا إظهار شبابها الزائل، والتظاهر بتأقلمها مع الجوّ في العاصمة. قدَّمت لنا القهوة بفناجين نظيفة وكانت تمطّ الكلام وتريد إفهامنا أنّها

قـد نسـيت لهـجـة العنّابيّـة وترأف بسكّانهـا، الذيـن يأكلهـم الوسخ. عائشة توافق أحيانًا، وأحيانًا أُحِسّ بِلُؤْمٍ يَتَلَبّسُها فتعيد تَذكيرها ببيتهم المؤلّف من غرفة وإصطبل. فتجعلها تتوقّف قليلاً وتسألنا بالتفاصيل عن أحوال الجميع. عمّي أتى مساءً، وقال إنّه سيتناول عشاءه ويعود، وسيأتي صباحًا بعد موعد انتهاء ورديّته من حراسة البناء، سُرّ بحضورنا، سألني عن كلّ شيء في العنّابيّة، المواسم، المطر، أمّي وجدّتي والعنّابيّين، بطيبته كان يهزّ رأسه، ويحمد اللّه على كلّ شيء.

العنّابيّة طين وجدران مبلّلة بالمطر، وحشة المكان والمساء المتثاقل يتهادى، كأنّي رأيتُ آخر المشيّعين وأنا أراقب الشواهد في المقبرة، قالت لي أمّي تدثّر قبل أن تخرج. تدثّرت أم خرجت عاريًا، المهمّ أن تبحث عن درب الأرواح كي تهتدي أخيرًا إلى ملاذك الأخير قلت لنفسي. كانت العنّابيّة وجهًا ممسوح التضاريس، كلّ شيء ممحوّ بدون نكهة، وبدون ملامح. كلّ يوم أغوص أكثر وأشعر أنّي سأغرق في هذا الوحل وسيلطّخني الطين، لن أصل إلى تلك الأبجديّة التي أبحث عنها، لا أحد يمتلك الحقيقة. قلت لجدّتي ارحميني أريد أن أقذف بكلّ ما أعرف من النافذة ليتحطّم الزجاج المعشّق وتضيع خطوات الرجال. لم أعد أرغب في شيء، لا أريد أن أكون شاهد هذا الجنون، هذا التبعثر، هذا الألق المفقود، قلت لهادي ونحن نعبر باتّجاه درب الغياب، قال إنّ هناك حجرًا خبّأتُ تحته المفاتيح قبل أن تضيع الخرائط، قلت له مَلَلْتُ الوهم، لماذا تحاصرون الحكاية بأوهامكم؟ قل ما الذي جرى حتى ضلّت الأبجديّة عن طريقي. قال لي جادًّا وبدا لي كأنّه غاضب إذا كنت تظنّ أنّ الحياة جملة من الحقائق فأنت واهم، يجب أن تخلق وهمك كي

تعيش، وأشار إلى صخرة كبيرة وقال لي هناك خبّأت مفاتيحي التي تُفيدُكَ إن وجدتها، حتى لو كانت صدئة، سرت وحيداً إلى الصخرة وعرفت أنّها مدخل إلى كهف يُشْبِهُ كثيراً كهف أحمد الجمل. الظلام في الداخل والإحساس باللاجدوى يجعلني أعود ضائعاً، تائهًا. في البرّيّة الشرقيّة أرى الظلام وقد حلّ ثقيلاً كعادته في الشتاء، العنّابيّة صامتة، صامتة، وأضواء الفوانيس ترسل ضوءاً شحيحًا لا يُوحي بأنّ هذا المكان مأهول. قرب شاهدة أبي رأيت البغلين قد اقتسما الفسحة بين قبره والقبر المجاور. كلّ ليلة كان المطر يزيد من نتانة قروحهما، والشمس في الصباح لا تستطيع تجفيف عفنهما، البغل الأبيض بدأ يعرج ويتحامل على أَلَمِه كي يستطيع الابتعاد خطوات باحثًا عن بقايا عشب أو تبن من بقايا البيادر. البغل البنّي ما زال يجول في أزقّة العنّابيّة وحيداً، يقف قرب عائشة التي تُمَسّدُ له رقبته وتسقيه وتبتهج حين ترى امتنانه العميق للمستها. المقبرة تبدو لي أكثر الأماكن حرّيّة وصخبًا كأنّي أرى الأموات مُعَلّقِينَ على أغصان شجرة التوت الكبيرة التي تُظَلّلُ مزار عنّاب وما حوله من قبور، وتقول جدّتي إنّها شجرة عنّاب احتمى في ظلّها وأقام تحتها حتى فارق الحياة. على باب الكهف رأيت أحمد الجمل فأومأ لي بالدخول، دخلت، قال لي إنّه ذاهب وقد يتأخّر، كانت رائحته العطرة ووجهه النظيف وحالته النشيطة توحي لي بارتياح لم ألحظه من قبل، تابع بأنّني أستطيع العبث بالمكان كما أشاء وفطّوم تنتظره. وقد وعدها أنّه لن يتأخّر. رأيت ظهره وهو يغادرني ويخبّ على الدروب غير المألوفة، بين السناسيل ويدخل في الأراضي المحاذية للطريق، يَتَخَفّى أحمد كي لا يراه عنّابيّ يفسد عليه متعته.

دخلت إلى الكهف وجلست على الأريكة. شعرتُ بوحدة رهيبة وأُلْفَةٍ لم أشعرها من قبل. تَسَمَّرْتُ في مكاني، رأيت على المرسم اللوحة نفسها التي لا تنتهي، بحثت عن وجه اللّه، عن ملامحه، الخطوط الأساسيّة التي توصلني إلى تخيُّل الوجه أخيراً، كان كلّ شيء ضبابيًّا، الألوان متغيّرة، البياض مرّة أخرى أغشى عينيّ، والفقدان الذي كنت أحاول ألاّ أصل إليه، تلبّستني حالة الانتقال إلى مكان آخر، ترك هذا الكهف الذي مارس عليّ خلال اللحظات القليلة نوعًا من الهيمنة التي لا أستطيع الهروب من مناقشة حقائقها، وتذكّرت أنّ هادي أخبرني بأنّ المفاتيح تحت الصخرة، وتحت الصخرة سراديب لا أقوى على رؤية نهاياتها. باب المغارة واضح، ضيّقٌ يسمح بمرور جسد طفل في الثالثة عشرة من عمره، بمرونة كنّا ننزلق، أنا وسلمان وجماعته إلاّ أنّنا لم نجرؤ على الإيغال بعيداً، كان الظلام مخيفًا، أين ضيّعْتَ المفاتيح يا هادي؟ على الطاولة الكتاب الفرنسي وقد مسح الغبار عن جلده وصفحاته، فرأيت رسمًا لرجل يلبس ثيابًا مزركشة وبيده أنبوب اختبار، أدركت أنّه طبيب عبّاسي أو أموي، لا يهمّ كثيراً. أحمد وضع تحت بعض الكلمات خطوطًا حمراء، وأخرى شدَّد عليها. أريد الخروج، لا تستطيع قدماي أن تحملاني وتسيرا كما كانتا تفعلان. لو أستطيع الاسترخاء، لا أستطيع. كأنّ هذه الريح الشتائيّة ستمحو آثاري وتطمرني، تنثرني في أرجاء العنّابيّة كي أضيع، فكّرت أن أنسب وسيلة لمقاومة هذه الحيرة، ألاّ أغادر كهف أحمد الجمل أو أنشغل حتى أذنيّ كما كلّ العنّابيّين بزراعة الأرض ثم السأم، والضجر، ولفّ سجائر التبغ والتحدّث ببطء أو الرحيل عبر درب الغياب، متناسيًا المفردات

والصفحات والخرائط والمجلّدات التي ضاعت تحت الغبار، تاركًا هادي العنّابي بيديه النظيفتين ووجهه النضر جالسًا على الزاوية منتظرًا عبور السفن مرّة أخرى، محمّلة بالسمسم والقطن والرجال. المكان مرّة أخرى حامض ومثير للهزء بكلّ ما يحمله من ثبات. لا أرى أمامي وكأنّي لم أنتبه أنّي مللتُ فعلاً من هذه اللحظة التي أعبر فيها تحت القنطرة كي أصل إلى أرض حوش مفتوحة على سماء واحدة. أصعد إلى غرفة عائشة التي تركت لي الفراش ممدوداً قرب النافذة كأنّنا نتبادل الأدوار، ونتفاهم بشيفرة سرّيّة وبانسجام كامل. كان وجهها مكشوفًا، حالمًا، قويّ التفاصيل بما يكفي كي ألاحظ أنّها تنتظر شيئًا ما، قد يكون رجلاً، مدينة، صديقة، طفلاً، حكاية تُروى.. مُدَوّنَاتٌ تُقرأ، عائشة هي الهَتْكُ الوحيد للزمن، تضامنتُ معها أكثر حين أيقنت أنّها عاشقة فعلاً ولا تعبث فقط كما كنت أخمّن وأقدّر من تلصّصها. بدت لي مهمومة حين كنّا في العاصمة رغم انبهارها الشديد بالأضواء وألوان الثياب الفاضحة التي تحبّها، واعتززتُ بها حين أفحمت امرأة عمّي ونسوة الحيّ اللواتي تعرَّفت عليهنّ فأصبح وجودها ضروريًّا في دائرة القهوة الصباحيّة. بدت منفتحة، مرحة، لذيذة، حلوة بثيابها المدنيّة، بانت لي ساقاها المنتوفتا الشعر عمودين من مرمر أسمر، مصبوبين بعناية دون أيّ خطأ، وأبدت خبرة فاجأت الجميع وهي تُفْصِحُ عن ركبتها بلؤمٍ حين تلفّ ساقًا على ساق، وتَدّعي أنّها تركت الروب ينزلق ونسيته ثم تنتبه إليه فَتُنْزله بهدوء وتأنٍّ. كلّ شيء فيها بدا لي حلواً، رغبتُ بترك مهمّة التدوين لها والبحث عن الكلمات والمفاتيح والخرائط في أنفاق الظلام. كانت نائمة ومن تحت اللحاف ألحظ ساقها الخارجة عن

سيطرة اللحاف. امرأة تعبد جسدها، حركتي أيقظتها، نظرت إليّ مشيرة بالتحيّة ثم عادت للنوْم. تشمّمت عبق الشرشف، وعرفتُ أنّها منحت أسرارها، تحتفظ بالشراشف في خزانتها ولا تسمح لأحد ملاحظة أنّها لا تستطيع النوم على أيّ شرشف ما لم يكن معطّرًا. وسط هذا القَفْرِ تُقيم مملكتها الخاصّة، لا تتكلّم عنها ولا تفصح، حتى جلساتها السرّيّة مع البنات بدأت تفقد بهجتها وما عادت تُثيرها، أو تملأ خيالها برغبات جامحة من الانعتاق، وما عاد ذكور العنّابيّة يعنون لها شيئًا. أصبحت أكثر تحفُّظًا بعد موت أبي، ما عادت تُفسح مجالاً للعيون أو للكلمات القليلة المتساقطة من أفواه العنّابيّين أن تُغريها بالابتسام ممّا جعلهم يُحْجِمُونَ عن التغزّل بغندرتها واقشعرار بدنها بلذّة حين تتسرَّب المياه إلى رقبتها. أصبحت بعيدة، كأنّها تُحَلّقُ وحدها فوق الخرائب وتصعد إلى منارة عنّاب كلّ ليلة. هناك تجلس وتشارك الأموات الضياء والحقائق الأزليّة التي ما زلت أبحث عنها. عائشة تفلتُ من يدي بنضوجها الذي كنت أعرف أسبابه. الحبّ يجعلنا دومًا في مواجهة الذات والتفاهة، هذا ما قلته لنفسي وأنا أرى بريق عينيها حين يمدّ المُرافِق يده ليصافحها، تمدّ أصابعها متمهّلة تريد احتضان يده والصعود إلى رقبته أمام الجميع، لكنّها تؤجّل كلّ شيء. وصل المُرافِق وحيداً وأخبرنا بأنّ ابن عمّي سيلحق به في الأيّام القادمة، أي قبل يوم الانتخابات بيوم، أنزل المُرافِق من السيّارة صندوقًا كبيراً وبطّاريّتين كبيرتين وقال هذا تلفزيون لتتابع العنّابيّة الانتخابات على الشاشة، قالها بفخر وطلب منّي مساعدته بنقل الأغراض إلى غرفته، أمّي رجته أن يعتبر نفسه في بيته وأنّه أصبح واحداً من أفراد العائلة. المُرافِق شكرها

بتأثّر وناولها صورة كبيرة لأبي، كان قد أخذها ابن عمّي وقال إنّه سَيُكَبّرُها ويبروظها ويلوّنها ويأتي بها لنعلّقها في صدر الغرفة. أمّي وافقت بحماس، ورأيت عينيها تلمعان وهي ترى أبي مبتسماً، كان شابًّا حين زار العاصمة وأقنعه مصوّر في الحديقة العامّة بالوقوف قرب النوافير والابتسام، وقف أبي قرب النوافير وابتسم وانتظر حتى ناوله صورته التي قال عنها أعجوبة أن تثبّت هذه الابتسامة في الزمن. احتفظت أمّي بها في صررها العديدة، حملت الصورة بين يديها وذهبت إلى غرفة جدّتي التي أشاحت بيدها بعد أن تأمّلته مليًّا، ولم تتكلّم ممّا أحبطها، ورغم ذلك علّقتها في صدر الغرفة ووضعت فوق جزئها العلوي إيشارباً شفّافًا ملوّنًا بأزرق متماوج متداخل مع أحمر فاقع كانت قد اشترته من القرباط منذ سنوات بعيدة. عائشة ضحكت حين رأت الإيشارب وتهكّمت بأنّ أمّي كانت تستعمله للإثارة، وقالت للمُرافِق إنّها ستصنع القهوة. جلسنا جميعًا على قرص الدرج نُدخّن ونحتسي القهوة، كانت القهوة لذيذة وكنتُ أُحِسّ بألفة لأوّل مرّة أشعرها تتوالد تجاه المُرافِق، بدا مرحًا وطيّبًا وذكيًّا. كان يجلس بجانبي ورأيت نظراته مصوّبة على نهدي عائشة البارزين وقد أبرزتهما حين كانت المياه تفور في دلّة القهوة النحاسيّة، أكملتِ استعدادها في الغرفة وحملتْ فناجين نظيفة. وبدتْ كأنّها تتبختر في أرض الحوش، المُرافِق قال إنّ لديه الكثير من العمل لينجزه وأخبرنا بأنّ ابن عمّي ضَمِنَ نجاحه لأنّه نزل في قوائم الحكومة ممثّلاً عن العمّال والفلاّحين، وأنّ جوريّة وراء هذا النجاح وجميع مرشّحي الحكومة ناجحون سلفًا. استغربت كلامه الواثق كأنّه يتكلّم حقيقة لا أعرفها، سألته عن جوريّة، كأنّه تورّط في

ذكر اسمها أمامي، فغمغم بأنّها امرأة مهمّة، وهي معلّمة ابن عمّي وسكت. ونظر إلى عائشة التي بدت كأنّها تعرفها أو سمعتْ عنها أو حتى من الممكن أنّها جلست إليها وتحادثت معها حين كنّا في العاصمة. عائشة قالت علينا إغلاق هذه السيرة ولنتصوّر. لاقى اقتراحها قبولاً شديداً من المُرافِق الذي نهض وقفز إلى غرفته ليحضر الكاميرا، تركتهما ومضيت. العنّابيّة في النهار شيء مختلف، شمس وهواء بارد قليلاً، العنّابيّون في أراضيهم يُحَضّرُونَها للبذار، منهم من بَذَرَها، وجلس ينتظر المطر كي يضمن أنّ حبّات الجلبان والشعير والقمح لن يلتقطها الطير المهاجر، بل ستغور في أعماق الأرض وتنتش ثم ترتفع سيقانها كي تقارع الريح فيرتاح أخيراً ويطمئنّ إلى تحضير مؤن الشتاء، والعنّابيّات بعضهنّ مع رجالهنّ في الحقول، بعضهنّ من ملأ الإحساس بالوحدة أجسادهنّ ولحظاتهنّ فكنّ يبتسمن أو ينظرن بخفر وبدون تركيز. رأيت فطّوم في طريقي وكانت تحمل الماء فوق رأسها، كان صدرها ذابلاً وعيناها مطفأتين، سلّمت عليها ومضيت، ردّت سلامي بحرارة كأنّي شريكها في السرّ الذي بدأت أؤمن أنّ العنّابيّة لا تخبِّئ أسرارها طويلاً ولكنّها تسكت عنها، الجميع يعرف ويسكت، هذا هو القانون. خرجت إلى الأراضي وقاسمت العنّابيّين زوّادتهم باحثًا في وجوههم عن اللّغة التي لا أصل إليها والتي تفرّ قبل أن تندرج أمامي كي تشكِّل الأقسام الممحوّة من الحكاية المفقودة. عدت مساءً إلى الحوش وسمعت ضحكات عائشة العذبة وأصواتًا أخرى. انعطفت إلى غرفة جدّتي كأنّي أبحث عن مستقرّ لخطواتي الضائعة، زليخة قريبة منها تبدو من مكاني على العتبة كأنّها تحتضنها،

ووجه جدّتي قاس، جافّ، تتفوّه بكلمات متقطّعة لم أفهم منها شيئًا، زليخة خائفة كأنّ كارثة ستحلّ أو أنّ جدّتي تحدس بأوامر للشياطين أو للأرواح التي تناساها الزمن، فغابت في الزحمة التي غَلّفَتْ كلّ شيء. شعرت كأنّني زائد عن حاجة المكان وأنّ جدّتي لا ترغب برؤية أحد، في هذه اللحظات التي قدّرت أنّها متوحّدة مع ذاتها، تركت العتبة واستدرت. السماء تمارس غوايتها، وتهبط على يدي، أسمع صدى خطواتي في أرض الحوش، جلبة السهر المنبعثة من الغرفة الكبيرة، عائشة تروي وصوتها العذب يصلني، ثم كلمات أمّي المتقطّعة، صعدت إلى غرفتها، حيث أحببت أن أشاركها أسرارها، الضوء ذابل، وكلّ شيء ساكن. فتحت النافذة، وجلست في فراشي، غالبت قلقي ورغبت بنوم عميق لا يوقظني منه أحد، نوم مُبكّر، ترتيب جديد للعادات، وددت لو أنّي أستيقظ مبكّرًا، أعلف البغال، وأخرج مع العنّابيّين حيث الحقول، وهناك أستقبل الصباح متفائلاً ثم أدخّن وأتكلّم عن المواسم، وأسترخي في المساء وأعبث بالتبغ وجسد امرأتي. لا أدري إن كنتُ سمعتُ الضجيج الذي رافق نهاية السهرة، وصعود المُرافِق إلى فراشه الممدود وسط الغرفة، أو كأنّي سمعت همس عائشة له أنّها لن تتأخّر حتى تلحق به. أمّي أطفأت الضوء، أغلقت النافذة والباب، وكلّ شيء سكن. عائشة كأنّها فوجئت بي وأنا أحاول النوم وبعينيّ المغمضتين ممّا أوحى لها أنّي نائم منذ زمن بعيد. جالت في الغرفة بهدوء ورأيتها تخلع ثيابها، وعبقت روائح الكريم وعطور لم أتشمّمها من قبلُ في الغرفة. رأيتها من خلال غبش عينيّ وهي تدهن جسدها، رقبتها، طفح نهديها، ساقيها، ما بين ساقيها، بطنها. ثم

أخرجت من صُرَرِها قميص نوم شفّافًا لم أره من قبل، لبسته فالتمع جسدها من بين نسيجه، فَرَدَتْ شعرها وأعادت ترتيب خصلاته، وجلست في فراشها قلقة تدخّن غير آبهة بوجود أيّ كائن، كأنّها ملكة على خرائب. عصف الليل ينذر بمطر عنيف، تسلّلت عائشة من فراشها، لبست عباءة سوداء وخرجت، وأنا أتقلّب بين النوم واليقظة، إلاّ أنّي رأيت كلّ شيء. ذلك الهتك اللذيذ لجسد امرأة ترغب لو أنّ الحياة كأس ماء صاف لشربته أكثر من مرّة وهي لا ترتوي، رأيتها، لحقت بها أم أنّ نظراتي اخترقت المكان من ثقب الباب أم من النافذة، أم أنّي كنت حارسًا لرغباتها؟ وقفتْ على العتبة هادئة، نهض المُرافِق واحتضنها، أشارت له بيدها وقالت له تمهّل. عبرت العتبة وخلعت العباءة، أسرار جسدها كانت مفضوحة، زنداها الأسمران العاريان، نهداها الأسمران الراغبان بالصراخ والخروج من نعومة الساتان الشفّاف.

المُرافِق ارتبك، أخرجتْ عائشة من صرّة أنزلتها من الخزانة شرشفًا أبيض معطّرًا ومدّته على الفراش، رتّبت مكانها واضطجعت بين يدي المُرافِق. كان وجهها مهمومًا، كأنّها عبرتْ في هذه اللحظات وأصبحتْ متمهّلة في ترتيب أمور لذّتها. عَرّتْ صدرَ المُرافِق، وهي تخلع عنه قميصه الداخلي القطني، تحسّست جلده، صدره، وغابت في رائحته. المُرافِق ضاع في عبق جسدها، وكنت أرى نهديها متدلّيين بدون سوتيان وبطنها اللامع في شحوب الضوء، ساقيها وهما تلتفان حول حوض المُرافِق، الذي بدأ يهنهن ضائعًا بهمساته وسط أصواتها المكتومة. أصوات لذّتها. كانت عارية تعيد اكتشاف كلّ شيء دفعة واحدة كأنّها تكتب تاريخها الخاصّ غير آبهة بالخرائط الضائعة. كان

صوتها المبحوح لذيذاً، عنيفاً، وهي تهمس بأذنه مشبوبة أن خذني. المُرافِق لم يتلكّأ، في عتمة السراديب كانت تتكشّف اللحظات التي لا تموت،خيط الدم الذي بَقّع الشرشف لم يُخفْ عائشة قدر ما أخاف المُرافِق الذي صُدِمَ حين وجدها غير آبهة وكأنّها تختار مصيرها وتنكشف كلّ الأشياء دفعة واحدة هكذا، قال لها إنّهما سيتزوجان، وقالت له بأسرع وقت. لم تعد تستطيع احتمال العنّابيّة وضجرها، امرأة منحت نفسها لرجل تحبّه، حقيقة لم أستطع أن أُخْبِرها أنّي رأيتُها أو سمعتُها أو خَمّنتُها. بعد سنوات طويلة ونحن عابران في شوارع بعيدة، في مدينة بعيدة وهي تروي وتتذكّر طعم تلك اللحظة، تصف لي ارتباك المُرافِق، قلت لها إنّي كنت شاهداً فضحكت. عائشة تجول في أرض الحوش ثم تقدّم القهوة للمُرافِق، قَبّلَتْهُ من شفتيه، رقبته، من صدره، وانزلقت إلى بطنه إلى ساقيه وفَرّتْ تاركة القهوة قريبةً من الفراش. قال المُرافِق إنّه سيذهب إلى عفرين إن أحببت مُرَافَقَتَهُ، وكان ابن عبيد منذ الصباح قد أخرج الرزم الورقيّة من الإصطبل وبدأ يفردها، صور ابن عمّي.. وكلمات.. شعارات وكلام كبير حول التجربة الديمقراطيّة، أمره المُرافِق بتعليق الصور في كلّ مكان من العنّابيّة والقرى المجاورة. ابن عبيد هزّ رأسه دلالة الفهم، وغادرنا إلى عفرين، المُرافِق يبدو مهموماً، وهو يقود السيّارة ويسألني عن العنّابيّة ودراستي وجدّتي، ويُبْدِي تأفّفه من هذه البلادة والتخلّف. كنت أردّ بكلمات مقتضبة وقلت له لا أدري. شردتُ بنظراتي، كنت أشعر كأنّني أرى المكان لأوّل مرّة. عفرين تظهر لنا من بعيد، نقترب منها، أرى انتظام شوارعها وأتشمّم رائحة أشجار الزيتون والرمّان، ثم ومن فوق الجسر

أرى النهر بمياهه المختلطة مع الطين وعبثه في الضفاف غير المحدّدة ومحاولته رسم خطٍّ لمسيره. النهر العابث بمحاولات تطويقه وسرقة مياهه، كان يخترق البساتين ويُضيفُ ألقًا على صفحة وجهه المليئة بالندوب، يهزأ بالعفرينيّين الذين يستهينون به، بالفلاّحين النازلين من القرى الذين يبصقون وهم يرون مجراه العريض، أعماقه الضحلة. علاقة خفيّة تربطني بضفافه، كنت أتنزّه قريبًا منه، وأداعب أشجار الرمّان وأشكو له كلّ هذا العبث. كنت أحلم أنّي أستدرج المعلّم الذي لم يترك مناسبة إلاّ وبصق في وجوهنا وأعلمنا أنّنا خونة لأنّنا لا نستطيع الصراخ والدبكة وشتم رؤساء الدول الأخرى. كنت أحلم أنّي ومعلّم الرياضة على ضفاف النهر، أقول له اخلع ثيابك، وهو يرتعد خوفًا من حلفي مع النهر، حين يخلع ثيابه، كنت أقول له انزل إلى النهر فيرجوني ألاّ أتركه لبرودة المياه ووسخ الطين، أقول له انزل فينزل وأتفاهم مع النهر بلغتنا السرّيّة.

النهر يقذف بجثّته بعد آلاف الأمتار، فلا يتعرّفُ إليه أحد ويُدفن في إحدى المقابر إلى جانب الكثير من ضحايا النهر. أعود إلى مدرستي، ولا أُخْبِرُ أحداً أنّ النهر قد ابتلعه وما زالت الضفاف تلتمع في الربيع، العاشقون يختلسون النظر بعضهم إلى بعضهم الآخر ثم يقتربون حين يتأكّدون أنّ المكان خال، يغيبون في أدغال الرمّان، والنهر شاهدٌ كتومٌ، يغطّي وجهه كي لا يخجلوا ويكتب تواريخ لا يعرف كُنْهَهَا أحدٌ. المُرافِق بصق على النهر، وقال إنّه ساقية، التفتّ إليه ولم أتكلَّم، ونظرت إلى النهر، كان المعلّم والمُرافِق يغرقان وأنا أتآمر مع النهر. الضفاف خلفنا مبهجة، الألوان الفاقعة، عيون الكرديّات، وشراويل

الأكراد، أياديهم المرفوعة للسلام وطيبة وجوههم. أمام السراي قال المرافق يجب أن نسلّم على مدير المنطقة، ما زلتُ مشدوهًا ومرتبكًا، أشار إليّ بالنزول فنزلت، صعدنا على الدرج المتآكل الحوافّ، مخترقين الزحام الشديد لمراجعي موظّفي النفوس والماليّة والقضاء، طلب المُرافق من الشرطي الجالس على باب مدير المنطقة أن يُخبر معلّمه أنّ أناسًا من العاصمة يريدون رؤيته وأعطاه بطاقة صغيرة، الشرطي نظر إلينا وكأنّه يقيس قاماتنا ومدى أهمّيّتنا، وأشار إليّ قائلاً هذا معك؟ فأجاب المُرافق متبرّمًا كأنّه بدأ يفقد صبره، نعم معي. دخل الشرطي وعاد بعد لحظات قليلة، فتح الباب وكان وجهه أكثر ليونة، قال تفضّلوا. دخلنا القاعة الفسيحة التي تتصدّرها طاولة مدير المنطقة وخلفه خريطة طبوغرافيّة لقرى عفرين، نهض من خلف طاولته ورحّب بنا وهَلّلَ لهذه الزيارة المفاجئة.

مدّ يده وصافح المُرافق الذي اعتذر عن مفاجأته، وقال كلمات مجاملة قبل أن يستريح على الكنبة المواجهة لطاولة مدير المنطقة الذي تناسى وجودي كأنّي تابع أو خادم للمُرافق الذي كانت تفوح منه رائحة عطره، وفي أصابعه تلمع ثلاثة خواتم ذهبيّة. أشار لي المُرافق بالجلوس وقال لمدير المنطقة إنّي ابن عمّ الأستاذ.. أي بمثابة أخيه الأصغر، فتمتم ونظر إليّ مرحبًا وطلب لنا قهوة، لاحظنا ارتباكه رغم ضخامة جسمه والرُتَب على كتفيه. قال المُرافق إنّ ابن عمّي يُهديه تحيّاته وقال كلامًا في مدحه. بدا لي مدير المنطقة خجولاً ومتواضعًا وهو يردّ على التحيّات، فخمّنت أنّ ابن عمّي فعلاً رجل قوي، حتى ذِكْرُ اسمه يَهُزّ مدير المنطقة الذي يُعتبر إلهًا يجثم فوق صدور العفرينيّين الذين

يلتقطون الرضا من زعفران خطواته، ويَدَيْ حُجّابه. تَكَلّم الاثنان حول الانتخابات والاستعدادات الجارية كي تمرّ الأمور بسلام، وتحدّث مدير المنطقة عن تلقّيه للتعليمات الناظمة لعمليّات الانتخاب. كان اللقاء ودوداً لم يقطعه سوى الحاجب الذي أتى بالقهوة ثم عاد مرّة أخرى حاملاً بيده ورقة وَقّعَ عليها مدير المنطقة بعد أن همس له الحاجب بكلمات لم أسمعها قبل أن نغادر. قال مدير المنطقة إنّه يرجو المُرافِق أن يُبَلّغَ ابن عمّي تحيّاته وأمنيته بأن يأتي لزيارته إن أمكن وإنّ له طلبًا. كان يقولها بخجل وتواضع، سأله المُرافِق عن طلبه، فقال لو أنّ ابن عمّي يتكلَّم مع السيّدة جوريّة لتكلّم له وزير الداخليّة كي ينقله إلى الأجهزة الأمنيّة أو يعيده إلى مدينته، لقد ملّ الغربة وقرف القرويّين وزعرنات الحراميّة، ملّ من عفرين والأكراد. المُرافق تَفَهّمَ الوضع وهزّ برأسه ووعد أن تصل الرسالة، وهو لن يرفض طلبًا كهذا لرجل مثله. ذاكرتي مثقوبة كأنّها تسيل الآن، أنا وسط كرنفال من الطين والوجوه المغبرّة، رجال يعبرهم الزمن فيتخشّبون، ونساء عاريات يخرجن من النهر يصطففن على الضفاف ويمارسن الحبّ مع الماء. تنزل الآلهة من السماء وتَرْتعُ على الضفاف. الآلهة وجوه متشكّلة من خمر، يفتّشون عن النساء اللواتي لا يراهنّ أحد سوى الماء، تعود تلك الوجوه التي تغبّرت واندثرت.

أيّة أحلام تلفّني الآن! عفرين زُيّنَتْ بلافتات من القماش الكتّاني الرخيص تُحَيّي المرشّحينَ. الجدران غصّت بصورهم ونظرتهم إلى كاميرا المصوّر الذي أعادهم شبابًا وقورين، رجالاً لهم هيبة وسطوة وقوّة لم تعرفها البلاد. كانت أسماء المرشّحين تشي بهم، لم أكن محتاجًا إلى

دقّة ملاحظة فقائمة العمّال والفلاّحين تضمّ اسم ابن عمّي وإلى جانبه أسماء سبعة رجال هم آغوات عفرين ورجالاتها الذين قالوا في بياناتهم الانتخابيّة إنّهم يُحِسّونَ بآلام الفلاّحين وسيعملون على تحسين ظروف معيشتهم.

عفرين لم تُغَيّرْ من رتابتها شيئًا، كلّ شيء كما عرفته، شرفات المنازل حيث كنّا ننتظر أن تُطِلّ منها صبيّة كي نتحدّث عنها طوال اليوم، ونساء يجلسن على الأبواب يتحدّثن بكرديّة مرنة عن أسعار البقدونس والثياب ومواسم الزيتون ويتابعن انتظار رجالهنّ. رجال يمضون إلى أعمالهم ويعودون كي يشتموا ويشربوا العرق، ثم يمازحون الزوجات ويشتمون الأولاد. عفرين مكان يَغصّ بالألفة والنظام الذي يُخَبّئُ خلف أقنعته الكثير من الجنون الذي لا يراه إلاّ من عشعش في تلك المنازل والأرواح والضفاف، مكان يُخْفي ذاته. عدنا إلى العنّابيّة فطالعتني الصور التي نَثَرَها ابن عبيد على الحيطان بشكل مُثير للضحك أو للعبث، قال إنّه انتهى من مهامّه وبدا معتزًّا وهو يشير إلى المُرافِق حيث علّق الصور أيضًا على أبواب الإصطبلات. والعنّابيّون لم يكترثوا كثيراً، تناسوا الموضوع بعد ساعات قليلة، عابثوا ابن عبيد وهو يحاول أن يجد مكانًا للصق الصور وتعليق اللافتة الكبيرة التي تقول إنّ العنّابيّة تحيّي مرشّحها وابنها البارّ أحمد هلال، وتدعمه بقوّة. فكّر ابن عبيد أنّ هذه اللافتة تصلح لصنع سراويل داخليّة وقال للمُرافِق بأنّه سيحتفظ بها بعد الانتخابات، المُرافق انزعج ولكنّه أدرك أنّ العنّابيّة لا تستطيع أكثر من هذا فسكت وتابع أيّامه بين مراقبة عائشة التي تَخَلّتْ عن حَذَرِهَا وبدأت تنفرد به في الحديث وتغامر بأن تمدّ يدها إلى ظهره،

تداعبه وتضحك بشبقٍ لا متناهٍ، أو تدخل إلى غرفته وترمي بنفسها في حضنه ولا تتوانى عن ممارسة الجنس معه ظُهْراً والباب مفتوح وهو ما زال لا يعرف كيف يُبَدِّدُ حيرته. أراه يتمعّن في تفاصيل جسدها المثير ثم يشرد بعيداً، كلّ يومٍ كانت عائشة تستقبل الصبح معه وتتركه منهكًا في فراشه ولم تعد تنتظر كي تطمئنّ إلى نوم الآخرين، بل كانت تُغافل الجميع وتمضي كأنّها تعبد الفضيحة. غدوت أنا منتظراً لهذه الفضيحة التي ستتفجّر بين لحظة وأخرى، حين أراها تدخل إلى الغرفة، تدهن جسمها وترتدي سراويلها الضيّقة النظيفة، المثيرة، تتأمّل نفسها في المرآة قبل أن تلبس عباءتها وتخرج إلى غرفة المُرافِق.

زليخة كانت حزينة، بدتْ لي كأنّها قد هرمت وجدّيّتها بدأت تناسبها، قالت لي إنّ عائشة تبالغ كثيراً في الاستهتار بمن حولها وإنّ الفضيحة لا بدّ واقعة وإنّها عرفت أنّ المُرافِق قد افتضّ بكارتها وإنّه وعدها بالزواج وَأَخْذِهَا إلى العاصمة لتعيش معه، وعائشة تعامله على أنّه زوجها، ورجتني أن أُنَبِّهَهَا أو أَتَدَخّلَ كوني رجل البيت كي أحميها وأضع حدًّا لهذا الاستهتار وهذه الدعارة كما أسمتها. ثم أخبرتني أنّ جدّتي غاضبة جدًّا وهي تنهض ليلاً وتبدأ بنهش الجدار الطيني ولا تعرف زليخة إن كانت جدّتي قد بدأت تفقد عقلها أو أنّها ستموت، إذ بدت شاحبة أكثر من أيّة أزمنة مضت، وعصبيّة لا تستطيع الكلام بهدوء، لا تستمع لأحد، قالت زليخة ذلك وأوصتني ألاّ أقول أيّ شيء عن نهوض جدّتي ليلاً لنهش الجدار.

في طريقي إلى كهف أحمد كان كلّ شيء ساكنًا، اقتربت من المقبرة، أحسستُ بنفسي حرًّا، بعيداً عن الأعين، السماء بألوانها

المتداخلة، حمراء وسوداء وزرقاء وبيضاء، ذلك المشهد الداكن الذي ترتاح إليه نفسي كان بارزاً وكأنّه سيهبط الآن بين يدي أحمد الجمل كي ينثره على قماش اللوحة الأبيض. قال لي إنّ وجه اللّه قد اقترب من التبدّل. ضحكت وقلت له إنّ هذا وهم من أوهامه ولم أدع له مجالاً كي يشرح، أم إنّه لا يرغب أصلاً أن يشرح لي. أحسسته متعبًا والألوان التي أحضرتها له لم تُمسّ، ما زالت في علبتها. أخبرني أنّه سيترك العنّابيّة قريبًا وأحسست أنه هذه المرّة جادٌّ وهو لم يعد يطيق شيئًا وإن بَقِيَ هنا سينتحر.

وحيدين نعبث بمفاتيح المكان، كأنّنا نصنع حبلاً من الأسرار كي نصعد إليه ونُشْرِفَ على لحظات العنّابيّة التي ازدادت سأمًا ومللاً. كلانا صامت، أحمد لم يرغب في متابعة الرسم وقال إنّه منذ ثلاثة أيّام توقّف عن مزج الألوان، كانت اللوحة الكبيرة ما زالت موضوعة على المرسم، رأيت ألوانها البرتقاليّة والزرقاء نفسها. قلت له أريد البقاء هنا ولا أرغب في الذهاب إلى المنزل، قال تستطيع النوم على الأريكة وإنّ عليّ البحث عن مفاتيح هادي فهي أهمّ شيء سيقودني إلى خزائن العنّابيّة المغلقة. حدّثته عن صندوق جدّتي وذكّرته بالمغارة التي كنّا نعبث بها، أشاح بيده أنّ الوهم هو سيّد الحقيقة.

في الليل أتى سلمان، سمعنا صوته وهو يصيح بمرح واصفًا أحمد بالملك. رحّبنا به ونهضتُ كي أُعدّ الشاي، قال سلمان إنّه يحمل تحيّات من أبي الهايم إلينا، وإنّه توقّعَ وجودنا معًا، لم يُفاجئني سلمان، كنت أنتظر أن يُكمِّل كلامه ويُخبرني عن خالي. أحمد التمعت عيناه وابتسم كأنّه اطمأنّ الآن على أبي الهايم، تابع سلمان

وقال إنّه رآه هذه المرّة في العاصمة وأموره جيِّدة ويعمل ولا ينقصه شيء سوى الاطمئنان على الأهل والعنّابيّة، وقال سلمان إنّ أبا الهايم التقى بنشمة في العاصمة التي انتقلت إليها مؤخّرًا وتنوي أن تُقيم فيها وتتزوّج من عَوّاد، وقد أصرّت نشمة على أبي الهايم أن يبقى إلى جانبها. استطاعت أن تُقْنِعَهُ بالعمل معها في فرقتها رغم اعتراض عَوّاد، ما زال أبو الهايم يحبّها وهي تحبّه أيضًا، قال سلمان كأنّه يُقَرِّرَ حقيقةً لا يعرفها أحد. توقّفت الكلمات في حلقي، أودّ أن أعرف كيف ينام العاشق، كيف يتزيّن؟ كيف تبرق عيناه حين تخطو نشمة بقامتها المتناسقة وجسدها اللدن، بروحها المنفلتة وهي تلفّه كي تتركه وراء زوابعها غباراً معطّرًا أو رجلاً ذائبًا وزائداً عن حاجة الواقع. صببت الشاي، وأحمد سأل سلمان عن أعماله في تركيا وطرق التهريب، قال سلمان إنّ العمل ما عاد كما كان، رجال الحدود زادوا من حصصهم، أصبحوا شركاء ولايقبلون بالقليل، وإنّه يخطّط لضربة كبيرة سيرتاح بعدها ويمتلك مالاً كثيراً، ثم اقترب من أحمد واتّخذ وضعيّة جدّيّة في حديثه وطلب منه أن يرعى شؤون والده الذي فقد عقله تمامًا وبدأ سيرة مجنون آخر من مجانين العنّابيّة، كأنّ تعاطف العنّابيّين معه أحال روحه الشرسة إلى قطعة قماش بيضاء أو ورقة شجر يابسة من السهل الرأفة بها. أحمد صمت تمامًا وهو يعرف كلّ ما يقال عن نوادر أبيه وآخرها بأنّه يعتقد بأنهّ محارب ينتظر المجاهدين لمرافقته إلى فلسطين. سلمان ألحّ على أحمد ثم صمت الاثنان، أُحَدّقُ نحو أمكنة لا مرئيّة، أقفُ على بوّابة السرداب الطويل المظلم، أُزيح الصخرة وأدخل في الظلام، تلفّني العتمة وأهتدي بأصابعي إلى جدران السرداب، أُقَلّبُ حجرًا

وأبحث عن مفاتيح صدئة، أتوغّل أكثر، لا ألحظ نوراً ولا أسمع سوى وجيبِ الصدى الذي وشّ في أذني. عاد الصَمَمُ إليّ وما عدتُ أسمعُ أصواتَ الصمتِ، أشعلتُ فانوسًا ورأيت المكان. سقفٌ مبقّعٌ برطوبةٍ أزليّة، وحوافّ السرداب ارتسمت عليها أشكالٌ غريبة لا أعرفها. جلست على حجر ولاحظتُ اتّسَاعَه وأيقنتُ بعد أن توغّلتُ كثيراً أنّ مركز محور السينات قريبٌ من هذه الفسحة التي ظهرت أمامي. شعرت بأنّي أوغلت أكثر ممّا يجب وأنّ الجدران والسقف ستنهار فوق رأسي وأندثر في هذا النفق المجهول، عدتُ وما زلتُ أصمَّ، أقذف بحجر علّني أسمع صوته، إلا أنّي في ملكوتي الساكن مُسْتَعْذِبٌ أغشيتي التي لا تهتزّ. عدت من الطريق الوحيد الذي أعرفه وأحسست أنّي سأختنق، لمحتُ فتحة السرداب فأسرعت، كان الفانوس قد انطفأ.

كان هادي العنّابي واقفًا يستطلع حوله، حارسي أو دليلي إلى تلك الألغاز والضياع، أشرتُ إليه أن يساعدني على إعادة الصخرة إلى مكانها. أمسك بالفانوس، وأشار إليّ أن أعمل وحيداً، جلست على الصخرة وما زال الصَمَم يتلبّسني، أشار إليّ بالتّمهل قليلاً كي يعود إليّ سمعي، تمهّلت وراقبت الغيوم المسرعة وأحسستُ أنّ الوقت مهزلة.. والتاريخ مهزلة.. والخرائط الضائعة مهزلة. قال لي هادي هيّا خمّن لي موقع القافلة إذا كانت هذه هي شجرة الزعرور، قلت له بأنّني أبحث عن مفاتيحه الصدئة. عاد إليّ سمعي تدريجيًّا وبدأت ألتقط الحروف من بين شفتيه، أؤلّف الجمل وأفكّ ألغازها. طلبت منه ألاّ يتركني هذه المرّة وحيداً فأسقط في الوحل أو ينهار السرداب على رأسي وأضيع مع القافلة والخرائط المفقودة. ضحك ورأيت شيئًا كالأسنان البلّوريّة تلمع

في فمه. قال لي إنّ البحث في السرداب هو الذي سيوصلني إلى الحقائق التي لا يعرفها أحد. ثم ربَّت على كتفي وسألني ألاّ أيأس. قلت له إذا كان هذا السرداب هو بداية محور السينات فإنّه ينتهي في بيتنا، وأشرت بيدي إلى خطّ مستقيم يوصل إلى بيتنا، وتحديداً إلى الإصطبل. أعجبته الفكرة وتحمَّس فأشار بيده ثم تراجع إلى شجرة الزعرور، لحقت به ورأيته يُشير إلى حقيقة أنّ بيتنا ليس هو نهاية المطاف وإنّما يجب أن يكون هناك وادٍ ووافقني بأنّ البيت يقع على نقاط هذا المحور، وقال لي ارسم إذن الخرائط مرّة أخرى ولا تترك المعلومات تتساقط من بين يديك وتضيع في الوحل، أو يغطّيها الغبار.

غادرني هادي وأنا مضطرب أقف وأصرخ أنّ كلّ شيء كان وهماً، القافلة وسبائك الذهب، عصا الخليفة والخليفة نفسه، كلّ شيء وهم.

القرباط، هذا ما نحتاجه دوماً، الحلّ الأخير لهذا السأم وللعنفوان المنثور بين الخدوش. من كهف أحمد الجمل أرجو اللّه ألاّ يثبت بملامحه الهائلة في خطوط اللوحة التي ما زالت تبحث عن ألوانها، سرت وحيداً ورأيت أمامي.

باب حوش قديم في حيّ بعيد، كان الباب مفتوحًا، دخلتُ. قال لي خالي لقد تأخَّرت وسألني إن كنت متعبًا من السفر، قبّلني وأجلسني قربه، وكنت أراقب أصابعه وهي تلفّ سيجارة التبغ الأشقر، تتمهّل قليلاً كأنّها المتعة الوحيدة. لم يسألني عن العنّابيّة وقال لي إنّه متوحِّد الآن مع طيف نشمة، يرافقها في الليل على الناي، وتتلاقى نظراتهما طوال الليل، تشدّ على يده قبل أن تودّعه وتأتيه بعد ظهر كلّ

يوم ثلاثاء، تدخل العتبة امرأة متخفِّية بألبسة سوداء، تغلق الباب وراءها وتخلع ثيابها وترتمي في حضنه، امرأة معطوبة، يابسة، حنونة، هائجة، مجنونة، تترك له حرّيّة العبث بأزرارها وقماش الموسلين، بنهديها ومسامّاتها ورقبتها. قالوا لها يجب أن تتزوَّج عوّاد وتعمل في أماكن اللهو. منذ أزمان لم ينجب القرباط امرأة بهذه الفتنة، أحاطوها بحراسة وحدَّدوا لها كلّ شيء، تزوَّجت عَوّاد وقالت لأبي الهايم: كن رفيق دربي، أحبّك ولن أموت إلاّ في حضنك. وهو كالنسيم يحيطها بذراعيه، كنت أراقب كلّ شيء، الغرفة الصغيرة تخرج عن طورها، تتلاطم الأشياء وتتناثر الفتنة، تأتي مرّة في الأسبوع بعد الظهر، تنتظر هذه الصلاة وتمارس طقوسها بخفاء قيمته مدفوعة للخدم والحرّاس وعَوّاد الذي أصبح كالمطّاط وهو يتأرجح كبندول حين تتأخّر في السهر وتعود مع مُرافِقيها، تترك له كلّ شيء وتنام عارية ووحيدة.

نشمة أسرار الأرض تنفرط بين يدي رجل يرتّب غرفته ويتآمر مع الهواء كي لا يغلط ويثرثر على هواه. قبّلت خالي واستأنست بتلك النظرة الحنونة، الوديعة، قال لي إنّه لا يستطيع الغياب عنها وهو الآن مندمل الجروح وسينجب منها ولداً يسمِّيه عنّاب، وسيكبر مع القرباط ويغدو ملكًا، قالت له عرّافة هذه الكلمات وهو يعبث بسجائره فوق الأرصفة في المدينة الكبيرة التي لا يحبّ أضواءها ولا يريد سماع سيرة ابن عمّي وأولاد عمّي والعنّابيّين، هذه صومعة العاشق وهذه سدرته.

لم تكن الصورة واضحة. كلّ شيء ضبابٌ وطرقٌ موحلةٌ. العنّابيّة كأنّها تغيّرت. لم تعد تكترث أن تفتح جدّتي كوّة في الجدار، هل تريد الصعود إلى مجمّع عنّاب عبر حبال الليف أم أنّ الأمر مجرّد

رسالة ونزوة؟ في النهاية لن يصدّقها الجميع. سيذهلون ويلطمون خدودهم، يَشْتُمون كلّ شيء، صور ابن عمّي، ابن عبيد، البرلمان ومدير المنطقة والنفوذ المنتظر للعنّابيّة، وسيندمون، يبكون ويندمون. كانت الصور منثورة في كلّ مكان بشكل مضحك، ومثير للدهشة أن تعلّق على أبواب الإصطبلات وأقنان الدجاج والأشجار وشواهد القبور. ابن عبيد كان ينثر هذه الأشياء التالفة من رطوبة الإصطبل حيث احتفظ بها على تبنه وكأنّ الموضوع هو نوع آخر من البذار وبانتظار إنتاش هذه الصور يجب عليه أن يبتسم حين يرى المُرافِق وبيده الكاميرا.. يدعو العنّابيّين كي يبتسموا وينظروا إلى العدسة، كلّ شيء يجعلني أكره الدوائر.. ذلك البعد المتساوي عن المركز.

جدران الكهف كأنّي أراها لأوّل مرّة، تأمّلت تلك الخدوش بعد أن تركني أحمد وحيداً وخرج. قال أستطيع أن أفعل ما أشاء وألاّ أنتظره وقال إنّ الملل قد وصل إلى نخاعه، كلّ شيء له الطعم ذاته. البغل الأبيض المرابط قرب باب الحوش الواسع والعناكب المتدلّية، وجه عائشة البشوش الرضي. جسدها الذي بدا كأنّه نضج فجأة فأصبح يانعًا، لذيذاً حين تستدير بهدوء ومكابرة، المُرافِق ألِف المكان وأصبح أحد سكّانه المولعين بالتفاصيل الكثيرة. سير الراحلين. أخبار المطر. قروح البغل. وأسعار التبن. رحيل أبي الهايم. القرباط. ذكريات أثواب الموسلين وصافرات الجِنّ العابثة بخيامهم. برادع حميرهم، الانتخابات المقبلة التي ستتوّج العنّابيّة مكانًا يمتلك سلطة القرار وقنوات الاتّصال مع أعلى مستويات السلطة عبر مرشّح البرلمان الذي أتى إلى العنّابيّة قبل الانتخابات بيومين، وبدا منهمكًا ومشغولاً وإن كان لا يكترث كثيراً للنتائج التي ينتظرها الجميع.

في المساء كان كلّ شيء جاهزاً، قبل يوم الانتخابات، أتى المُرافِق بالتلفزيون والبطّاريّتين، وسط دهشة العنّابيّين وتلذّذهم بانتظار الشاشة التي بدأت تنطق وتبثّ أخبار الحملات الانتخابيّة في أرجاء البلاد. رجال يدبكون ونساء ينثرن الأرزّ، صبايا مجنّدات بألبسة عسكريّة مستعدّات لحروب وهميّة، لون الكاكي يمنحهنّ ثقة مفرطة وطلاّب يصفِّقون ويزعقون. الضجيج لم يشدّ العنّابيّين لوقت طويل، بدأوا ينتظرون المذيعة الجميلة التي تظهر لتتحدَّث عن التجربة الديموقراطيّة الرائدة التي تمرّ بها البلاد، ثم تختفي بعد أن تبتسم لتقدِّم أغنية أو مشاهد لرجال ونساء لا يعرف أحد من جمعهم ولماذا. ابن عمّي كان مشغولاً باستقبال وفود القرى الأخرى الذين سُرّوا لِرُؤْيَةِ التلفزيون المنصوب أمامهم في الخيمة الكبيرة، أبدى حيويّة كبيرة، كان يتحرَّك في كلّ الأرجاء ويشرف على الضيافة والشرح المطوّل. العنّابيّة لا تعرف كيف تتصرَّف في هذه المناسبات، سأله العنّابيّون كيف تجري الانتخابات؟ أسهب في الشرح والكلام عن أشياء لم يفقه الناس شيئًا عنها فتابعوا التدخين وانتظار ظهور المذيعة على شاشة التلفزيون الذي كان صوته يهدر. صباح اليوم التالي استيقظنا مبكِّرين على ضجيج الانتخابات، أتت سيّارة جيب وأنزلت ثلاثة شبّان مع صندوق وأوراق كثيرة، الشباب وقّعوا على أوراق رسميَّة وجلسوا خلف طاولة مستطيلة طويلة وُضعت في صدر الغرفة الوحيدة في المدرسة إيذانًا ببدء الانتخابات. توجَّه بعض العنّابيّين إلى الصندوق وسألوا كيف سننتخب؟ كان المُرافِق يشير إلى اسم ابن عمّي ويقول الثالث من اليسار اشطبوا كلّ الأسماء الأخرى، العنّابيّون يقولون للشابّ وراء الصندوق

أعطنا ورقة مشطوبة، يبصمون ويغادرون، يعودون إلى ساحة القرية حيث الخيمة ما زالت منصوبة.

في صباح اليوم التالي كان الموظّفون الثلاثة قد ملّوا من غباء العنّابيّين وثرثراتهم أمام التلفزيون مساءً وأسئلتهم الساذجة وتعليقاتهم اللاذعة، فبدأ الموظّفون بملء البطاقات من الجداول التي استحضرها ابن عمّي من مديريّة السجلّ المدني وبدأ الانتخاب. الأحياء والأموات. البشر والحيوانات. النساء والأطفال. المعارضون والموافقون. الغائبون والحاضرون. امتلأ الصندوق فختموه بالشمع الأحمر وسَلّمُوه للجهة التي أتت لاستلامه وكافأهم ابن عمّي فامتنعوا عن البصاق على هؤلاء البشر واستغربوا أن يكون الأستاذ واحداً منهم. مساء سمع العنّابيّون أنّهم بعثوا برقيّة يشكرون فيها الحكومة، وفي اليوم الثالث أذاع المذيع أسماء الناجحين وكان ابن عمّي من ضمن قائمة الفلاّحين والعمّال مع أربعة آغوات ومهرّب كبير. العنّابيّون ضحكوا حين سمعوا أنّ أكثر من عشرة آلاف صوت عنّابي قد منحوا الثقة لابن عمّي، هنؤّوه ولم يَعُدْ يمتلك الوقت كي يردّ على التهاني فرحل مسرعًا هو ومُرافِقه حتى دون أن يودّع أحداً سوى من التقاه في طريقه، كهارب أو كمن انتهت فترة سجنه فرأى السماء لأوّل مرّة، البراري أمامه، التلفزيون وضعه المُرافِق في صندوق السيّارة وقال إنّ البطّاريّات قد فرغت، وغمز لعائشة التي رافقتهما إلى ساحة القرية حيث اصطفّت سيّارتان تركتا وراءهما الغبار حين انطلقتا بسرعة.

الدفتر الرابع

رائحة الصباح

عائشة تحدِّق في السماء من النافذة، تدخّن بنهم وتنتظر شيئًا ما، قالت لي بأنّ المُرافِق حتى لو تأخّر فإنّه سيعود ليخطبها ويرحلا إلى المدينة كي يتزوّجا هناك، وإنّها تفتقده كثيراً. عائشة امرأة وحيدة، لا تشرك الآخرين بأسرارها، ترتّب ثيابها، تدور وحيدة في أرجاء الغرفة، تحضّر نفسها لسفر طويل، تقصّ أظافرها وتدلّك جسمها بالكريم كي يصبح طريًّا، لامعًا، تخلّت عن عاداتها وبدأت تشعر أنّ كلّ شيء سيغدو رائعًا حين تدير ظهرها لهذه البقايا، تاركة وراءها الثرثرات وطيف العنّابيّة، حموضة آباط الرجال فيها وضجر النساء اللواتي بدأن يثرثرن كثيراً عن المرايا ودفء الرجال ولذّة الاضطجاع قرب جمر الحطب.

بدا لي البغل كمن يستنجد كي أعيد له حرارة الأنفاس، ودفء الإصطبل. كانت عيناه تلتقيان بعينيّ ثم يخفضهما كأنّه يعرف بمفرده أنّي لا أجابه أمّي ولست رجل البيت، إنّما كائن وُجد صدفة وفي يده ألواحٌ ممحوّة عليه أن يلتقط الحروف ويركّبها جملاً ويصل إلى إعادة الحقائق الزائلة إلى الوجود. فعلُ عبثٍ يمارسه مقامرٌ على طاولةٍ خاليةٍ من المقامرين. يقامر لوحده، يلعب مع الهواء، ثم يُنزل الستارة يجلسها على كرسي مقابله، يفرش أمامها أوراق اللعب، ويدعوها أن تبدأ لعبة

الكونكان. يصرخ ويشتم حين يفوز. ينتبه إلى أنّ الستارة تودّ العودة إلى النافذة المكشوفة فَيُخَسّر نَفْسَهُ كي يربح في المرّة القادمة، أرضٌ لا تنتهي، وأحمد الجمل يشير لي بالدخول فالبرد قد بدأ يغدر. أحسّ بالدفء وأرى ارتياحًا جليًّا على وجهه، اللوحة ما زالت كما هي، عالم من البرتقالي المتداخل مع الأزرق ببوهيميّة وفوضى وغموض. لن تصل إلى اللّه قلت له، ووافقته على دعوته إلى شاي ساخن، نهض كي يعدّه، أكّد لي وهو يشعل البابور أنّه سيصل إلى وجه اللّه ويتيه في تفاصيله وملامحه وسينشغل به وحده. أحسست بالمرح وأنا أراه وقد بدت عليه علامات الرضا، وتشعّ من عينيه نظرات العارف، كان الكهف مرتّبًا وكأنّ يدًا أنثويّة امتدّت إلى غباره وفوضاه وإلى أشيائه المبعثرة فاعادت مرّة أخرى ترتيبها، وتركت وراءها ألفة لم أعهدها، حميمةً، حنونةً، صاخبةً على جدران الكهف، وغطاء الطاولة. البخار المتصاعد من كؤوس الشاي يلفّ وجه أحمد، يغيّبه في ضباب شفّاف. أحسست بالقوّة وكأنّ الكآبة قد تساقطت عن روحي كأوراق صفراء في خريف مسرع. أدرك أحمد معنى نظراتي، أتاني صوته ثابتًا يفصح عن أشياء لم أَتَوَقّعْ حُدُوثَهَا وإن كنت أخاف منها، قال لي إنّه سيورثني الكهف - المنزل كما كان يحبّ أن يُسمّيه، وأوصاني بالحفاظ عليه، وقال إنّه سيرحل عن العنّابيّة خلال الأيّام الثلاثة المُقْبِلة. لم يبق زمن طويل يبعثره بين أزقّتها وشبابيكها المغبرّة ثم صمت، لاحظت كأنّه راحلٌ الآن حقًّا، اللوحات مرتّبة بعناية حسب أحجامها ضمن صندوق كرتوني مشبّك بخيوط من القنّب، وأشياء أخرى في الزاوية لم أتبيّنها، شعرت أنّها اللحظات الأخيرة التي سيجمعنا فيها مكان واحد وأنّي سأغدو

وحيداً وسيغيب وجهه الأليف عنّي، ولن أستطيعَ الاستلقاءَ على الأريكة وبصري مشدود إلى أصابعه وهي تُلَوّنُ. كانت تنقصني الجرأة كي أترك كلّ شيء ورائي وأرحل. قال أحمد إنّ صالح أخاه أتى البارحة وقضى الليل عنده، تسلّل سرًّا إلى العنّابيّة وبكى حين رآها من بعيد وشاهد آخر البيوت تغرق في الظلام، قال إنّ أوضاعه جيّدة وتزوّج من فتاة بدويّة، ويعيش مع عشيرتها مُرَتّبًا حياته، متناسيًا بؤس الماضي. وتابع بأنّه فرح به جدًّا وكان ينتظره منذ أكثر من شهر وأنّه ترك لأحمد نقوداً وكاد أن يذهب ليقتل والده ويهرب كي تكتمل المأساة فيصبح قاتلاً حقيقيًّا. امتدّ الصمتُ بيننا، خَيّمَ على الكهفِ غبارٌ أعمى البصائر. حاولت أن أستعيد مرحي وأن أصدّق رحيله هكذا دفعة واحدة، قال إنّي سأرثُ كلّ شيء وحدي، وإنّه سيبعث لي بالرسائل من أيّ مكان يصله، وغمز ملمّحاً إلى فطّوم التي سأرثها أيضاً، وأنّه أوصاها فيّ، كأنّنا نتبادل الأدوار. هو الذي يبحث عن يقينه، يرسم وجه اللّه ويفتّش بين الألوان عن ملامحه، ولا أدري إلى أين ستقوده قدماه. قال لي إنّه سيذهب إلى العاصمة موقّتًا، بعد ذلك لا يدري، وإنّه يتوقّع أن يعيش أخيراً في إحدى الصوامع، ويعيد بناء كهفه، وليس متفائلاً بأنّه سيستطيع نسيان روائح غبار العنّابيّة. سيحنّ إلى لحظة صعوده إلى منارة عنّاب كي يجلس حول الطاولة الواطئة يدخّن ويهزأ بكلّ ما مضى. قال بأنّه سيترك لي ثلاث لوحات على الجدار كذكرى لمروره من هذا المكان العظيم. أشار بيده بحركة مسرحيّة ولاحظت خفيةً كأنّهُ راحلٌ الآن، أو أنّ تلك البوّابات التي حلم أنّها ستفتح له، وتحضنه، قد فُتحت وتكسّرت أقفالها.

كان كلّ شيء عصيًّا، درب الغياب مرّة أخرى، لن يجلس أحمد على المقعد الخلفي من سيّارة العنّابيّة الوحيدة، القديمة المتّسخة بلونها الأخضر الذي كسته ألوان أخرى وصوت حمّود سائقها وهو يمدّ رأسه من النافذة، ويصرخ أن يبتعد الآخرون عن الطريق لأنّ الزمّور معطّل، لن يجلس أحمد كأيّ عنّابي أو كأيّ صندوق مهمل تحت الكراسي.

أمّي تندب حظّها السيّئ في رجولتي الناقصة وتُسَلّمَ أمرها إلى اللّه. كان أبي يأمرني بتكسير أعواد الحطب بيديّ كالرجال، والبدء بتَسَلّمِ مَهَامّه في حال غيابه، غضّ البصر عن تدخيني وقال لأمّي فرحًا إنّي بدأت أدخّن وأخرج من طفولتي إلى رحابة الرجال، وأَقْسَمَ إنّه يُزَوِّجني إن تركتُ هذه الخزعبلات كما كان يسمّي هواجسي. الرجولة المبكّرة لم أفهم معناها إلاّ بعد موته ونَدْبِ أمّي لحظّها العاثر في بقاء بيتها بلا رجال يحمونه ويذودون عنه في الملمّاتِ، ويمنعون تَطَفّلَ وتطاول الغرباءِ على أَعْراضِه. تقول أمّي في رقبتك حريم ولا أفهم لماذا في رقبتي، وماذا عليّ أن أفعل؟ عصر اليوم التالي أتت فاطمة وحيدةً، محمَّلة ببقجٍ ملوّنةٍ وأكياسٍ كثيرةٍ، قالت إنّ زوجها مشغولٌ وإنّها اشتاقت لنا. قَبّلَتْ أُمّي وبكت، ثم احتضنت عائشة وغرقتا في ضحكٍ ودموعٍ. زليخة لم تنضمّ إلى المجلس، ذهبت فاطمة إلى غرفة جدّتي، فتحت الباب، فرأتها راقدة على فراشها، تيقّظت زليخة القابعة قرب رأسها مطرقة، التمعتْ عيناها ونهضت لتحتضن فاطمة، قبّلتها وبكت بكاء مرًّا أدهشني وسمعتها تقول إنّ جدّتي ستموت وهي تذكر الجميع دون أن تأذن لنا باستدعاء جميع أفراد العائلة، ترفض أن ترى أحداً من العنّابيّين. فاطمة قبّلت رأس جدّتي ويديها وأسَرّتْ لها بكلماتٍ قليلةٍ

عن أحـوالهـا في بيـروت وسـلامـات عليّ لهـا. جـدّتي وسط الخـرائب تضطجع في فراشـها تنظر إلى فاطمـة التي لـم تفـهـم شيئًا، أصابتـهـا نوبة ذهول وهي ترى زليـخة تتجوَّل في أرض الغرفة الواسعة كعجوزٍ كساها السواد، بان جلدها مُتَغَضّنًا. الجدّة لم تتكلَّم سوى كلمات معدودات وبانت لي عيناها مبتسمتين، استمعتْ إلى فاطمة المرتبكة، هزّت رأسها كـأنّهـا مـوافـقـة على شيء مـا، فـاطمـة غـمـزت زليـخـة كي تـلحق بهـا واستـأذنت جـدّتي بالخروج. بهـجـةُ الماضي ذهبت. طعمُ الغبارِ في كلّ مكان، والغُـبَـارُ يغطّي كـلّ شيء، قلت لهـا: كـيف بحر بيـروت؟ نظرتْ إليّ متفـحّصةً، باردةً وحنونة، كأنّهـا تكتشف فعلاً مأساة أمّي أنّي لست برجل ولن أكون سيِّد المنزل، كأنّهـا أشـفـقت عليّ وتراءى لهـا المستـقبل الغامض. فاطمـة في كلّ زيارة كـانت تفـاجئنا بأنوثة متـصاعـدة، وأناقة مدنيّة لم نعهدها. أصبحتُ أحبّ أقراطهـا الملوَّنة التي تتزيّنُ بهـا وأبتهجُ بخشخشةِ القلاداتَ الغريبةَ التي تـتدلّى من رقبـتـهـا النظيـفـة، بأثوابهـا الجميـلة التي تتبختـر بها وسط تعليقات عـائشة اللاذعة والفرحـة وتعفّفِ زليخة عن هذه البهرجة كما كانت تسمّيها.

أقـول لهـادي إنّ هـذا النفق سـيـودي بـي إلى مـصـيـر كلّ الأشـيـاء، وسيكشف كلّ الغموض الذي ينتاب أحاديثنا، يشيرُ إلى الصخرة ويقول لي زحزحـها من مكانها وابدأ بالدخـول إلى نهاية الكهف. اكتـشفْ عمقَ الأشـيـاء ولا تقف على العتـبـات. ابدأ بالعـدّ وتجـاوز الصـفـر، السـمـاء رجراجة، أسمع صوت ارتطام مطر مقبل، هادي مقرفص في الزاوية يراقب الغـرباء وأنا أزحـزح الصـخـرة الـتي اسـتـجـابت لـي وبان لي باب الـنفق. تذكّرت أنّ الدخول إلى البـداية سيـوصلني إلى الجوهر ولن تصـدأ عظامي بعدها.

كان النفق محفوراً ومرصوفًا بحجارة رائحتها زَكَمَتْ أنفي، أحاول أن أَنْتَقي البوّابات لأدخلَ وأتيهَ في الظلام. كان هذا النفق هو مَسيلَ الماء الذي أبحثُ عنه. شبيهٌ بالقنوات الرومانيّة التي كان يُحَدِّثُنَا عنها أستاذ التاريخ مفتخراً بسلالات الأجداد الأوائل وبالإنجازات العظيمة التي أهدوها للعالم. ليس حلمًا هذا، قلت لهادي، وأنا أحاول إقناعه بأنّ جلوسه هكذا في الزاوية خطأ والغرباء لن يمرّوا من هذه البقعة المهجورة، وأنّ ماريّا القبطيّة ما زالت تُلَوّحُ بالمناديلِ على شاطئ الإسكندريّة. غسلني الليل بعبقه وأنا أهذي بين يدي هادي الذي تراءت له الأشياء في هذه اللّحظة بألوانها الرائعة، وبدا لي وكأنّه سينهض الآن عن كرسيّه، يمسكُ بيدي ونبدأ بالتجوال على ظهر مركبٍ من حديد يطفو فوق الماء ويسير محمَّلاً بالقطن والسمسم والخشب. أقتربُ منه أكثر وأتبيّنُ لونَ وجهه المزرقّ كأنّه خارج للتوّ من الحلم، أتركُ هادي، أُغْلِقُ النفقَ، وأُلَوّحُ له بيدي، يقول لي لا تصطدم بالأشياء فالممرّاتُ قليلةٌ، انتظرني سأعود.

أحسّ بالزوغان وبالصَمَم يلاحقني، لا أسمعُ زخّ المطر الذي بلّلني وهيّج أشواق التراب فيّ. أمّي رفعتْ بصرها إلى صورةِ أبي المُعَلّقَةَ في صدرِ الغُرْفَةِ وعادتْ لاضطجاعها جانب مدفأةَ الحطب. تطيشُ مفرداتُ أمّي المستهترةُ برجولتي، والمتشوّقة إلى أيّام أبي البعيدة كما هي في الصورة المعلّقة على الجدار، رجلٌ بكاملِ عنفوانه، غليظُ اليدين، قويّ البنية، ومن عينيه تُطِلّ نظرة الحدأة، مستنداً على عصاه بشكل استعراضي، شاربان كثيفان، ضحكةٌ فاترة وواثقة، شروالٌ أسودُ لامعٌ مُطَرّزٌ على جيبه، وصدريّة ملوّنة مطرّزة.

تَتَشَوّقُ أُمّي إلى تلك الصورة، أَتْرُكُهَا وأَصْعَدُ إلى غرفتنا، أقرعُ البابَ وأدخل، مهرجانُ ألوانٍ وروائحُ عطورٍ نسائيّةٍ لذيذة، عائشة وفاطمة في الفراشِ غارقتان في حديثٍ عميقٍ، أشارت فاطمة كي أغلقَ البابَ وأدخل، سكتت عائشة. انسللت إلى فراشي، قلتُ لفاطمة إنّني أريد الذهاب معها إلى بيروت، كأنّها لم تسمعني وعادت للحديث مع عائشة التي بدت تأتيني كلماتها غامضة، خفيفة كطنين يشلّ أذنيّ. أغيبُ في الصور التي أحبّ، أنثى تلعبُ بالماءِ يحتضنها الماءُ وتَتَبَلّلُ، تضطجعُ على عشبٍ تحت سماءٍ زرقاءَ وتترك أعضاءها للهواءِ. فاطمةُ تلعبُ بخصلةِ شَعْرِ عائشة وتتمعّن فيها وتصغي بانتباه لما تقوله. أحسستُ بخطورةِ الموضوعِ خاصّةً أنّ فاطمة بدت منزعجةً وحائرةً قليلاً، وعائشة تروي باستسلام ليس من عادتها أشياء لا أستطيعُ سماعَهَا، تضربُ اللّحَاف برِجْلِهَا وتعودُ مَرّةً أُخْرى لاستسلامها الهادئ، فاطمة تصغي وعائشة تروي. في الصباح لم أعد أَتَذَكّرُ شيئًا، أسمعتُ نشيجًا؟ أم أصواتًا هامسة؟ أم أنّني شممتُ رائحة الخيبةِ أم رائحة الجنس المتصاعدة من فراش امرأتين مستلقيتين باسترخاء نادرًا ما أرى عائشة فيه؟ فاطمة بدت كامرأة حقيقيّة وهي تجول في أرض الحوش، استأذنت بالذهاب لزيارة أهل عليّ ومن ثم لزيارة قبر أبي كما قالت لأمّي التي أصرّت أن ترافقها في مشوارها. نهضت عائشة متأخّرة، لم تغمز لي كعادتها ولم تقترحْ عليّ شربَ القهوةِ على قرصِ الدرج. صنعتْ قهوتها وعادت إلى فراشها، زليخة قالت بأنّ الأيّام المقبلة لا تسرّ أحداً وبدتْ حزينةً، وقالت إنّ جدّتي ستموت لا محالة، جلدها يتساقط وعيناها تَبْيَضّان.

لا أعرف كيف تحوّلت أيّامنا إلى هذا العبث المجنون، ومتى دخلت هذه الدائرة التي تودي إلى دوّامة من البحث اللامجدي عن أنفاس بشر عاشوا بكلّ ما أوتوا من حياة، رقصوا خلالها وتشاجروا ثم تصالحوا، تزوَّجوا وأوغلوا في ملذّات الجسد وروعة العائلة الدافئة، متناسين كلّ شيء، ثم غفوا على سطح الأرض وماتوا دون أن تتراءى لهم أنّ ما يفعلونه من لحظاتٍ وما يراكمونه من معانٍ باهتةٍ سيخلق أيّ إشكال. كثيرون منهم لم يطمحوا لأكثر ممّا يعرفون عن مواسم الجلبان والباميا وروعة امتطاء البغال، دون أيّ شعور بالخيبة. عاشوا كما يقتضي للحياة أن تُعاش مليئةً، صاخبةً، ممتعةً، وأنا تحوَّلتُ للبحثِ عن هذه الأنفاس التي تبخّرتْ في الهواءِ. قادتني قدماي إلى كهف أحمد الجمل، دخلتُ إلى الكهف وكان كلّ شيء مرتّبًا كعادته، لم أرَ أحمد، رأيتُ ورقةً على الطاولةِ الواطئة مخربشًا عليها ما يُسمّى بالتوقيع وبضعُ كلمات قرأتها: عزيزي، رحلت ولن أعود، سأرسل لك بطاقات ملوّنة من المدن الملوّنة. ارحل قبل أن يُصيبك التفكّك أو البلادة، قبلاتي لك.. أحمد الجمل...

هل انتهى كلّ شيء؟ هل أترك كلّ شيء وألْحق بِهِ وبأبي الهايم؟ هل أَتْرُكَ هادي العنّابي والتدوين كي أتشرّد على دروب الضوء في المدن الغريبة حيث كلّ شيء يعيدك للسؤال ويُحَرّضُكَ؟ تمنّيتُ لو أنّي رحلتُ مع أحمد، ساعدتُه بتوضيب اللوحات التي حَمَلَها معه وتَرَكَ لي ثلاثًا منها معلّقة على الجدار غير المستوي، كما ترك لي الكتاب الفرنسي مغلقًا. أصابني الدوار للحظة، أَعَدْتُ قراءةَ الكلمات، بحثتُ عن آثارِ خُطُواتِهِ الأخيرة وبعدها استسلمتُ لدفءٍ يشعّ من مكان ما.

كانت الشمس تتسلّل إلى بوّابة الكهف وتقف على العتبة تقريبًا. كلّ شيءٍ مبعثرٌ، في الزاوية ألوانٌ وفراشٍ، سكاكين ومساميرُ وأوراقٌ لَمْلَمْتُهَا. أَعَدتُ ترتيبها وما زالتْ حرارة الكلمات التي خطّها أحمد في لحظاتٍ متفرّقةٍ من ليالي العنّابيّة تحتفظُ بنكهةٍ خاصّةٍ لديّ. رافقتني هذه الأوراقُ طويلاً حتى بعد أن تركتُ العنّابيّةَ وجلتُ في المدنِ والعواصمِ، وكانت تضمّ أيضًا الكثير من البورتريهات لعنّابيّين ولأشخاصٍ غير عنّابيّين أجملهم بورتريه نشمة التي كانت، بنظرتها الجريئة وصدرها البارز، رمزًا لكلّ الأحلام الحبيسة. استعذبتُ الإقامةَ في الكهف وبدأتُ أبتعدُ عن سيرةِ العائلةِ التي ما زالت تبحث أمّي عن رجل لها، عائشة مهمومة وطوال زيارة فاطمة لم تفترقا، تتحدّثان دومًا. أمّي أيضًا بدت قلقة، عصبيّة، وأحيانًا مستثارة دون أيّ سبب، عائشة تكتب رسالة للمُرافِق وفاطمة التي ستعود إلى بيروت تعهّدتْ بإيصالها بأيّةِ طريقةٍ كانتْ. كانت فاطمة قبل أن ترحل حزينة ومستعجلة للرحيل، عادت عائشة إلى وحدتها تاركةً أمّي للدوران في أرضِ الحوشِ، باحثةً عن روائحَ قديمة ومنقّبةً في ثنايا الشقوق عن طعمٍ للزمن. طلبت منّي أمّي ألاّ أغادر المنزل وألاّ أنام خارجه، عائشة لم تعد تكترث لحضوري، أصبحت منزويةً وغير آبهة بأحد، في عينيها شراسةٌ لم ألمحها من قبل، وجسدها لم تعد تعتني به كما كانت، كما لم تَعُدْ لاستقبال فتيات العنّابيّة في غرفتها أو زيارة جدّتي. بحثتُ عن هادي، لم أجده، وفي الكهف انتظرتُ الكثير من الأشياء، أحسستُ بالفُقْدانِ والوحدة والملل وبدأ الزمن يفقد بهجته، والبحث ما عاد يعنيني كثيرًا. أمّي أَجّرَتْ الأرض وبدأت تركن إلى الصمت كثيرًا، وقلّة الحركة. في الليل،

الصـمتُ يخـيّمُ على أرجـاءِ الغـرف، الأنفـاسُ هادئـةٌ، الأضـواء خـافتـة، أصـبحتْ أمّي تغلق باب الحـوش، منذ أزمنة بعـيـدة لم أرَ باب حـوشنا مغلقًا، أو لم أره مغلقًا أبدًا. أمّي وخالتي تتكوّران قرب مدفأة الحطب وغالبًا صامتتين، ثم ناعستين، ونائمتين. العنّابيّون لم يأبهوا بالتغيُّرات الجديدة خاصّةً أن جدّتي لم تعد تستقبل أحدًا. الشتاء بدا باردًا، وقالوا إنّ الأولياء يأتون كلّ يوم إلى غرفة جدّتي، تهذي معهم وتعربُ لهم عن سُخْطِهَا لما حَلّ بعائلتها ولِمَا حَلّ بالعنّابيّة، وكثيرًا ما توبّخهم أو تزعل منهم جميعًا، وقالوا بأنّ زليخة ترى هؤلاء الأولياء وهم يتأبّطون أحذيتهم تحت آباطهم بملابسهم البيضاء الفارهة ورائحتهم العطرة يملؤون الفضاءَ ثم يَحُطّونَ على حوافّ النافذة وحول فراشِ جَدّتي. تتعالى أصوات المزاهر والأصوات العذبة منشدةً، وأصواتٌ أخرى مرتّلةً سورًا من القرآن. زليخة لم تتكلّم شيئًا بل أصبحتْ أكثر صمتًا وجدّيّةً، قالت بأنّ جدّتي أورثتها كلّ الأسرار وبأنّها خليفتها على هذه الأرض كما أَوْصَتْها بالزواجِ ثم بالتفرّغِ لأمورِ عبادتها وشؤون العائلة كي ترثَ كلّ شيء. وأضافت بأنّ جدّتي تعرف كلّ شيء وجسدها يتفتّتُ ولا بدّ أنّ الموتَ واقفٌ في ركنٍ قريبٍ من باب غرفتها.

كَثُرَتْ نوبات الصَمَم حين أسيرُ وحيدًا في الدروبِ أو حين أزيح الصخرةَ الكبيرة كي أدخل باب النفق الذي لم يعد يغريني كثيرًا، ولم تعد أحاديث هادي تجذبني. أحسستُ بالشوقِ الشديدِ إلى أبي الهايم وأحمد ونشمة. كرهت هذه الوحدة. قال لي هادي بأنّني لن أصل إلى نهاية الحكاية، وأنّ التدوينَ مستحيل، لم أكترث كثيرًا، ولم أحسّ بأنّي فقدتُ شيئًا عزيزًا. أصبحتُ أحيانًا كثيرة لا أخرج من الكهف، أتسلّى

بأوراق أخطّ عليها كلمات لا معنى لها، وأستمع إلى عليّ الجمل الذي بدأ يزورني أحيانًا ويشرح لي بأنّه قد عاش ألف عام قبل هذه الأيّام وبأنّه ما زال طفلاً ينتظر أمّه التي تركته هنا كي تجلب له السكاكر، ثم يضحك بهدوء ويصمت ثم يبكي وينهض فجأة، يرتّب ألبسته المهترئة والقذرة ويستدير بطريقة عسكريّة ويتابع طريقه نحو البراري. أجلس في الغرفة مع عائشة وأراقب صمتها ونظرات التحدّي في عينيها، وحين أَمُرّ بالعنّابيّين لا أكترثُ لتبادلِ الحديث. فيما بعد وصلتني رسالتان من أحمد مع البريد الذي لا يصل إلاّ مصادفةً. في رسالته الأولى قال أحمد إنّه ما زال مشرَّدًا، وإنّه نام في الحدائق وبعد ذلك عمل في مطعم صغير مقابل أكله ونومه ونقود قليلة لا تكفيه كي يدخّن. وفي الرسالة الثانية التي بعث بها بعد شهرين كتب أنّ أوضاعَهُ تَتَحَسّنُ وأَنّهُ شاهد خالي أبا الهايم ونام عنده، وأنّ خالي يُسَلّمُ علينا جميعًا وأنّه يعمل مع فرقة نشمة في إحدى الكباريهات، وقال أحمد بأنّ خالي ما زال كما هو، رجلاً شهمًا، كريمًا، أنيقًا وبأنّه سعيد بالقرب من نشمة التي طلبت ذلك من خالي لأنّها تحبّه ولا تستطيع فراقه. ونشمة كلّ يوم ثلاثاء تأتي متنكّرةً إلى بيت خالي الذي يتألّق من جديد بين فِضّة يديها. كتب لي عن العاصمة وعن الفنّ وعن لوحاته، عن وجه اللّه، عن الأرصفة والباعة المتجوّلين، عن معرضه القادم الذي سيكون في إحدى صالات العرض في العاصمة وعن الألوان، عن كلّ شيء. فرحت بالرسالتين اللتين وصلتا دفعة واحدة، قرأتهما واسترخيتُ في الكهفِ المعدّ للغبار، وللهجر، وللملل. كم وددت لو أكتب لأحمد عن أوضاع أبيه التي ازدادت سوءاً وجنونه الذي كشف لي قسوة العنّابيّين وهم يقهقهون من أكتافه

العارية وهو يهزّها كراقصة محترفة، لو جعلته يعترف لي بحقيقة مشاعره الغامضة، وإن كنت لا أصدّق حقيقة رغبته بقتل هذا الأب الذي أصبح حطامًا ومجنونًا. متى ينتهي هذا العبث؟ قلت لهادي، فبدا صوتي متهدّجًا، ضحك وأشار إليّ كي ألحق بخطواته، كان يقفز عن الأرض ولا أرى إلاّ آثار خطواته، في أرض بعيدة كأنّي أراها لأوّل مرّة. قال لي إنّ هذه البيوت البائسة تُدعى عنّابيّة وهي التي جعلته يُمْسكُ بأوّلِ الأسرار، توغّلْ في بيوتها، في رائحة أزقّتِهَا وستكتشف كلّ الأشياء، لكنّي لم أعُدْ راغبًا بإعادةِ رسمِ الخرائطِ، ولماذا الخرائطُ أصلاً، أكان عبد الملك بن مروان إلهًا كي نعيد البحث عن قوافله، قلت له. ما عادت رسائلُ جدّتي الملفوفةُ بعناية، والموضوعة في زجاجات مغلقة بإحكام، والمُعَدّةُ للقذفِ إلى البحر، تُغريني، أصبحت نزقًا وأكثر وحدةً كأنّي أقترب من حكمةِ الأشياء. أمّي لم تعد تكترث لحضوري، أصبحتْ توصيني فقط أن أُغْلِقَ الباب الخارجي وأُنزل الرتاج جيّدًا، كما أنّها كثيرًا ما تنهضُ في الليل، تقطعُ أرضَ الحوشِ، تصلُ إلى الباب، تطمئنّ إلى إغلاقه وتعود إلى فراشها الذي تركته دافئًا، كأنّها هرمت دفعةً واحدةً حين صعدتْ إلى غرفة عائشة محاولةً التخفيفَ من غضبِها وشكوكِها التي أقَضّتْ مَضْجَعَهَا وهي تراقِبُ حركتها المتباطئةَ وجسمها المخفيَّ بأثوابٍ فضفاضةٍ بدأتْ بارتدائها محاولةً إخفاءَ شيءٍ ما. وقفتْ أمّي أمامها محاولةً الاستفسار بهدوءٍ نسائيٍّ، وببرودٍ شديد قالت عائشة إنّها حامل. لم تنهضْ من فراشها أو تحاولْ إخفاء أيّ شيءٍ أو التمويه، فقط أشاحت بوجهها، حاولتْ أن تُركّزَ بصرها على شيءٍ ما، زليخة قالت لي بأنّ أمّي كادت أن تُشَلّ وعُقدةَ لسانها لم تُفَكّ إلاّ

بعد أن أقنعتها زليخة أنّ عائشة تمزحُ معها أو تلعبُ بأعصابها كعادتها في المزاح الثقيل. وصفتْ لي زليخة أمّي وهي جالسةٌ قربَ جدّتي تنتحبُ على مخَدّتِهَا وهي تُخْبِرُهَا بما حدث، ثم فيما بعد وهي تستعيد قوّتها وتعود مرّة أخرى إلى غرفة عائشة، أغلقتْ الباب وراءها وتعالتْ الأصواتُ بعد قليل، أمّي مهتاجةٌ، صوتُ ارْتِطَامِ الأشياء، صرخاتُ عائشة المكتومة وخُصَلٌ من شعرها بقيتْ في يدِ أمّي القويّة. في الصباح خرجتْ عائشة بوجهٍ أصفر. بانت الكدماتُ على جبينها وخدّيها وأمّي تجرّها وراءها وأمرتني بمرافقتهما إلى عفرين، فرافقتهما دون أن أعرف لماذا وماذا حصل، وفي عيادةِ الطبيب بقيتُ في غرفة الانتظارِ الباردة، بينما دخلتْ أمّي وعائشة وخرجتا بعد نصف ساعة وفيما بعد عرفتُ أنّ الطبيب أكّدَ الحملَ وأنّه في شهره الرابع ولا مجالَ لأيّةِ عمليةِ إجهاضٍ، وقد رفضتها عائشة وتكلّمت جملاً قصيرة، قويّة، حازمة معلنة تمسّكها بالجنين. عدنا جميعًا من عفرين، أمّي استأجرتْ سيّارةً خاصّةً أوصلتنا إلى مدخلِ الزقاقِ المُؤَدّي إلى بابِ حوشنا ولم تتكلّم بأيّة كلمة، دخلتْ وأغلقتْ البابَ وراءها، أعادتْ تصليحَ الأقفال وزادت بالرتاجات وأوصتْ حمّود السائق على أقفالٍ جديدةٍ وضخمةٍ من حلب جلبها في اليوم التالي، ركّبَها لنا مُسْتَغْربًا، وبرّرت أمّي بأنّها أوامر جدّتي. وفي مساء اليوم نفسه الذي عدنا به من عفرين كنت تائهًا في البراري، أبحث عن مفردات ضائعةٍ وعن خطواتٍ ممحوّةٍ، عن روائحَ أعرفُها ولكنّي لا أتشمّمها كما يجب، طفتُ في البرّيّة الشرقيّة، دخلتُ النفق وقلت لهادي العنّابي حين رآني حائرًا إنّ كلّ ما قيل هو أكذوبة كبرى وإنّ الحياة وهمٌ كبيرٌ، لا يلبثُ أن يتغلغلَ

في أيّامِ البشر فيصدِّقون هذه الأكذوبة ويعيشونها، إنّما الحقيقة الوحيدة هي الموت. أشار لي هادي بيده أنّ هذا هراء ليس من مهمّتي وأنّ العنّابيّين حين قالوا عنه مجنون لم يكونوا مخطئين، إنّما كان يجب أن يحدث ما يحدث ليحتفظ بصفائه وصورة ماريّا نقيةً وذكرى تلك المراكب والمدن. حين عدتُ ليلاً إلى المنزل كانت أمّي منتظرةً لأوّل مرّة قدومي، أشارتْ لي أن ألحقَ بها إلى غرفتها، أحكمتْ إغلاقَ الباب الخارجي، قالت لي بأنّ أختي عاهرة ومذنبة ولطّخت شرف العنّابيّة والعائلة، ناولتني سكيناً لم أره من قبل وأضافت بأنّي الرجل الوحيد الذي يحقّ له إعادة هذا الشرف والانتقام له، وصرخت بحدّة بأنّني يجب أن أقتل عائشة، أن أذبحها كما يذبحون الديوك والدجاجات وأنّهَا ستقفُ على العتبةِ وتزغرد كي يسمع كلّ الناس زغاريدها وأنّي لن أدخل السجن. اسْتغربتْ أُمّي برودي وشرحت لي التفاصيلَ كافّةً، أخذتُ السكّينَ من يدها، ولَمْ أتَفَوّهْ بكلمةٍ، وفي الصباح قلتُ لها إنّي لن أذبح عائشة، كانت تستجير أن يأتي أحد ويخلّصها من حيرتها، لم تسألني عن السكّين لكنّها غرقت في صمتٍ طويلٍ لم تخرجْ منه مطلقاً إلاّ مرّات نادرة وقليلة، وبانَ الهرم على وجهها الذي اكتسب قسوةً لم أكن أتَوَقّعُ أن تتجلّى في تجاعيدها هكذا، قالت يجب أن أُعيد النظر في ذاتي وتوسّلتْ إليّ ألاّ أتركها، أن أُغَيّر عاداتي وأعود رجلاً كما تقتضي الرجولة كي أكون ذكراً مهاباً يأمر وينهى، وقبل كلّ شيء عليّ ذبح عائشة كما يذبحون الديكة أو كما ذبح أحد العنّابيّين ابنته حين رآها بين أحضان رجل ما لم يفصح أحد عن اسمه. يومها احتفلت العنّابيّة وتأَهّبَتْ للدفاع عن الرجل الذي غسل عاره بيده. لم أدر كيف

يستطيع أحد ذبحَ هذه العذوبة في عيني عائشة التي تآمرتُ معها كثيراً ضدّ كُلّ الأشياءِ التي بدأتْ تفقدُ بريقها وتديرُ لها ظهرها. أُمّي أغلقت البابَ نهائيًّا، بأقفالٍ ضخمةٍ ولم تَعُدْ تسمحُ لأحدٍ بزيارتنا، صامتةً أغلب الوقت ثم جالسةً تنكش الأرض أمام باب غرفة جدّتي التي لم تستطع التعليق بأيّ حرف على حالة عائشة بل تجلّى تعليقها كما فَسّرَتْهُ زليخة على طريقتها حين أَمْسَكَتْ بالسكّين الذي أهملته قرب النافذة وهجمتْ على عائشة التي كانت ما تزال تتقلّب في فراشها محاولة النوم ورأتْ السكين لامعًا في الظلام، بان وجه زليخة في الظلام وهي تكزّ على أسنانها، مقتربةً من عائشة التي لم تَقُمْ بحركةٍ إلاّ حين هَوَتْ يدُ زليخة بالنصلِ اللامعِ، جرحتْ عائشةَ جرحًا بليغًا، أمسكتها من يدها وقالت هذه أفعالُ رجالٍ، ولا أَقْبَلُ أن أُذبح على يد امرأة. زليخة بَكَتْ وذهبت تشعل الضوء كي تضمّدَ جرحَ عائشة ثم وهي تُحاول التكفير عن خطيئتها كما قالت فيما بعد لي وهي ترفضُ أَيّةَ كلمةٍ في موضوعِ زواجها من نجيب الذي جاء إلى بابِ دارنا وانتظرَ ليُفْتَحَ له، ثم أعاد الكَرّةَ، لم يُجدِ انتظارُهُ لثلاثة أيّام متواصلة كي يحظى برؤية زليخة أو أمّي. نجيب قرع الباب دون جدوى. بعد ذلك أرسلت له زليخة أنّها لن تتزوّج مطلقًا فالرجال دنسٌ وأنّها ستموت طاهرة، لن يمسّها رجل وستعيش بين أردية الأولياء والصالحين الذين يقفون كلّ يوم على نافذة جدّتي كالعصافير الملوّنة، يدقّون بالمزاهر ويطردون الأشباح التي هامت في المكان وأغرت عائشة لتتخلّى عن طهارتها، بكلمةٍ مختصرةٍ رصينةٍ أعلنتْ أنّها لن تتزوّج ولا تريد أن تسمع بهذه السيرة مطلقًا، زادت من حجابها وبدأت تتحاشى النظر إلى أشياء الذكورة.

نصل السكّين الذي عاد إلى مكانه لم يقربه أحد، الجميع ينظر إليه ولا يقربه أحد، أمّي تفتح باب الدار مرّتين في الأسبوع، تخرج خلالهما لزيارة قبر أبي وبيت خالتي، تجلسُ قرب خالتي دون أن تتكلّم، ثم تغادر وهي ترى الدموع في عينيها، ورجتها أمّي ألاّ تحاول زيارتنا دون أن تقدِّم تفسيراً مقنعاً. ظهورها الحازم، ومشيتها الواثقة ثم حديثها مع الذي يأتينا بالماء مرّتين في الأسبوع منع العنّابيّين من التكهّن أنّ بيتنا أصابه مسّ من الجنون، الجميع خَمّنَ أنّها أوامرُ جدّتي التي لم يعد أحد يراها وبدأت تنسحب رويداً رويداً من ذاكرة العنّابيّين الذين اهتمّوا بالتغييرات الجديدة أوّل الأمر، ثم نسوا كلّ شيء كعادتهم.

بعد هجوم زليخة بالسكّين على عائشة، قامت أمّي بتنظيف الإصطبل الذي كان مخصّصاً للبغلين اللذين عبق المكان برائحة أظلافهما والبخار المتصاعد من خياشيمهما زمناً طويلاً، خصّصته لعائشة كي تُدفن في الحياة مع مولودها الذي بدأ يتكوّن في بطن عائشة التي غدت هادئة، أكثر هزءاً ورصانةً، وقوّةٌ كانت تنبعث من عينيها وتختفي، ومن ثم تعيد إليّ الثقة أنّها تستطيع تجاوز هذه المحنة ببساطة، هازئةً بالموت الذي لم تَعُدْ تُهَدّدُ به أُمّي وإن كانت تُضْمِرُهُ بكُلّ تَصَرّفٍ من تصرّفاتها كأنّها تبحث فقط عن اليد التي ستمتدّ إلى السكّين وتمرّره على رقبة عائشة لتنهي هذه المهزلة التي بدأت فصولها تكبر ودقائق صمتها تتراكم، كأنّها ستنفجر معها في أيّة لحظة، وحينها تتشظّى الفضيحة وتتناثر من الأفواه وعلى الجدران في العنّابيّة وباقي الأماكن التي ما زالت تدافع عن الطهارة بالدم المرشوش على العتبات.

قالت عائشة إنّ المكان الجديد ملائمٌ تماماً لها حيث تستطيع الاضطجاع طوال اليوم في الظلام وتتذكّر رائحة ذلك الرجل الذي ترك وراءه كلّ هذه الفتنة، وكأنّ العبق ما زال يتغلغل في مسامّاتها التي بدأت تحدّثني حول التفاصيل التي لا أعرف، عن وجوهٍ بعيدةٍ تأتيها في المنام، ومدن مسترخية عند أكتاف البحر ثم تضحك وتذكّرني بأغانٍ تتحدّث عن الفراق والحزن والغرام، وتقول لي إنّ كلّ ما سأدوّنه ستمحوه الريح وتذرو صفحاته الأيدي العابثة فلا فائدة من التدوين. بدأتْ تَشْغَلُني فتْنَةُ السرد حين أنتظر هادي ليخبرني عن كلّ الأشياء التي كنت أَتَوَقّعُ أن يقولها لي عن المدنِ الغريبةِ والمراكبِ والحدودِ الحقيقيّةِ التي لا تُحَدّ. نوبات الصَمَم بدأت تزداد، خاصّةً حين أَقْتَرِبُ منه وهو جالسٌ على كرسيّ حديدي ضخم وسط البراري. تنزاحُ حدود المكان وتغيبُ التفاصيل الثابتة، هادي على كرسيّ حديدي وسطَ البراري، أنيق، قلق، تفوح من يديه روائحُ عطورٍ غريبةٍ، يقول كلاماً قليلاً لا أسمعه، فقط أُمْعِنُ في حركةِ الشّفَاهِ التي تَعْرِفُهَا. الجُمَلُ المتراصّة تجعلني أبحث مرّةً أخرى عن معاني الأشياء وأتساءلُ هل للسردِ كلّ هذه الفتنة. نوباتُ الصَمَم تغيبُ حين أكونُ وحيداً في كهف أحمد الجمل فأسمع من جديد صوت الرياح، وفيما بعد صوت آهاتِ فطّوم وهي بين يديّ تتجلّى بعريها كجسد لإلهةٍ من زبدٍ يحتضن كلّ الألوان، حين تتعرّى وتغتسلُ في الزاوية المعدّة للاغتسال، تأتيني مبلّلةً، عبقةً، هامسةً أن أَفْتِنَهَا وأذهب بعيداً في أعضاء أنوثتها التي قالت لي إنّها تنفتحُ كلّما لامَسَتْ جسدي، غبتُ في اللّذّةِ الصاخبةِ المداهمة كقافلةٍ من حنينٍ وأقحوانٍ وزبدٍ وعسلٍ، قلتُ لها إنّ لشفاهها مَذَاقَهُ، أسْتَعِيدُ طَعْمَ

الأشياءِ وحقيقتها، وكلّ شيء فعلته كان عبثًا لكنّه كان ضروريًّا كي أستطيع الهزء من هادي وهو ينادي عليّ أنّ الخرائط موجودة في جدران المنازل المحيطة بالمركز م. قالت لي فطّوم إنّها لن تستطيع أن تأتي إلى الكهف وإنّها ستنتظرني كلّ ليلة في بيتها، غَدَتْ عائشةُ أَكْثَرَ قُرْبًا منّي وأصبحت لقاءاتنا في الإصطبل أكثر حميميّة، قلتُ لها إنّ نوبات الصَمَم تلاحقني وأحيانًا لا أستطيع سماع حديثها إلاّ بشكل متقطّع. أخبرتني بأنّها ما زالت تَدْهَنُ جسدها بالكريمات وتحافظ على كلّ مَسَمٍّ فيه، وموعد ولادتها قد اقترب كثيراً وإنّها متشوّقةٌ كي تنجبَ في هذا الظلامِ كائنًا سيرى النور هنا ومن ثُمّ سيُعيدُ سيرتي في تدوين الحكاية والبحث عن أصول الحقائق ودروب القوافل التي سيطر عليها قُطّاعُ الطرق وجعلوا من التدوين الحقيقة الأكثر قسوة، لدرجة أنّ القرباط الذين كانوا يملؤون العنّابيّة بهجةً وألوانًا وروائحَ أقسموا أنّهم لن يعودوا إلى هنا كما أخبرني أحمد الجمل برسائله التي بدأت تصلُ كثيفةً، ملوّنةً ببطاقاتٍ ورسومٍ وصورٍ فوتوغرافيّة لأحمد وهو ذاهلٌ على أحد الجسورِ في العاصمةِ يستقرئُ شيئًا بعيداً، أو كأنّه يتأهّبُ للانتحار. صورٌ للوحاته، وصورةٌ بيضاء وسطها خطٌّ أزرقُ كتب لي أنّها اللوحة الأزليّة، وجهُ اللّه وصورتهُ، وأنّها ما زالت في بدايتها، وقال في رسالته إنّه اكتشف أنّ اللّه يتغيّر حسب المكان لذلك كانت جميع أوهامه حين كان هنا خاطئةً، وأنّه ما زال يعتقد أنّ بالإمكان البحثَ عن مبرّرات لوجودِ الكثيرِ من الأشياء. كلام، كلام، كلام وألوانٌ بدأتُ أفقدُ اهتمامي بها وأخبارٌ عن خالي أبي الهايم الذي قال إنّه ما زال ينتظرُ كلّ ثلاثاء نشمة التي تأتي متسربلةً بالسواد، متخفّيةً عن جميع الأنظار،

وخالي كلّ ثلاثاء يستيقظ مبكّرًا جدًّا يغسل الأواني والبلاط، يمسح الغبار عن النوافذ وأوراق النباتات، يغيّر شراشف السرير والمخدّات، حتى يغدو المكان ناصعًا، عابقًا بالعطور. تدخل نشمة وتغلق الباب وراءها، تخلع السواد وتتجلّى بين يديه طيفًا يمسكه ثم يفلت ويهيم في الفضاء، يقف على رؤوس أصابعه ويطير ثم يحطّ، ليعاود الطيران. امرأة من فضّةٍ وعاجٍ وآبنوسٍ وريحانٍ تنهمر بين يديه كأنّها المرّة الأخيرة تلتقيه، أو لأوّل مرّة بعد شوقٍ دام قرونًا. العاشقان لا يتكلّمان مطلقًا تاركين اللغةَ للبلهاء، للذين يعتقدون أنّهم سيحقّقون المعجزات. أتخيَّل نشمة امرأة ناضجة كما كتب لي أحمد في آخر رسائله، أحاول رسم تكوينها، شفتان من...، أتخلّى فورًا عن مهمّةٍ تافهةٍ كهذه وأحاول نسيان الملامح التي شوّهت ذاكرتي لعقود. نشمة طيفٌ وامرأةٌ تشعّ كالفضّةِ حين تضعُ رجليها في غرفةِ خالي الذي لا يتكلّمُ أبدًا، فقط يتيهُ في التفاصيلِ التي تعب اللّه كثيرًا في تجزئتها، ثم في إعادةِ لملمتها لتكون هكذا. امرأة من ريحانٍ. أقول لعائشة عن خالي، تضحك وتقول لي إنّ خالي سيذبحها إن عَلِمَ بالأمر، وكم ستكون سعيدة إن ذبحها بيديه الطريّتين، وأوصتني إن فعل أن يعزف على قبرها ما كان يعزفه لنشمة كي تغرق في لجّته. أمّي لم تعد تعنيها كثيراً الأخبار من الخارج كأنّها قرّرت كأبي أن تموت هكذا وحيدةً، صامتةً، غير آبهةٍ بشيءٍ، المذياعُ الوحيدُ المعلّقُ على جدار غرفتها بجانب صورة أبي أعطته للذي ما زال يأتينا بالماء على حماره الأبيض مرّتين في الأسبوع، دون أن ينبس بأيّ حرف كأنّه مُعَدّ لهذا الدور منذ آلاف السنين، يوقف حماره على باب الحوش ثم تأتي أمّي بالعلب تملؤها بالماء

وتغلق الباب وراءها، تضع كُلّ الرتاجات والأقفال السوداء الضخمة، ثم تعود مرّة أخرى إلى دورتها المعتادة، تحضّر الطعام، توزّعه بينها وبين عائشة التي تمدّ إليها صحنها من نافذة الإصطبل وأحيانًا من الباب. تدخل، تستطلع المكان، تضع الطعام وتخرج، وبين جدّتي وزليخة التي غالبًا ما تساعدها في أعمال المنزل دون أن تتحدّثا بشيء. زليخة لم تعدْ تحدِّثني كثيراً حتى حين أزور جدّتي، أدخل غرفتها، أُحِسّ بأنّي غريب أو بأنّ أحداً لا يشعر بوجودي، أراها وهي تتفكّك، الأحاديث بدت تُشَكّلُ لي عبئًا لا أستطيع احتماله خاصةً أنّ الصَمَم بدأ يستقرّ ويمنعني حتى من سماع صوت الريح التي هَبّتْ شديدة في هذا اليوم الذي أتى عاصفًا، غير متوقّع، فقبع العنّابيّون داخل بيوتهم، وأفسح لي المجال للسير هادئًا في طريقي إلى بيت فطّوم ودخول غرفتها المنارة بضوء خفيف، غرفتها التي بدأت أحفظ تفاصيلها جيِّداً، الفراش وسطها وامرأة تنتظر كي آتي، أخلع ملابسي وأتدثّر من البرد المفاجئ بجسدها الحارّ، وأغيب في النشوة التي تمنحني أحاسيسَ مختلفة لضرورات الوجود وإعادة البحث عن هادي الذي أخبرني أنّه سيغيب حالما أتوصّل إلى نهاية النفق الذي أسير فيه ولا أعرف إلى أين سيودي بي. كلّما استطال النفق كلّما ازدادت شكوكي ويقيني أنّ هادي فعلاً ليس أكذوبة اخترعها خيالي المريض وفرضها على تاريخ رُوِيَ بالصدفة وتخبّطتْ فيه أقدام الفاتحين المنتصرين والمهزومين. أجلس في النفق وكأنّي أسمع ويغيب صممي. أسمع عائشة وهي تلد، ليست وحيدة، أمّي تساعدها وجدّتي أيضًا وزليخة تقف أمام باب الإصطبل تأتمر بأوامر أمّي التي دَبّ نشاطٌ كبيرٌ في أعضاءِ جسدها، وهي تحاول جعل

ولادتها سهلةً ومأمونةً. أمّي تبكي وتتوتّر يداها وهي تسحب المولود الذكر الذي اتّفقنا أنا وعائشة على تسميته، ومَنْحِهِ لقبًا جديرًا بذكر وُلِدَ هكذا دون أيّة مقدّمات. قالت لي عائشة وهي تَتَمَعَّنُ فيه أليس جميلاً؟ حملتْه ودارتْ فيه أنحاء الإصطبل وفاطمة التي ازدادت زياراتها وتكثّفت أصبحت تقضي أوقاتًا طويلة مع عائشة ومع أمّي محاولة استرضاءها والغفران لعائشة أو تدبير أيّة وسيلة تعيد الأمور إلى نصابها لتزويجها من أبله أو لقيطٍ أو حتى من رجلٍ يجري الاتّفاق معه على ستر هذه الفضيحة التي بدأت تتسرّب إلى العنّابيّة وتنتشر على موائدها، دون أيّ يقين أو جزم قاطع. أمّي لم تكترث كثيرًا لكلمات فاطمة، وبان لي صمتها كموافقة مبدئيّة على التصرّف وتحريرها من هواجسها التي أحالتها إلى امرأة هرمة. عائشة رفضت وقالت لفاطمة إنّ مصيرها هي التي ستكتبه وستخطّهُ كما يحلو لها وإنّها ستنتظر فقط أن يقف طفلها الذي أسمَيْناه على رجليه كي يطأ أرض العنّابيّة وتلامِس قدماه ترابها لتغادر بعدها إلى المكان الذي ستعيد بناء كلّ شيء فيه، وقالت لفاطمة التي أخبرتها إنّها لم تستطع العثور على المُرافِق الذي قال ابن عمّي إنّه بعث به إلى خارج القطر لأمر هامّ يتعلّق بأعماله ولم يستفسر النائب عن شيء، فقط سألها كيف أتت وحيدة وكيف زوجها وأمّي وجدّتي. أسئلة اعتياديّة غير حارّة كما قالت فاطمة وهي تعد إن أتى إلى هنا بأنّها ستبهدله أمام الجميع ولن تخاف من كونه نائبًا. فاطمة بدت رسولاً مقنعًا حين تتحدَّث مع أمّي عن إعادة تسوية الأوضاع التي لم تسوّ والتي بدت للجميع أنّها بحاجة إلى قيامة. قلت لعائشة إنّ طفلها قد يغدو أجمل إن سرقنا له النور، فاطمة جلبت معها

ألبسةً زهريّةً ملوّنةً وبيضاءَ وأغذيةً وعطوراً وألعابًا وثوبًا جميلاً لعائشة بان في الضوء الشحيح الذي أتت به أمّي إلى الإصطبل مبقّعًا بألوان زاهية، عائشة بدت منهكة ومتعبة كأنّ هذا الإصطبل قد بدأ يأكل من عمرها ويدفنها في الحياة كما قالت أمّي، وحذّرت فاطمة وحذّرتني من أيّة محاولة لإخراجها وطفلها حتى إلى أرض الحوش، وأَقْسَمَتْ أنّها ستطرد الجميعَ وتغضب علينا جميعًا ثم قالت في نوبة من الكلام القصير المتردّد من شفاهٍ مرتجفةٍ إنّها ستقتل نفسها وإنّها نادمةٌ لماذا لم تفعل ذلك. عائشة باستسلام طلبت منّا أيضًا ألاّ نتحدث في هذه الأمور وقالت إنّها غير متضايقة من مكانها الذي حاولت أن تضفي عليه من روحها الكثير إلاّ أنّه بقي منتنًا ورائحة براز تنبعث منه لا تستطيع العطور منعها من التسرّب إلى أنفي الذي غدا أكثر حساسيّة للروائح بعدما استوطنني الصَمَم نهائيًّا، وأصبحت تنتابني نوبات سمع. كنت في البداية أظنّ الأمر ممتعًا وبعد ذلك بدأت أتضايق من تحديقي في الشفاه كي أُخَمّنَ ما يُقَالُ وحين تلفّني فطّوم بين ذراعيها لا أستطيع رؤية شفاهها، بدأت أبحث عن المفردات التي كانت تنعشني بذاءتها حين تهمسها في أذني وتتلوّى كضوء يحارب الخدوش وثقوب الأبواب المغلقة. بدأت أبحث في نهايات أصابع يديها عن هذه المفردات وأحاول ترجمة كلّ لمسة كي أستعيد تلك البهجة الرائعة وأسرار ذلك العالم المزدهي والمخفي من اللغة التي غدت صباحًا على شفاه العنّابيّين وهم يثرثرون بقاموسهم الضيّق عن أسعار البامياء وجنون هادي، وفيما بعد عن طيش خالي وفضيحتنا الكبرى، التي قلت لعائشة إنّ الفضيحة لا تنتظر وإن اضْطُرّتْ تَسَرّبَتْ عبر مسامّات الجدران

الكتيمة. اللّغة بدت لي عالمًا من الألغاز الآن وهي تتشكّل في ذاكرتي التي بدت مضطربةً، مشوّشةً، وأنا أبحث عن هادي الذي رأيته منذ أيّام قليلة جالسًا في مكانه على كرسيّه ممعنًا في الانتظار، قلت له إنّي وجدت المخطوطات والمفاتيح الصدئة وأبحث الآن عن الأبواب. أشار لي أنّه لا بدّ من أن يتركني ولن أصعد مرّة أخرى إلى منارة عنّاب وأنّ المركز م قد اتّضح لي ما دمت وجدت المخطوطات مرميّةً في نهاية النفق الذي لم أَعُدْ أكترث به كثيرًا خاصّة بعد ولادة الطفل الذي أسميْناه، وبدأ يضربني على وجهي بيديه الشاحبتين ثم وعائشة تحاول جاهدة تعليمه المشي كأنّها قد وصلت إلى نهاية المطاف، واشتاقت إلى الضوء والبراري وأصوات البنات في غرفتها والجلوس على قرص الدرج وشرب القهوة ومناكدة أمّي والهزء من كلّ شيء والتدخل في أسرار حياة كلّ العنّابيّات اللواتي ما زلن يتعرّفن على أوّل رائحة للذكورة المشتهاة، بدت مهمومة، حزينة، قاسية مع الطفل، تريد اصطحابه من يده كي يطأ بقدمه التراب، تفرح بمحاولاته، ويلفّها صمت أرض الحوش الذي لا يقطعه سوى حركة أمّي البطيئة وحركة زليخة التي زارت عائشة مرّات عديدة في الإصطبل. بكت، بكت، وقالت إنّها تصلّي ليل نهار كي يغفر اللّه لها، واقترحتْ عليها أن تأخذ الطفل وترميه أمام أحد المنازل أو أن تُعطيه للقرباط وهي تتدبّر الأمر فيما بعد. عائشة لم تتكلّم، فقط تشبّثت بالطفل الملفوف بأقمطته والباحث في الظلام عن معنى لهذا السقوط والذي سيبقى يحمل رائحة مكانه عالقة في جلده وفي مسامّاته حتى وإن تعمّد بالبحر، كما كانت عائشة تقول. حين تبدأ بالحنين للأزقّة والشوارع والمدن التي رسمتها، قالت، البحر سيغسل

جراحه وينظّف جلده من رائحةِ الأقبيةِ والإصطبلات. زليخة فعلاً تصلّي ليل نهار وتتوجّه بالدعاء بينما الغبار يغطّي جدّتي التي بدأت تكشّ وتصغرُ بينما الجدار أمام ناظريها يقف كأنّه يتحدّاها ولا يريد الإفصاح عن أولئك الرجال المُعَمّمين القادمين على خيولهم من وراء الهضاب، والرافعين أذرعهم والبياض يجلّلهم. هكذا قال لي هادي إنّ المخطوطات ستقول لك كلّ الحقائق، لكنّه لم يقل لي إنّ اختفاءه سيجعل منّي رجلاً تائهًا وتافهًا، أصمَّ دون أن يدري الآخرون أنّي تائه وتافه وأصمّ وعاجز حتى عن البوح باسم طفل عائشة. كلّ الأمكنة لم تعد تغريني في الولوج إليها، ولم ألاحظ أنّي لم أصعد إلى غرفة عائشة منذ ذلك اليوم الذي أمسكت به أمّي شعرها الطويل وجرّتها إلى ذلك الإصطبل المنتن الذي بدأت أكرهه وقلت لعائشة بأنّني لم أعد أكترث كثيراً للقيامة التي تنتظرها زليخة ولا للرجل الذي سيأتي ويمنح أمّي شعوراً بالطمأنينة ولا للرجال المعمّمين الذين سيفصح عنهم الجدار حين يتهدّم بعدما تنهي جدّتي نهشه وتفتيته.

لم أعد أنتظر شيئًا. صمتت عائشة وبانت لي عيناها في الظلام رائعتي الجمال، ثم رأيت شفتيها كأنّهما تقولان إنّ الطفل بدأ يقف على رجليه ويمشي وإنّ الفصول التي مضت والتي لم نعدّها ومواعيد الماء الذي يأتي مرّتين في الأسبوع فيتحرّك الباب الضخم وتُفتح الأقفال لاستقباله لم تعد تهمّها بشيء، وإنّ ذلك اليوم قد اقترب كثيراً ثم نهضت، لملمت أشياء الطفل كأنّها تستعدّ للرحيل، أمسكت بيد الطفل وسارت به إلى نهاية الإصطبل وعادت به، ثم سارت به وعادت وتركته فبدأ يزقزق ويصفّق ويدور على نفسه وصوته يملأ الفضاء. قالت

سنرحل، قلت لها وأنا أيضًا. طلبت من زليخة أن تتولّى أمور فتح الأبواب المقفلة، وكأنّي استعدت نشاطي، جلست في النفق. أيقنت أنّنا نستطيع أن نخرج منه إذا كان الإصطبل هو مركز الدائرة م وكأنّي ندمت لأنّي لم أحفر النفق كي يصبح متنفّسًا لعائشة وطفلها الذي بدا مبتهجًا، حارّة أصابعه التي أمسكتها في ذلك الفجر قبل أن تستيقظ العنّابيّة وكانت زليخة تفتح الأبواب لتخرج عائشة بفستانها الملوّن، المبقّع بأشجار تشبه أشجار الفستق وورود صغيرة أنيقة تمنح جسدها الذي بدا لي محافظًا على مكامن فتنته بالصدر الناهد، وأصرّت أن تفتح زرّها العلوي ليعود متألّقًا بصفائه كبلّور معتّق يشفّ في سماء مشتعلة الأضواء وبانسيابيّة خصرها، وحرارة عينيها اللتين لم أعرف بأنّ لهما كلّ هذا السواد والبريق؛ تمسك عائشة بيد الطفل وأمسك باليد الأخرى، ترسل نظرات امتنان لزليخة التي سرقت المفاتيح من خصر أمّي وفتحت البوّابات أمام أقدامنا. أرض الحوش ثم الباب الخارجي الذي مررنا تحت قناطره وجلست عائشة متفحّصةً الرجالَ قرب زاويته، ثم الزقاق الضيّق المفضي إلى ساحة العنّابيّة فالدرب الذي مشاه قبلنا عنّاب. عائشة ابتهجت بالصباح كأنّها تودّ الطيران، انفتح المشهد أمام أنظارنا وروائح الصباح عبقت في رئتيّ، والسكون الذي يحيط به، لا أسمع جلبة عائشة، الطفل يسير بيننا مبتهجًا، فرحًا كعصفور صغير، ابتعدنا عن العنّابيّة والشمس بدأت تشرق، كانت السهول أمامنا تدعو لطيران حرّ لا يتوقّف. تمعّنت بالطفل الذي أسميْناه، تفحّصت تقاطيعه، بثوبه الزهري ورجليه الحافيتين كما أرادت له عائشة أن يطأ أرض العنّابيّة قبل أن يغادرها وتقاطيعه الناعمة، بدا لي جميلاً، ورأيت

عينيه تجوبان ولا تستقرّان، يتخبّط في الطريق ويزداد تمسّكه بيدينا. انفتحت أمامنا عفرين بجبالها وغابات الزيتون التي تزداد فتنة حين يداعبها الصباح، تنشّقت عائشة الهواء النظيف ملء رئتيها. قالت لي وهي تُشير إلى الطفل الذي سمّيْناه: أليس جميلاً، قلت لها نعم، جميل لكنّه أعمى.

أواخر ١٩٩٦